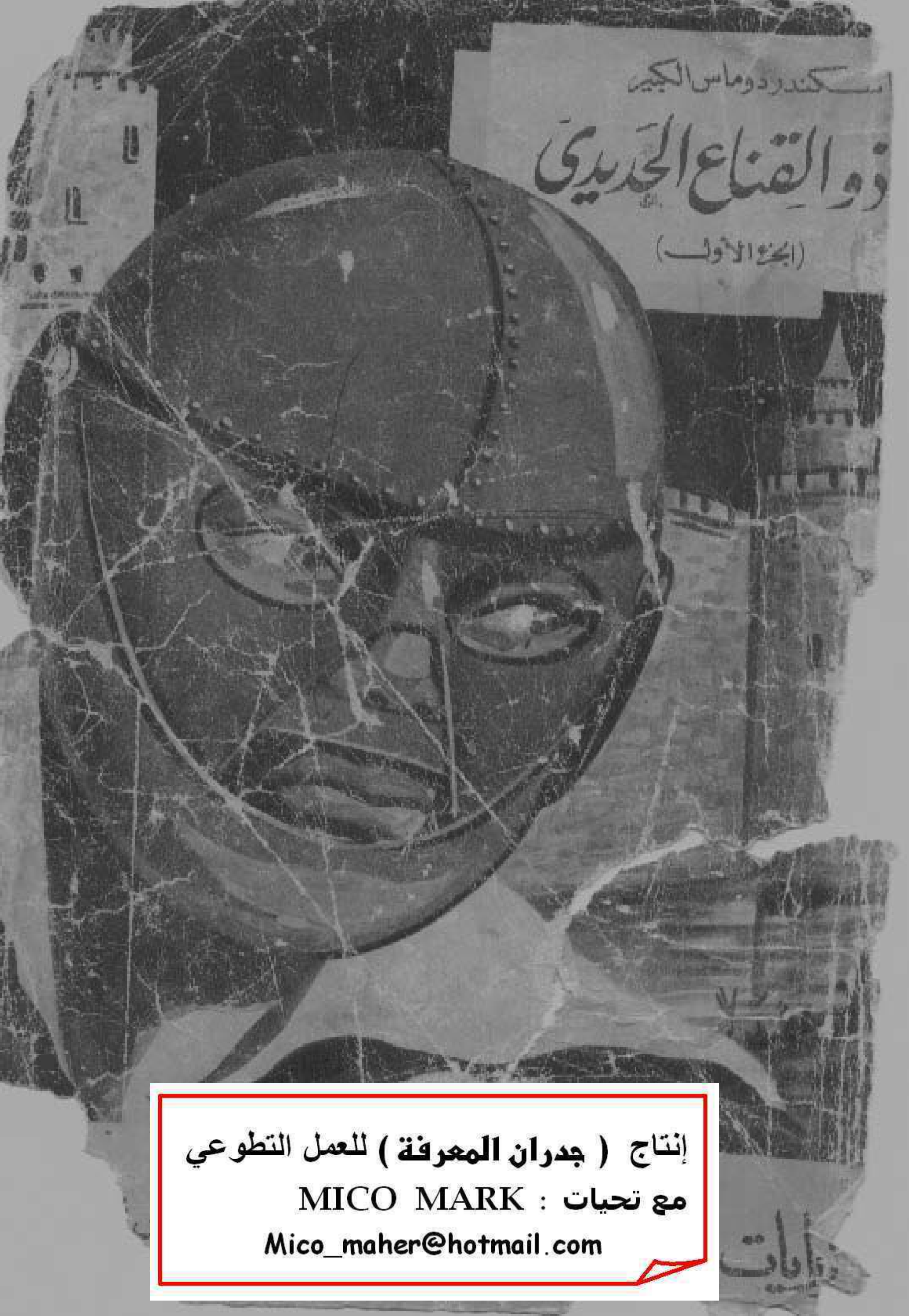

اسكندر دوماس الكبير
ذو القناع الحديدي
(الجزء الأول)
إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي
مع تحيات : MICO MARK
Mico_maher@hotmail.com

كلمة التحرير

هـذه رواية « ذو القناع الحديدى » : شجاعة وغرام وعزم واقدام ، ومكايد ودسائس ، وطموح ومغامرات ، وحوادث خلابة ، مثيرة للنفس ، ووقائع تاريخية عجيبة ، يصنعهـا عدد من أبطـال التاريخ . وهى من أروع ما أنتجته قريحة الروائى الفرنسى الأكبر اسكندر دوماس . وتدور حوادثها فى السنوات الاولى من عهد لويس الرابع عشر . فبينما هو ملك شاب ، طموح ، يريد ان يوطد دعائم ملكه ويقضى على البقية الباقية من مكانة الشرفاء ، اذا هو شاب طائش يحب هذه ويترك تلك من حسان النساء

وابطال هذه الرواية هم الفرسان الأربعة الذين اشتهروا فى عهـد أبيه لويس الثالث عشر بأعمال البسالة الخارقة ، حتى جرت حوادثهم مجرى الأمثال ، وعلى رأس أولئك الفرسان أراميس الذى انقلب أسقفا لمدينة « فان » . وهو الرأس المفكر ، والداهية المدبر ، وزعيم جماعة الجزويت المشهورين الذين كان مبدؤهم فى ذلك الزمان « الغاية تبرر الواسطة » . وقد عمـل هؤلاء الفرسان على اسقاط لويس الرابع عشر ، واحلال أخيه التوأم « فيليب » مكانه على العرش

ولما كانت هذه الرواية التاريخية ضخمة ، لا يتسع لها عدد واحد من روايات الهلال ، وكان اختصارها مخلا بروعة موضوعها ، وجمال اسلوبها ، فقد آثرنا أن ننشرها فى جزءين . نقدم الجزء الاول منهما للقراء فى هذا الشهر . وهو يتضمن قصة ولادة لويس الرابع عشر مع توأمه فيليب فى وقت واحد ، وكيف اختير الأول للعرش بعـد أبيه بينما حرم الثانى ، ثم سجن اثنى عشر عاما ، فى سجن الباستيل وكيف حيكت المؤامرة حتى اسـقط لويس الرابع عشر ، وسجن بدل أخيه



أما الجزء الثـانى ، ويصـدر فى منتصف ابريل القادم ، فهـو يصور لويس الرابع عشر فى سجنه ، ثم كيف تخلص منه وتغلب على أخيه فيليب الذى حل محله على سرير الملك ليلة واحدة . ثم كيف وحد السلطة كلها فى يده ، وقضى على جميع خصومه ومعارضيه بجرأة وشدة لا تعرف الرحمة ، حتى استتب له الأمر . وقد سجل مؤلف هذه الرواية فى جزءيها عصر لويس الرابع عشر بما فيـه من أحداث عجيبة ، فجاءت تحفة تاريخية رائعة

شخصيات الرواية

لويس الرابع عشر : ملك فرنسا الشاب ، ملك طموح يريد أن يوطد سلطته ، متقلب العواطف ، ولكنه يستمع إلى صوت الحق أحيانا

الامير فيليب : أخوه التوأم ، شاب عاقل رصين ، قضى طفولته مجهولا من الناس ، ثم سجن سنوات ، وكان لا يعرف نفسه ولا منبته الرفيع

الملكة آن النمسوية : والدة لويس وأخيه فيليب ، وأرملة لويس الثالث عشر .. ملكة متكبرة ، تعانى مرضاً جسمانياً وألماً نفسانياً وتحتفظ بسر مولد فيليب

الدوقة مدام دى شيفريز : كانت صديقة للملكة آن ثم أحنى عليها الدهر ، واطلعت على سر لفوكيه فباعته لكولبير

فوكيه : وزير مالية فرنسا ، رجل وجيه متعال ، يقرب الشعراء والفنانين

كولبير : وكيل المالية ، رجل قدير ماكر ، يطمح إلى منصب وزير المالية

اراميس (الكونت دربلاى) : كان أحد الفرسان الأربعة الأبطال فى عهد لويس الثالث عشر ، ثم صار أسقفا وعمل لاسقاط الملك واجلاس أخيه التوأم مكانه

بورتوس (دى فالون) : أحد الفرسان الأربعة ، ومن أغنى نبلاء فرنسا ، ضخم الجسم كأنه مارد ، شجاع ، طيب القلب

آتوس (دى لافير) : كبير الفرسان الأربعة ، ومن أكبر نبلاء فرنسا

راؤول (دى براجلون) : نجل آتوس ، شاب شجاع مقدام ، أحب الآنسة لويز دى لافاليير احدى وصيفات الأميرة هنريتا ، وتعاهدا على الزواج

دارتانيان : أحد الفرسان الأربعة ، وهو يشغل منصب قائد الفرسان

لويز دى لافاليير : احدى وصيفات الأميرة هنريتا ، أحبها راؤول ، وعاهدها على الزواج ولكنها وقعت فى غرام الملك لويس الرابع عشر

بيزمو : محافظ سجن الباستيل ، يحب أطايب الطعام والشراب ، واقع تحت تأثير أراميس الذي أقرضه أموالا ثم تركها له ، وهو عضو فى جماعة الجزويت

مؤلف الرواية



لقبوه « بالكبير » تمييزا له من ابنه الذى يحمل اسمه نفسه «اسكندر دوماس» . وقد ولد سنة ١٨٠٢ فى قرية فرنسية تدعى « فيلير ـ كوتريه » وقضى بها أعوامه الأولى خاملا ، ثم انتقل الى باريس وعمل فى مكتبة دوق أورليانز ، ثم اتصل بالبارون « تايلور » ومن طريقه عرف وكيل نيابة اسمه «فيلناف» كان قبل الثورة الفرنسية يكتب فى كثير من الصحف ، فاتخذه أستاذا ومرشدا

ويعد اسكندر دوماس الكبير أكثر الكتاب الروائيين انتاجا ، وقد ترجمت رواياته الى أكثر اللغات الحية ، ومن أشهرها رواية « الكونت دى مونت كريستو » و « ذو القناع الحديدى » هذه

واشتهر طول حياته بالاسراف الشديد ، حتى لقد حجز الدائنون على متاعه أكثر من مرة برغم كثرة ما كان يربحه من مؤلفاته . على أنه مع ذلك كان دائم الفكاهة والابتسام ، لا يبالى ما يقع فيه من الأزمات المالية ، ويتلقاها بالسخرية التي كانت من لوازمه

وقد روى ابنه أنه قال له يوما : « انك يا أبى كأنما ترمى أموالك من النافذة» . فأجابه : « لا بأس !.. فهناك من يلتقطونها ! » . وقال لصديق له عاتبه على اسرافه : « كيف أكون مسرفا مع أننى جئت الى باريس وليس معى سوى قطعة ذهبية واحدة ما زلت محتفظا بها حتى الآن ؟ ! »

وطلب اليه يوما أن يساهم فى التبرع بنفقات جنازة أحد المحضرين ، فتبرع بضعف المبلغ المطلوب قائلا : « هذا لكى تدفنوا اثنين من المحضرين بدلا من واحد ! »

وذهب ذات ليلة الى مسرح الكوميدى فرانسيز لمشاهدة تمثيلية شعرية لصديقه « اسكندر سوميه » . وهناك رأى أحد النظارة نائما فلفت اليه نظر المؤلف مداعبا . ثم حدث فى الليلة التالية أنكانا فى المسرح يشاهدان تمثيلية له هو ، فلفت سوميه نظره الى متفرج نائم فى المكان نفسه فأجابه قائلا : « هذا الشخص هو نفسه الذى رأيناه أمس لم يستيقظ بعد ! »

صديقان قديمان

كان كل موظفي البلاط مشغولين بأعمالهم فيه حينما انسل رجل الى البيت القائم وسط الحدائق خلف ميدان جريف ، يرتدي معطفا أسود يتدلى على جانبه سيف طويل ، وقد أخذ طريقه في خطى متزنة ثابتة وان يكن قد ودع الشباب ، مما يدل على أنه ذو قلب غير هياب تعود المغامرات !

ولم يكد يجتاز الباب الداخلي حتى دقت الساعة الثامنة . وبعد عشر دقائق جاءت سيدة يتبعها حارس كامل السلاح فقرعت الباب نفسه وسرعان ما فتحته لها امرأة عجوز كانت هناك ، فدخلت وهي ترفع عن وجهها القناع الذي كان يحجبه ، واذا هي سيدة جاوزت سن الشباب ، وتخلى عنها الجمال ، ولكنها مع ذلك ذات نشاط ظاهر ، ولها رأس مرفوع . وقد حاولت اخفاء حقيقة سنها وراء زينتها الدالة على حسن الذوق !

ولم تكد تدخل البهو حتى استقبلها ذلك الرجل الذي سبقها اليه منذ قليل ومد يده لتحيتها قائلا :

ـ يوم سعيد يا سيدتي الدوقة

فأجابته قائلة :

ـ كيف أنت يا عزيزي أراميس ؟

ثم قادها الى جناح فخم تنعكس على نوافذه العالية أشعة الشمس الغاربة . وجلسا في الضوء الخافت جنبا الى جنب ، دون أن يطلب أحدهما اضاءة الجناح بالشموع ، كأنما راقهما أن يختفيا وراء تلك الظلال ، أو كأنهما يريدان الانزواء في عالم النسيان !

ثم قالت الدوقة :

ـ انك لم تترك لي ما أعرف به أنك على قيد الحياة منذ حديثنا معا في فونتينبلو .. واني أصارحك القول بأن وجودك في ذلك اليوم حين وفاة الفرنسيسكاني ، ووقوفك على تلك الاسرار ، قد أثارا في نفسي دهشة عظيمة !

فقال محدثها أراميس : « في امكاني أن أفسر لك وجودي هناك ووقوفي على بعض الأسرار »

ولكن الدوقة واصلت كلامها قائلة :

ـ دعنا أولا نتحدث عن نفسينا قليلا،فان صداقتنا ليست حديثة العهد!

فأومأ برأسه موافقا وقال : « أجل يا سيدتي ، واذا شاء الله فسنبقى صديقين الى الأبد ! »

وقالت الدوقة : « هذا ما أريده أيها الفارس ، وليس مجيئي الى هنا الا الدليل على ذلك ! »

فقال أراميس : « ان مصالحنا لم تعد موحدة يا سيدتي الدوقة كما كانت من قبل »

قالت : « نعم .. ان لنا الآن مصالح أخرى ، ولكن ما دام كل منا الآن يفهم حديث الآخر كما كنا نتفاهم قبلا ، ففي استطاعتنا أن نتحدث اذا شئت ! »

قال : « اني تحت أمرك يا سيدتي .. لكن كيف عرفت عنواني ؟ وماذا كان هدفك ؟ »

قالت : « انه الفضول قبل كل شيء !. فقد أردت أن أعرف ما شأنك بالفرنسيسكاني الذي كانت لي به علاقة عمل ، وكان موته فجأة كما تعلم . ولعلك تذكر أننا بعد محادثتنا معا في فونتينبلو ، وفي الفترة التي تلت اغلاق القبر عليه، كان التأثر قد غلبنا فلم تتح لأحدنا فرصة لاتمام الحديث »

فأومأ أراميس برأسه موافقا وقال : « أجل يا سيدتي ! »

وواصلت الدوقة كلامها فقالت : «على أني لم أكد أفترق عنك حتى ندمت على أني لم أتم الحديث معك . ومنذ ذلك الحين وأنا تواقة لان أعرف الحقيقة .. انك أشرفت على جنازة الفرنسيسكاني ، ولم تقل لي كلمة عن علاقتك به ، وأنا أيضا لم أخبرك بما كان من صلات بيني وبينه ، ولم يكن ذلك يجدر بنا ونحن صديقان قديمان . ولهذا أردت أن أقابلك وأتحدث معك لكي أطلعك على معلومات وقفت عليها أخيرا ، ولكن أؤكد لك أن ماري ميشون التي لم تعد في عالم الوجود قد خلفت وراءها امرأة تحرص مثلها على ذكريات الماضي ! »

فانحنى أراميس على يد الدوقة وطبع عليها قبلة ثم قال :

ـ لا شك في أنك لقيت نصبا في الاهتداء الى مقري !

فقالت : « أجل !. ولكني أعرف أنك صديق المسيو فوكيه ، وقد أعانني هذا على تبين الطريق الاقرب اليك »

فقال متعجبا : « صديق المسيو فوكيه ؟!.. هذا شرف كبير لا أدعيه لنفسي !. انني لست الا قسيسا صغيرا أستظل بحماية ذلك الكبير الكريم، ويسعدني أن أحتفظ له بواجب الشكر والوفاء ! »

فقالت الدوقة : « لقد جعلك أسقفا !. ولا شك في أنه منصب لا بأس به وذو معاش حسن لفارس جميل ! »

فابتسم أراميس وقال : « اذن فقد سألت عني في ديوان المسيو فوكيه؟»

قالت : « نعم ، وقد كان ذلك أمرا يسيرا ، فقد علمت أنك سافرت معه الى فونتنيبلو ، ثم توجهت الى مقر أسقفيتك ، وهى فى (بل – أيل – أن – مير) على ما أظن ! »

فقال مصححا : « ان أسقفيتى فى (فان) يا سيدتى »

فقالت : « هذا ما قصدت أن أقوله ٠ ولكن لسانى سبق الى ذكر (بل – ايل – أن – مير) التى هى من أملاك المسيو فوكيه ٠ ولهذه المناسبة : هل صحيح أنها محصنة ؟٠٠ أنا أعرف أنك واسع الدراية بالمسائل الحربية »

فقال : « لقد نسيت هذه المسائل منذ دخلت فى خدمة الكنيسة »

قالت : « على كل حال ، كان يكفينى أن أعلم أنك عدت من (فان) وعلى هذا عهدت الى الكونت دى لافير ، صديقنا الذى فطر على الكتمان، فى التحقق من أمر رجوعك ٠ ولكنه اعتذر بأنه لا يعرف عنوانك »

فقال الاسقف لنفسه : « هذه شيمة آتوس ، ان الشهم لا يتغير ! » ٠ ثم قالت الدوقة :

– انك تعلم انى لا أجرؤ على الظهور هنا فان الملكة الوالدة دائمة الغضب على !٠ هل يدهشك ذلك ؟٠ ان لذلك أسبابا لا محل لذكرها الآن ٠ على أنى خلال احتجابى عن الانظار صادفنى شىء من حسن الحظ فلقيت المسيو دارتانيان الذى كان فى الماضى صديقا لك »

فأومأ برأسه موافقا وابتسم قائلا : «ولا يزال صديقى» ٠ بينما واصلت الدوقة كلامها فقالت :

– وقد حصلت منه على بعض المعلومات ، وأرسلنى الى المسيو بيزمو محافظ الباستيل !

فدهش أراميس اذ سمع ذلك وقال للدوقة :

– ولماذا أرسلك دارتانيان الى بيزمو ؟

فقالت : « ليس فى استطاعتى أن أوضح لك هذا الأمر الآن »

وأخذ هو يجهد فكره لعله يعرف السبب ٠ ثم قالت له الدوقة :

– ان المسيو بيزمو مدين لك كما أخبرنى دارتانيان ٠ ومن السهل أن نعرف من المدين عنوان الدائن »

قال : « هذا صحيح ٠ وعلى هذا كان بيزمو هو الذى دلك على عنوانى »

فقالت : « نعم ، وعلى أثر ذلك أرسلت اليك خطابا فى سانت مانديه »

فقال : « لا أزال محتفظا بهذا الخطاب ، وله عندى قيمة كبيرة لان له الفضل فى رؤيتى اياك ! »

وأعقبت ذلك فترة سكوت قطعها هو بعد قليل بقوله :

– لقد وصلنا فى حديثنا الى زيارتك للمسيو بيزمو ٠٠ أليس كذلك ؟

فضحكت وقالت : « بل وصلنا الى أبعد من ذلك ! »

فقال : « أجل ، كنا نتحدث عن الضغن الذى تحملينه للملكة الوالدة »

فقالت : « أبعد من ذلك ٠ لقد كنا نتحدث عن العلاقة التى كانت تربطنا بالفرنسيسكانى ! »

فبدا الاهتمام فى وجهه من جديد وقال :

– نعم ، نعم !٠٠ أتمى حديثك ٠٠ ها أنذا كلى آذان صاغية للدوقة مدام دى شيفريز

فقالت الدوقة : « من السهل تفسير تلك العلاقة فانك تعلم أنى أعيش فى بروكسل مع المسيو دى ليك »

– لقد سمعت ذلك

– وأنت تعلم أيضا أن أولادى جردونى من كل ما أملك ؟!

– هذا أمر شنيع يا عزيزتى الدوقة !

– شنيع حقا ٠٠ وقد أرغمنى ذلك على التماس وسيلة للعيش خصوصا أنى ليس لى من يحمينى !

– أنت التى طالما حميت أناسا كثيرين !

– هكذا الدنيا أيها الفارس !٠ وعلى كل حال ففى الوقت الحاضر تتاح لى فرص كثيرة لمقابلة ملك اسبانيا، وقد عين جلالته أخيرا قائدا جديدا للجزويت كما هو المعتاد !

– كما هو المعتاد ؟!٠ أواثقة أنت من أن هذا هو المعتاد حقا ؟

– نعم ، كيف لا تعلم ذلك ؟

– عفوا ٠! اننى أعلم ولكن ذهنى كان شاردا !٠

– لا بأس !٠٠ أنا واثقة من أنك تعلم ذلك ما دمت على صلة وثيقة بالفرنسيسكانى ٠ وقد أردت أن أقول : « ان ملك اسبانيا رأى أن يؤدى لى خدمة فلم يجد خيرا من اعطائى كتابا الى الفلاندر ، يوصيه بى خيرا وبالمسيو دى ليك ، وقرر لى معاشا من أموال الجزويت !

فبدا التعجب فى وجهه ، وتساءل قائلا : « الجزويت ؟! »

فقالت الدوقة : « أجل !٠ وقد زارنى الفرنسيسكانى ، أعنى قائد الجزويت ، ولما كان نظام تلك الجماعة لا يجعل حقا فى الحصول على معاش من خزانتها الا لمن يؤدى لها خدمات ، فقد تفاهم معى على أن يكون لى عمل أستحق به ذلك المعاش »

فقال أراميس : « عجبا !٠ لم أكن أعلم شيئا عن هذا النظام »

فسكتت هنيهة حاولت خلالها أن تتفرس فى وجه أراميس لكنها لم تتبينه تماما لشدة الظلام ، ثم مضت فقالت :

ـ أجل تلك هي القاعدة ٠ وعلى هذا يجب أن أكون ذا فائدة للجماعة ٠ وقد عرضت أن أقوم برحلة لهذا الغرض وتمت الموافقة على ذلك ، على أن المسألة في الواقع ليست غير شكلية ، لأتمكن من نيل المعاش الذى أنا فى حاجة اليه !

فهمس أراميس قائلا فى صوت متهدج : « انى ليحزننى أن أسمع ذلك ٠ أمثلك تضطرين الى أخذ معاش من الجزويت ؟! »

فقالت : « كلا أيها الفارس ، ان المعاش ليس منهم سل من ملك أسبانيا ! »

فتنهد وهز رأسه مغمغما : « أليس المورد واحدا ؟ »

فقالت : « كلا أيها الفارس ، ان المعاش ليس منهم بل من ملك أسبانيا ! »

فاستطرد أراميس قائلا :

ـ لا شك فى أن ثروتك الطائلة قد بقى منها شىء ؟

فقالت : « لم يبق لى سوى قصر دامبيير ، ولكنه مرهون مثقل بالديون ، ويكاد يصيبه الخراب ! »

فحدجها بنظرة نافذة لكنه لم ير شيئا فى الظلام المحيط بهما ثم قال : « كيف تسكت الملكة الوالدة على كل ذلك ؟ »

فقالت الدوقة : « لقد نسيت الملكة الوالدة كل شىء ! »

قال : « أحسبك سعيت فى سبيل استعادة رضائها عنك ؟ »

ـ أجل !٠ ولكن الملك فيما يظهر ورث عن أبيه كراهيته لى ٠ انى امرأة بغيضة لا يمكن أن يحبنى أحد !٠ أليس كذلك ؟

ـ أرجو يا عزيزتى الدوقة أن تصلى الى الهدف وأن تخبرينى بما جاء بك الى هنا ، لأنى أعتقد أن كلا منا يستطيع أن يخدم الآخر

ـ هذا ما أعتقده أنا أيضا ٠ لقد ذهبت الى فونتينبلو لغرضين : أحدهما خاص بالفرنسيسكانى الذى تعرفه ٠ ولهذه المناسبة خبرنى كيف عرفته ؟ لقد قصصت عليك قصتى ولكنك لم تخبرنى بعد بشىء عن نفسك !

ـ كان طبيعيا أن عرفت الفرنسيسكانى ، فقد كنا زميلين فى دراسة اللاهوت بجامعة بارما ، وسرعان ما توطدت الصداقة بيننا ، ولكن شواغل العمل أو السفر أو الحرب كانت تفرق بيننا أحيانا

ـ أكنت تعرف أنه قائد الجزويت ؟

ـ كنت أشك فى ذلك !

ـ ولكن أى ظرف عجيب جعلك توجد بالفندق الذى اجتمع فيه المسافرون الاخوان التابعون للجماعة ؟

ـ كان ذلك مصادفة لا أكثر !٠ فقد توجهت الى فونتينبلو متنكرا لمقابلة المسيو فوكيه كى يمهد لى السبيل الى مقابلة الملك ، وهناك رأيت الراهب

المسكين يموت فى الطريق وعرفت شخصيته فورا ، وأنت تعرفين الباقى فقد مات بين ذراعى !

ـ أجل !٠ ولكنه خلف لك سلطانا واسعا حتى انك تصدر أوامرك وتوجيهاتك وكأنك أحد الملوك !

ـ لقد ترك لى بعض مهام أقوم بها !

ـ وماذا ترك لك فيما يختص بى ؟

ـ ترك لك اثنى عشر ألف جنيه ، وأحسبنى وقعت على الأمر الخاص بصرف هذا المبلغ ، ألم تتسلميه ؟

ـ تسلمته ! ٠٠ وقد قيل لى انك تصدر أوامرك بشكل جعل الكثيرين يعتقدون أنك عينت خلفا للقائد الراحل !

فصعد الدم الى وجه أراميس ، واستطردت الدوقة تقول :

ـ لقد حصلت على معلوماتى هذه من ملك اسبانيا نفسه ٠ وقد بدد بعض الشكوك التى قامت بذهنى ٠ انه هو الذى يعين كل قائد للجزويت ، ويجب أن يكون القائد اسبانيا طبقا لنظم الجماعة ، ولكنك لست اسبانيا ، كما أن ملك اسبانيا لم يعينك !

فقال أراميس :

ـ ها أنت ذى ترين يا سيدتى أنك كنت على خطأ فى توهمك ، ما دام ملك اسبانيا نفسه قد بين لك ذلك !

ـ الواقع يا عزيزى أراميس أنى كنت أفكر فى شىء آخر !٠ انى أعرف شيئا عن معظم الأمور ، وقد خطر لى أنك تعرف اللغة الاسبانية !

ـ ان كل فرنسى اشترك فى حرب (الفروند) (١) يعرف اللغة الاسبانية

ـ هل عشت فى فلاندرز ؟

ـ ثلاث سنوات !

ـ وهل مكثت طويلا فى مدريد ؟

ـ خمسة عشر شهرا !

ـ اذن لك الحق فى نيل الجنسية الاسبانية اذا شئت ! فكل ما يشترط لكسب هذه الجنسية هو الاقامة سنتين فى أرض اسبانية ومعرفة اللغة ٠ وأنت قد أقمت أكثر من تلك الفترة وتعرف اللغة الاسبانية

ـ الى أى هدف ترمين يا دوقة ؟

ـ الى اننى على صلة حسنة بملك أسبانيا !

فقال أراميس يحدث نفسه : « وأنا لست على صلة سيئة به ! »

---

(١) حرب داخلية وقعت فى فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر حين كان قاصرا (١٦٤٨ ـ ١٦٥٣) بين حزب البلاط تمثله الملكة آن النمسوية ومازارين ، وبين البرلمان الفرنسى

ثم سألته الدوقة :

ـ أأطلب الى ملك أسبانيا أن يعينك خلفا للراهب الفرنسيسكانى ؟· اذا لم تكن قد عينت فى هذا المنصب بعد فانى أستطيع أن أؤدى لك هذه الخدمة !·

ـ ولماذا لم تؤدى هذه الخدمة نفسها للمسيو دى ليك ؟· انه رجل موهوب على أنك تحبينه أيضا !·

ـ أجل ولا ريب !· ولكن دعنا الآن من المسيو دى ليك : ألا تحب أنت أن تنال ذلك المركز ؟

ـ كلا !· وشكرا لك !

فسكتت هنيهة وقد رجحت أنه قد عين فى ذلك المركز ، ثم قالت له :

ـ اذا أبيت على أن أقدم لك هذه الخدمة ، فان ذلك لا يشجعنى على طلب ما أريده منك !

ـ ما عليك الا أن تطلبى

ـ وكيف أطلب اليك شيئا وأنا غير واثقة من أن لك القدرة على تلبيـة طلبى ؟

ـ مهما تكن سلطتى ومقدرتى محددتين ، فأرجو أن تطلبى الى ما تريدين

ـ انى محتاجة الى مبلغ من المال لاصلاح قصر دامبيير

فقال أراميس ببرود :

ـ مبلغ من المال ؟· حسنا يا دوقة !· كم تريدين ؟

ـ انه مبلغ ضخم

ـ انك تعلمين انى لست غنيا !

ـ كلا ولكن جماعة الجزويت غنية فلو أنك عينت قائدا لها ···

ـ أحسبك تعرفين أنى لست القائد !

ـ فى هذه الحالة تلجأ الى صديق لك وافر الثروة · أعنى المسيو فوكيه

ـ المسيو فوكيه ؟· انه قد أصابه الخراب يا سيدتى !

ـ هذا ما يقال ولكنى لا أصدقه !

ـ ولم لا تصدقين ذلك ؟

ـ لأن عندى ، أو بالاحرى عند دى ليك ، خطابات معينة من الكاردينال مازارين تدل على وجود حسابات غريبة !

ـ أية حسابات ؟

ـ حسابات خاصة بمبالغ مختلفة من المال اقترضت وتم التصرف فيها· انى لا أذكر تماما ما فى هذه الخطابات ولكنها تثبت أن وزير المالية قد أخذ ثلاثين مليون فرنك من خزائن الدولة · والأمر جد خطير !

فبدا فى وجه أراميس الاهتمام والقلق وسألها قائلا :

ـ أيمكن أن تكون لديك هذه الخطابات التى تتحدثين عنها ولا تخبرى بها المسيو فوكيه ؟

ـ انى أحتفظ بمثل هذه المسـائل الصغيرة لوقت الحاجة · وقد يأتى اليوم الذى أستمد منها نفعا وعندئذ تسحب من الخزانة التى حفظت بها !

فسألها أراميس : « هل حل ذلك اليـوم ؟ » · فلما وافقت على كلامه قال لها :

ـ هل اعتزمت أن تطلعى المسيو فوكيه على تلك الخطابات ؟

فقالت : « لقد آثرت أن أتحدث عنها معك ! »

فقال : « لابد أنك فى حاجة ماسة الى المال ، ولهذا تفكرين فى مثل هذه المسائل ، أنت التى كنت لا تكترثين لما يكتبه اليك مازارين نفسه ! »

قالت : « نعم ، الحقيقة أنى فى حاجة الى المال ! »

فقال أراميس ببرود : « لا شك أنه يؤلمك أن تتخذى مثل هذه الوسيلة انه لأمر يشق عليك ! »

فقـالت : « لو أننى أردت الشر بدل الخير ، ما كنت لأطلب الى قائد الجزويت أو الى المسيوفوكيه مبلغ نصف مليون فرنك لاصلاح قصردامبيير· بل كنت أطلب هذا المبلغ التافه من صديقتى القديمة الملكة الوالدة·ولا شك أن خطابات السنيور مازارين كانت تفتح لى بابها حيث لا يكلفنى الحصول على هذا المبلغ الا أن أقول لها : (أود لو أستقبلك فى قصر دامبيير ، وأرجو أن تسمحى لى بأن أجعل ذلك القصر أهلا لهذا الغرض)··أليس كذلك ؟ »

فلم يجب أراميس ببنت شفة ، وبقى ساكتا ، فقالت له : « فيم تفكر ؟ »

فقال : « انى أجمع بعض أرقام ! »

فقالت : « حسنا !· انك تجمع الأرقام ، بينما المسـيو فوكيه يطرح أرقاما · أما أنا فأضرب أرقاما بعضها فى بعض !·· حقـا يا عزيزى ·· ما أبرعنا حاسبين !· وما أشد ما يفهم أحدنا الآخر ! »

فقال لها أراميس : « ألا تسمحين لى بأن أفكر قليلا فى الأمر ؟ »

قالت : « ان الأمر بين أناس مثلنا لا يحتاج الى ذلك ، ولا يحتمل الا أحد أمرين : اما القبول واما الرفض »

فقال الاسقف يحدث نفسه : «انه شرك منصوب ، ومن المحال أن تستمع الملكة آن النمسوية الى امرأة مثل هذه » · ثم قال لها :

ـ أحسب أن المسيو فوكيه لا يوجد عنده الآن نصف مليون فرنك

فقالت : « اذن لا فائدة من الكلام فى ذلك،ويمكن أن يصلح قصر دامبيير بطريقة أخرى »

ـ أحسبك لست فى ورطة مالية الى هذا الحد !

— بل أنا فى ضائقة شديدة !

— لا شك فى أن الملكة ستفعل لك ما يعجز عنه وزير المالية !

— نعم ، ولكن ألا ترى من الافضل أن أكلم المسيو فوكيه نفسه فى شأن تلك الخطابات ؟

— كلا . ولكن افعلى ما يحلو لك : فان المسيو فوكيه اما أن يشعر بأنه فى هذه المسألة مذنب أو برىء . فاذا كانت الاولى فانه لشدة كبريائه لن يعترف بذنبه . واذا كانت الثانية فان تهديدك اياه يكون اهانة بالغة له

فقامت الدوقة من مقعدها وهى تقول :

— ان منطقك كمنطق الملائكة

— واذن فستفضحين المسيو فوكيه لدى الملكة ؟

— أفضحه ؟ . انك تتخذ كلمة شديدة . انى لن أفضحه يا صديقى العزيز . انك تعرف الآن من شؤون السياسة ما يكفى لان تدرى كيف تعالج هذه الأمور . اننى لن أفعل سوى أن أقف ضد المسيو فوكيه ، وفى حرب حزب ضد حزب آخر يكون السلاح الذى يستخدم فى الهجوم سلاحا ذا أثر !. ومتى عادت علاقتى الودية مع الملكة الوالدة فقد أصبح ذات خطر

— انك لا تجهلين ان المسيو فوكيه على أحسن علاقة مع ملك اسبانيا ، وعلى ذلك اذا بدأت حربا حزبية ضد المسيو فوكيه ، فانه سيرد عليك بالطريقة نفسها ، وسيتخذ من هذه العلاقة سلاحا للهجوم !

— أتريد أن تقول انه سيكون على صلة حسنة بقائد الجزويت يا عزيزى أراميس ؟

— قد يكون الأمر كذلك يا دوقة !

— اذن أنت ترى أنه سينقطع عنى المعاش الذى آخذه من الجماعة ؟

— أخشى أن يحدث ذلك !

— حسنا !. يجب أن ألتمس ما أجده من عزاء . ان مدام شيفريز لم يبق هناك ما يمكن أن تخشاه بعد ريشيليو وبعد حرب الفروند وبعد المنفى !

فقال أراميس : « ان المعاش كما تعلمين هو ثمانية وأربعون ألف فرنك »

قالت : « نعم ، هو كذلك ويا للأسف »

قال : « أنت تعلمين طبعا أن الصراع بين الاحزاب لا يدع سبيلا للفرار أمام الخصوم وأنصارهم »

قالت : « أتعنى أن دى ليك المسكين سيشقى كذلك ؟ »

فقال : « أظن أنه لا مناص من ذلك يا دوقة »

— ان معاشه لا يعدو اثنى عشر ألف فرنك !

— أجل ولكن ملك أسبانيا لا يزال له سلطانه . وفى استطاعته بايعاز من المسيو فوكيه أن يزج بالمسيو دى ليك فى السجن حتى حين

— انى لا يزعجنى ذلك يا صديقى العزيز ، لانى بفضل صلحى مع الملكة الآن ، سأجعل فرنسا تصر على الافراج عن دى ليك !

فقال : « هذا صحيح . ولكن فى هذه الحالة هناك أمر آخر تخشينه ! »

فسألته متلهفة : « ما هو ؟ » . فقال :

— ستعلمين ، ان لم تكونى قد علمت،أن عضو جماعة الجزويت لن يسهل عليه تركها ، لأن الاسرار التى وقف عليها تصبح وبالا عليه !

ففكرت مدام دى شيفريز هنيهة ثم قالت :

— هذا أمر أشد خطرا ، وسأفكر فى الأمر !

وبرغم الظلام الشامل أحس أراميس أن محدثته تنظر اليه نظرة نافذة تكاد تخترق قلبه . ثم قال لها وهو يتحسس بدافع الغريزة خنجرا مخبأ على صدره : « لنتخلص المسألة ولنتفاهم »

فقالت : « أجل !. ان دقة الحساب تسبب صدق المودة ! »

قال : « فلنبدأ بالغاء معاشك »

فقالت : « ولنحسب معه الغاء معاش دى ليك ، فتكون جملة الخسارة ستين ألف فرنك فى السنة . أهذا ما تعنيه ؟ »

قال : « نعم ، ويهمنى أن أعرف ما تكسبينه فى مقابل ذلك ؟ »

فقالت : « نصف مليون فرنك آخذها من الملكة ! »

قال : « لكنك قد لا تأخذينها منها ! »

فقالت : « انى أعرف الوسيلة لحصولى على هذا المبلغ ! »

فازداد أراميس اصغاء وقد أحس أنه بدأ يكسب فى هذا الحوار بمقدار ما تخسر محدثته ، ثم قال لها :

— لنفرض أنك ستحصلين على هذا المبلغ ، لكنك ستخسرين ضعفه لانك سيكون لك معاش قدره مائة ألف فرنك بدلا من ستين ألفا ، لمدة عشر سنوات !

فقالت : « ان النقص فى دخلى لن يدوم أكثر من الفترة الباقية للمسيو فوكيه فى منصبه ، وأنا أقدرها بشهرين اثنين لا أكثر ، وأرجو أن تعجبك هذه الصراحة ! »

فقال أراميس : « شكرا لك يا دوقة . ولكنك تخطئين اذ تحسبين أن جماعة الجزويت تدفع معاشك بعد فضيحة المسيو فوكيه »

فقالت : « أنا أعرف كيف أجعلها تصرف لى معاشى ، كما أعرف كيف أجعل الملكة تعطينى ما أريده ! »

فارتسمت على شفتيه ابتسامة حجبها الظلام وقال : « فى هذه الحالة لا مناص لنا من أن نسلم لك ، ولكن ألا يمكن أن تكونى أكثر رحمة ؟ »

ولم تلحظ الدوقة ما فى هذا القول من سخرية ، وقالت له :

ـ عجبا !٠ كيف تستكثر مثل هذا المبلغ الزهيد الذى لا يزيد على نصف مليون فرنك ، على حين أن الأمر يتعلق بوقايتك !٠٠ أعنى وقاية صديقك أو حاميك ، من العواقب الوخيمة التى تنجم عن حرب حزبية ؟!

فقال فى هدوء : « لنفرض أن ذلك المبلغ صرف لك،ألا ترين أن المسيو دى ليك فى هذه الحالة سيطالب بنصيبه أيضا ، أى بنصف مليون آخر ؟٠كما أن أولادك وغيرهم ممن يلوذون بك سيطالبون بأنصبتهم ولا شك من جديد٠ فى حين أن تلك الخطابات التى وقع عليها مازارين مهما يكن ما تشتمل عليه لا تساوى ثلاثة ملايين أو أربعة ملايين من الفرنكات !٠ هل نسيت جواهر ملكة فرنسا ؟ لا شك فى أنها كانت أكبر قيمة منهذه الخطابات ، ومع ذلك لم تكلف استعادتها ربع المبلغ الذى تطلبينه لنفسك ! »

فقالت الدوقة : « قد يكون هذا صحيحا ، ولكن للتاجر أن يقدر بضاعته وفق ما يراه وللمشترى أن يدفع أو يرفض الشراء ! »

فقال : « على رسلك يا سيدتى الدوقة٠أتريدين أن تعلمى لماذا لا أشترى تلك الخطابات ؟ اننى لا أشتريها لأنها خطابات زائفة ! »

فضحكت الدوقة وقالت ساخرة : « هذه سخافة ولا شك !٠ وعجيب منك أن تصدقها ! »

فقال : « الواقع أننى لا أشك فى أنها زائفة ، وأنت تذكرين أنك بعد أن اختلفت مع الملكة بمسعى المسيو مازارين قد مكثت على علاقة وثيقة به٠ وفى ذلك ما يجعلك فى موقف الجاسوسة ، وصدقينى ٠٠ لست أحب أن أطلق عليك هذا الوصف ! »

فقالت ساخرة : « بل اطلق على من الاوصاف كل ما تريد ! »

فقال : « ليس هناك ما يدعو الى هذا ٠ على أنك على الأقل توافقيننى على أن لطفك معه بعد ذلك ليس فوق مستوى الشبهات ! »

قالت : «ربما يكون هذا صحيحا ، ولكن الأصح منه ما تحويه الخطابات»

ورأت مدام دى شيفريز أنها قالت ما فيه الكفاية،فنهضت ومشت خطوات صوب الباب ، غير أن أراميس الداهية سرعان ما أعد مفاجأة للانتقام منها، فدق جرسا هناك واذا بالشموع توقد فورا فى الغرفة المجاورة واذا بالاضواء تنعكس على وجهها النحيل وخديها الذابلين ، وعينيها المغمضتين ، وأسنانها المسودة ٠ وهى واقفة بجانب المرآة الكبيرة ، فوقف يتأملها مرفوع الرأس، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة ، كشفت عن أسنانه اللامعة٠وأدركت العجوز خدعته التى كشفت عما جاهدت لاخفائه من قبح منظرها ، فسارعت فى الخروج ، متحاملة على ساقيها المرتعشتين ، بينما انحنى لها هو فى رشاقة الفارس الذى كانه ، ثم قفز عبر الغرفة ليقودها الى الباب

صفقة سياسية

قصدت الدوقة الرفيعة المنبت مدام دى شيفريز ، بعد مغادرتها الدار بميدان (بودوايه) الى الفندق الذى تنزل به ، وكانت تخشى أن يكون هناك من يتبعها ، فماكادت تصل الى باب الفندق وتستوثق من أن أحدا لم يسر فى أثرها حتى خرجت من باب الحديقة الذى يوصل الى شارع آخر ، وتوجهت بسرعة الى شارع (كروا ديه بيتى شان) حيث يقيم المسيو كولبير وكيل وزارة المالية

وكان الليل قد أرخى سدوله ، والظلمة حالكة ، وقد شمل باريس السكون ، باسطا رداءه على تلك الدوقة وهى تحمل دسيستها السياسية ، وكانت قد ألفت الدسائس السياسية والمؤامرات التى تحاك فى الظلام ، وعرفت أن أى وزير لا يمكن أن يرفض لقاء شابة حسناء فى بيته ، ولا امرأة عجوز كثيرة التجارب !

واستقبلها أحد الخدم فى دار المسيو كولبير ولم يستطع اخفاء دهشته من زيارة امرأة فى مثل سنها لسيده فى مثل تلك الساعة ، وكتبت هى اسمها على رقعة من الورق ناولته اياها ليوصلها الى سيده فى غرفة مكتبه، وقد فوجىء هذا اذ قرأ اسم الزائرة وأمر الخادم بادخالها توا !٠

ووقفت الدوقة هنيهة بالباب تتفرس فى وجه كولبير مليا لتدرس شخصيته قبل أن تحدثه ، ورأت أن له رأسا كبيرا مستديرا ، وحاجبين عريضين ، وملامح عاطلة من الجمال ، وقد وضع على رأسه قلنسوة كالتى يرتديها القساوسة ٠ ولم تر فى هيئته لاول وهلة أية دلالة على حب الانتقام أو الطموح ٠ غير أنها قالت لنفسها وهى تتأمل عينيه الصغيرتين النفاذتين ، والغضون البادية على جبينه ، وانطباق شفتيه : « انه الرجل الذى أحتاج اليه ! »

واستقبلها هو مرحبا فى أدب متكلف ، وما لبث أن سألها بعد أن قدم لها مقعدا كبيرا ، فقال فى صوت حاول جاهدا أن يضفى عليه الهدوء :

ـ أية مسألة يا سيدتى أتاحت لى شرف زيارتك الليلة ؟

فأجابت الدوقة قائلة على الفور :

ـ انهما مسألتان ، أو مسألة واحدة ذات شطرين هما : حاجتى اليك أيها السيد ، وحاجتك الى فى الوقت ذاته !

فتكلف الابتسام وقال : « أما الشطر الاول فيسرنى أن أضع نفسى فى

خدمة سيدتي الدوقة لعلي أستطيع القيام به . وأما الشطر الثاني ... »

فقطعت الدوقة عبارته قائلة : « مسيو كولبير .. انك وكيل المالية ، وانه ليسرك طبعا أن تكون وزيرها ! »

ففتح الرجل فمه ورفع حاجبيه دهشة ثم غمغم قائلا : « سيدتي ! » . بينما واصلت هي كلامها فقالت :

ـ فيم الدهشة ؟. ولم الانكار ؟.. ان هذا يطيل حديثنا بلا موجب ، وهو بعد عبث لا فائدة منه !

فعاد الى ابتسامته المتكلفة وقال : « سيدتي .. اني ليسعدني حقا أن أستمع لسيدة عظيمة لها مثل مركزك ولقبك ، ولكن هذا لا يمنعني من الاعتراف بأني ما فكرت يوما في انتزاع وظيفة رئيسي منه ! »

فقالت : « لم أقل أنك تنتزع وظيفته ، ولم أفكر في ذلك قط . وأحسب أن كلمة (تحل محله) تؤدي المعنى المراد . وعلى هذا فاني أفرض أنك يسرك أن تحل محل المسيو فوكيه وزير المالية ! »

فقال : « ان ثروة المسيو فوكيه يا سيدتي تمكنه من أن يحبط كل محاولة من هذا القبيل . ان وزير المالية في هذا العصر يشبه الى حد كبير تمثال رودس الضخم الذي تسير السفن تحته دون أن تقلبه ! »

قالت : « نعم هذا صحيح ، ولكني أذكر أن المسيو كونراد عضو الاكاديمية قال يوما : (ان تمثال رودس الضخم هذا سقط من مكانه الشاهق ولم يكن الذي أسقطه سوى تاجر لا أكثر !.وقد حمل أربعمائة جمل بأنقاضه !).. تصور يا مسيو كولبير .. لقد فعل هذا تاجر بسيط هو أقل من وكيل وزارة المالية على كل حال ! »

فسكت كولبير قليلا ثم قال : « لكني أؤكد لك يا سيدتي أني لا أريد أن أسقط المسيو فوكيه ! »

فقالت : « حسنا يا مسيو كولبير : ما دمت تصر على أن تبدى لي كل هذه الحساسية ، وكأنك تجهل أني مدام دي شيفريز ،وأني قد تقدمت بي السن الى حد ما ، أي أنك بعبارة أخرى تحدث امرأة كانت لها علائق سياسية بالكاردينال دي ريشيليو ، وليس أمامها وقت تضيعه .. أقول : ما دمت تأبى الا أن تكون هكذا كما أنت فخير لي أن أذهب ، وسأجد أناسا آخرين أوسع أفقا ، وأشد رغبة في تكوين مستقبلهم ! »

فقال متلعثما : « كيف ذلك يا سيدتي ؟ »

قالت : « انك تعطيني فكرة سيئة عن مفاوضي العصر الحاضر . وأؤكد لك أن المسيو (سانك مارس) الذي كان وكيلا للمالية في الجيل الماضي ، أيام شبابي ، ما كان ليبدي مثل هذا التردد ، لو أنه سمع عن الكاردينال ريشيليو مثل ما قلته لك الآن عن المسيو فوكيه ، وهذا برغم أن المسيو (سانك مارس) لم يكن خارق الذكاء ! »

فازداد تلعثم المسيو كولبير وقال للدوقة : « أرجو يا سيدتي أن تظهري شيئا من التسامح ! »

فقالت : « حسنا !.. أتوافق على أن تحل محل المسيو فوكيه ؟ »

قال : « أوافق ولكن في حالة واحدة .. اذا فصل الملك المسيو فوكيه من منصبه ! »

فابتسمت الدوقة العجوز وقالت : « هذا شرط لا حاجة اليه . فمن الواضح انك اذا كنت لم تنجح في ابعاد المسيو فوكيه عن منصبه فذلك لانه أمر فوق طاقتك . وأنا لست بلهاء الى حد أن آتي اليك الليلة وأخاطبك في مثل هذا الشأن دون أن أعد للأمر عدته ، وتكون في يدي كل الادوات التي يحتاج اليها تنفيذه ! »

فقال كولبير بعد فترة صمت قصيرة :

ـ آسف يا سيدتي لاضطراري مع ذلك الى الاصرار على وجهة نظري !. على أني أرى واجبا علي أن أنبئك بأن المسيو فوكيه خلال السنوات الست الاخيرة قامت ضده أكثر من تهمة ، ولكنها لم تستطع أن تهزه أو تؤثر فيه!

فحدجته الدوقة بنظرة فاحصة ، ثم قالت في لهجة ملؤها الثقة والاعتداد بالنفس :

ـ لكل شيء أوان يا مسيو كولبير !. ان أصحاب تلك الاتهامات لم تكن بينهم واحدة تسمى مدام دي شيفريز ، ولم تكن بأيديهم أدلة قاطعة تعادل كتبا ستة تؤيد التهمة موقعا عليها من المسيو دي مازارين !

فتمتم كولبير : « تؤيد التهمة ؟!.. أية تهمة يا سيدتي ؟ »

فقالت في هدوء : « نعم ، التهمة بل الجريمة التي ارتكبها المسيو فوكيه اذا شئت ! »

فازدادت دهشته وأخذ يردد : « جريمة ارتكبها المسيو فوكيه ؟! »

وواصلت الدوقة كلامها فقالت : « أجل !. لا أقل من ذلك . ومن عجب يا مسيو كولبير أن ملامح وجهك التي كانت جامدة منذ هنيهة قد بدت الآن على عكس ذلك ، وهي تنبيء بوضوح عن شدة اهتمامك بالموضوع،موضوع الجريمة التي اقترفها المسيو فوكيه . ويسرني أن الأمر على كل حال أثار في نفسك الاهتمام ! »

فقال : « أليس طبيعيا أن أهتم لذلك يا سيدتي ؟.ان هذه الكلمة الواحدة (كلمة جريمة) تدل على شيء كثير خطير ! »

فقالت : « نعم ، انها كلمة تتضمن منصب وزير المالية لك ، وأمرا بالنفي من البلاد أو النزول بسجن الباستيل للمسيو فوكيه ! »

فسكت قليلا ثم قال : « عفوا يا سيدتي الدوقة ، ان نفي المسيو فوكيه يكاد يكون من المحال . أما أن يسجن أو يوصم بالعار فهذا شيء كبير... »

فقطعت كلامه قائلة : « اني أعني ما أقوله تماما !. ولئن كنت الآن

لا أقيم دائما بباريس ، فما زلت على بينة من كل ما يدورَ فيها • وانى لعلى يقين من أن الملك لا يميل الى المسيو فوكيه ، وأنه لن يتوانى عن التضحية به متى لاحت له الفرصة لذلك ! »

فغمغم المسيو كولبير قائلا : « انها فرصة طيبة على كل حال ! »

فقالت الدوقة : «بل هى فرصة طيبة جدا •• تساوى نصف مليون فرنك على الأقل ! »

فسألها كولبير : « من أى وجه ؟ »

فأجابت بقولها : « أعنى يا سيدى أنى اذ أمسك بيدى هـذه الفرصة ، لن أدعها تنقل الى يدك الا فى مقابل نصف مليون فرنك ! »

فقال : « انى أفهم ما تقولين تماما يا سيدتى • ولكن ما دمت قد حددت ثمنا •• ألا يحق لمن سيدفعه أن يرى السلع التى يبتاعها ؟ »

فقالت : « انها شىء تافه • وليست سوى ستة خطابات من المسيو مازارين كما أسلفت القول • على أنها لا تعد فادحـة الثمن ما دامت تثبت قطعا أن المسيو فوكيه اختلس مبالغ طائلة من خـزانة الدولة وأنفقها فى مآربه الخاصة ! »

فلمعت عينا كولبير بسرور ظاهر وقال :

ـ أهى تثبت ذلك بصفة قاطعة حقا ؟

فقالت « أجل بالتأكيد ! • هل تحب أن تقرأ تلك الخطابات ؟ »

فأجاب : « أحب ذلك من كل قلبى ! •• انها صـور من تلك الخطابات طبعا •• أليس كذلك ؟ »

فأومأت برأسها موافقة ، ثم مدت يدها النحيلة الى صدرها وأخـرجت رزمة صغيرة من الورق قدمتها له قائلة :

ـ هيا •• اقرأ يا مسيو كولبير

فتناول رزمة الورق من يدها فى شغف ظاهر ، ثم فضها وأخـذ يقرأ ما فيها باهتمام شديد ، فلما انتهى من ذلك نظر الى الورقة وعيناه تلتمعان سرورا ، وقال : « هذا بديع ! •• بديع جدا يا سيدتى ! »

فقالت وهى تبتسم : « الأمر واضح الى أقصى حد ، أليس كذلك ؟ »

فقال : « أجل يا سيدتى •• أجل ! • ان المسـيو مازارين قد سلم الى المسيو فوكيه مالا •• ولابد أن هذا احتفظ بذلك المال لنفسه • ولكن أى مال هذا ؟ •• ان الخطابات الستة لم يرد فيها ما يوضح هذا الأمر »

فقالت الدوقة بهدوء : « صـدقت ! • ولك الحق فى أن تسأل : أى مال هذا ؟ •• ومتى وصلنا الى اتفاق فسأريك خطـابا سابعا يزودك بتفصيل المسألة كلها من أولها الى آخرها ! »

ففكر كولبير هنيهة ثم قال :

ـ وأين أصول هذه الخطابات

ـ هذا سؤال لا فائدة منه ، وما أشبهه بأن أسأل المسيو كولبير مثلا : هل أكياس النقود التى سيدفعها ثمنا لهذه الخطابات مملوءة أم فارغة ؟! »

ـ حسنا يا سيدتى

ـ اذن فقد اتفقنا ؟

ـ كلا ! • هناك شىء لم يعره أحد منا أقل التفات • ان المسيو فوكيـه لا يمكن أن تتم فضيحته الا بدعوى قضائية يصدر الحكم فيها بادانته !

ـ حسنا ! •• فلترفع هذه الدعوى اذن

ـ لا يمكن اتخاذ الطرق القانونية ضده يا سيدتى • فهو النائب العـام للبرلمان • ولا شك فى أن جميع الدوائر والمصالح الحكومية فى فرنسـا ، ومن بينها ادارة الجيش وادارة القضاء نفسه متصلة كلها اتصالا وثيقا بروح الزمالة • وفى هذه الحالة يا سيدتى لن يسمح البرلمان بأن يقف رئيسـه أمام محكمة علنية • حتى لو قدم الى المحاكمة بأمر ملكى فلن يحكم عليه !

فقالت الدوقة فى هدوء : « لا أدرى ما شأنى أنا بكل هذا ؟ »

فقال كولبير : « أعرف ذلك يا سيدتى ، ولكننى أنا لى شأن به ! • وهـذا ما يقلل من قيمة الدليل الذى أطلعتنى عليه • فالواقع أن أى دليـل على جريمة لا يكون ذا قيمة اذا لم يكن هناك مجال لمحاكمة مقترفها ! »

فقالت الدوقة متململة : « ان المسيو فوكيه سـيفقد منصبه ولا شك نتيجة لاتجاه الشبهات اليه • أليس هذا كافيا ؟ »

فسكت كولبير قليلا ، وبدت فى وجهه دلائل البغض وحب الانتقام ثم قال : « أهذا كل ما فى الأمر ؟ »

فقالت : « عفوا يا مسيو كولبير، لم أكن أدرى انك شديد التأثر هكذا ! • حسنا ! • فى هـذه الحالة ما دمت تريد أكثر مما عندى فلا متسع لبحث المسألة معك ! »

فقال : « بل نواصل البحث يا سيدتى ! • ولكن ما دامت قيمة بضاعتك قد نقصت ، فيجب أن ينقص ثمنها ! »

فقالت وهى تمعن النظر فى وجهه : « انك تساومنى ؟! »

فابتسم وقال : « ان كل انسان يريد التعامل لابد له من أن يساوم ! »

فسألته متبرمة : « كم من المال تدفع ثمنالتلك الخطابات ؟ »

فقال بعد تفكير قليل : « مائتى ألف فرنك ! »

فضحكت الدوقة ساخرة •• ثم قالت له : « ألا تدفع أربعمائة ألف فرنك؟ بل ثلاثمائة ألف • ما رأيك ؟ »

فبدا عليه التردد ، ولم يجد ما يقوله ، وواصلت هى كلامها فقالت :

ـ ثلاثمائة ألف لا أقل !٠ فاما أن تقبل واما أن ترفض !٠٠ ثم ان هذا كل ما في الأمر !

ـ وماذا لديك أيضا ؟

ـ ان المال ليس كل ما أريده منك ٠ فهنـــاك خدمة أريد أن تؤديها لى أيضا !٠٠ انك تعلم أني كنت مقربة من الملـكة الوالدة ، وأنا الآن أود لو أقابلها وأحدثها !

فبقى ينظر اليها ســـاكتا ، ثم غمغم يقول : « الملكة ؟٠ تقابلين الملكة الوالدة ؟ »

فقالت له : « أجل يا مسيو كولبير ، أريد أن أقابل الملكة ٠٠ انها لم تعد صديقتي منذ فترة طويلة ، ولكنها ستعود الى صداقتي اذا أعطيت فرصـة لمقابلتها ومحادثتها ! »

فقال كولبير : « لكن جلالتها لا تقابل أحدا الآن ٠ انها تعاني من مرضها آلاما شديدة ، ونوبات الألم تعتريها الآن في فترات متقاربة ! »

فقالت الدوقة : « هذا نفسه ما يدعوني الى طلب مقابلتهـا ٠ ان مرضها العضال الذي حار أطباؤها في علاجه ، كثير الانتشار في اقليم الفلاندر ، ولاسيما بين النســـاء ٠ وكثيرات منهن اســتطعن التخلص من آلامه وتم شفاؤهن ! »

فسألها كولبير متعجبا : « أتعنين السرطان ؟٠ انه مرض خطير لا يوجـد ما يشفي منه حتى الآن ! »

فقالت : « لا تظن ذلك يا مسيو كولبير ، ان فلاح الفلاندر رجل فطري ، وزوجته تعمـــل وتكد في المنزل والحقل وما بينهما ، وانها لتشقى بذلك أكثر مما يشقى البغل أو الحمار ، ثم هي الى ذلك قليلة العنـــاية بنفسها ، ولهذا تصيبها الامراض المختلفة ٠ وكثيرا ما يأبى زوجها أن يكتفي بتركها تشقى هكذا بينما هو يدخن غليونه ، فيضربها ضربا مبرحا يترك في جسمها رضوضا قد تسبب اصابتها بالسرطان ، فاذا اشـــتد بها الألم التمست الشفاء عند الراهبات في (بروجز) وهن خير طبيبات لكل نوع من المرض ، وعندهن سوائل مفيدة لمختلف الاوجاع ، وتكفي قارورة منها ومعها شمعة يعطينها للمريضة لكي تشفى من ذلك المرض الوبيل ٠ وسأذهب الى الملكة ببعض ذلك الماء ، وســتشفى جلالتها وتوقد من الشموع ما تراه ملائما ٠ وها أنت ذا ترى يا مسيو كولبير أنك اذا حلت دون مقابلتي للملـكة كنت بمثابة قاتلها ! »

وكان يصغي الى حديثها بكل جوارحه ، فلما انتهت منه قال لها : « الحق يا سيدتي الدوقة أنك ذات مقدرة بالغة ٠ على أني أعتقد أن هـــذا العطف المحمود من جانبك على الملكة يخفي وراءه صـــالحا شخصيا ولو ضئيلا !٠٠ أليس كذلك ؟ »

فقالت الدوقة : « أنا لم أحاول اخفاءه عليك يا مسيو كولبير ٠ وهـــذا الصالح الشخصي ليس ضئيلا كما تقول ، بل هو في الواقع صـــالح كبير جدا ٠ والآن ما رأيك ؟٠٠ انك اذا مكنتني من لقاء الملكة على انفراد فسأقنع بالثلاثمائة ألف فرنك التي طلبتها ٠ والا فاني أحتفظ لنفسي بالخطـابات الستة ـ اللهم الا اذا أعطيتني في هذه الحالة خمسمائة ألف فرنك ! »

وتحركت الدوقة في مقعدها كأنما تهم بالنهوض والانصراف ، فاشتدت حيرة المسيو كولبير ، ورأى ألا فائدة من مواصلة المســاومة ، برغم فداحة الثمن الذي تطلبه ٠ وما لبث قليلا حتى قال لها :

ـ سيسرني يا سيدتي أن أدفع لك الثلاثمائة ألف فرنك ، ولكن كيف أحصل على الخطابات الأصلية ؟

فقالت : « تحصل عليها بأبسط طريقة يا عزيزي المسيو كولبير ٠ من الذي تثق به في أداء هذه المهمة ؟ »

فضحك كولبير حتى بدت نواجذه وقال : « لا أثق بأحد ! »

فقالت وهي تشاركه الضحك : «يمكنك على الأقل أن تستثني نفسك!٠ أعني أن تكلف نفسك الذهاب معي الى المكان الذي توجـــد به الخطـابات فتتسلمها وتستوثق منها ! »

فأومأ برأسه موافقا وقال : « صـــدقت يا سيدتي الدوقة » ٠ فقالت : « لا تنس الثلاثمائة ألف فرنك ، فأنا أيضا لا أثق بأحد ! »

فصعد الدم الى وجهه حتى بلغ أطراف أذنيه ، فهو ككل الرجال البارزين المشتغلين بالارقام لا يرضى أن يتطرق الشك الى نزاهته ٠ ثم قال لها :

ـ سآخذ معي اذنين بالمبلغ على خزانتي ٠ أيرضيك هذا ؟

فقالت : « بودي لو كان الاذنان بمليونين أو أكثر من الفرنكات ٠ واذن كنت أريك طرقا عدة تؤدي كلها الى غايات لا تصل اليها الا في الاحلام ! »

وهنا نظر في ساعته ، ثم قال لها : « أتسمحين لي أن أطلب عربتي ؟ »

فقالت : « ان عربتي تنتظر بالباب ! »

فسعل كولبير بشكل يدل على التردد ٠ وخطر بباله في هذه اللحظة أن ما عرضته الدوقة عليه انما هو شرك نصب لايقاعه فيه ، وربما يكون هناك من ينتظرهما لدى الباب ، أو تكون هي قد اتفقت مع المسيو فوكيه من قبل على بيع تلك الخطابات اليه !

ولما بان عليـه التردد نظرت اليـــه الدوقة وقالت له : « أتؤثر ركوب عربتك ؟ » ٠ فقال على الفور : « أعترف بذلك ! »

فابتسمت وقالت : « لعلك تحسب أني ربما أقودك الى شرك ؟ »

فاحمر وجهه مرة أخرى وقال : « يا سيدتي الدوقة ٠٠ انك تبدين جرأة نادرة وقلة مبالاة ٠ ولكني رجل له سمت الجد والصراحة ، فأية لعبة تلعب على قد تسيء الى سمعتي ! »

فقالت : « الحقيقة أنك خائف ! .. ولكن لا بأس .. هيا اركب عربتك وخذ معك من الخدم أى عدد تشـاء ، ولكن اصـغ الى ما سأقوله لك : ان ما ندبره فيما بيننا لا يعلمه سوانا ، واذا علم به أى شـخص ثالث فكأن العالم كله قد علمه . وأنا لا أبالى كما وصفتني ، وستتبع عربتى عربتك ، وحسبى أن أركب عربتك عند ذهابى الى الملكة ! »

فغمغم يقول : « الملكة ؟ » . فقالت :

ــ أنسيت هكذا بسرعة ؟. كيف يفوتك أهم بند من بنود اتفاقنا ؟

وهنا التفت اليها قائلا : « لقد فكرت يا سيدتى ولن أصحبك ! »

فسألته : « ولم لا ؟ » . فقال : « لأن لى بك كل الثقة ! »

فقالت : « شكرا لك . ولكن بشرط أن أحصل على المبلغ الآن ! »

فقال : « ها هو ذا يا سيدتى ! »

وكتب بضعة أسطر على رقعة من الورق وسلمها الى الدوقة

فتناولت الورقة وقالت : « ان مسلكك راق وسأكافئك عليه ! »

وضحكت ضحكة مخيفة .. ثم فتحت صدر ثوبها وأخرجت من طيـاته رزمة صغيرة من الورق ومدت يدها بها اليه وقالت وهى لا تزال تضحك :

ــ هاك الخطابات الأصلية يا مسـيو كولبير . انها الآن ملكك . وان مستقبلك الآن مكفول . هيا الآن اصحبنى الى الملكة !

فبهت مرة أخرى وقال : « الآن ؟. انك اذا تعرضت مرة ثانية لغضب جلالتها وعرف فى البلاط أنى كنت الواسطة فى دخولك القصر ، فان الملكة لن تسامحنى ما عاشت . كلا !. بل يوجد فى القصر بعض أناس مخلصين لى وهم سيتولون أمر استقبال الملكة اياك ، دون أن يذكر اسمى »

فقالت : « كما تشاء ، ما دمت سأتمكن من دخول القصر ! »

قال : « ستدخلين القصر فى زى راهبة من راهبات مدينة بروجز »

قالت : « معذرة ولكنى لا أحب أن أتعرض لرفض المقابلة »

ــ هذا أيضا شأنك أنت يا سيدتى . سأصدر تعليماتى الى رئيس خدم الأمين المختص بخدمة صاحبة الجلالة ، كى يسمح بدخول راهبة ، تحمل الى جلالتها دواء يشفى آلامها . خذى هذا الخطاب واعملى على أن تحصلى على الدواء وعلى كل المعلومات اللازمة . انى أعترف بمعرفتى لراهبة ، ولكنى أنكر انى أعرف أى شىء عن مدام شيفريز !

منصب للبيع

سلم كولبير الخطاب الى الدوقة ، ثم سارع الى ازاحة الكرسى الذى كانت واقفة وراءه من طريقها الى الباب ، فحيته بايماءة خفيفة براسها وغادرت الغرفة حيث أوصلها خادمه الى عربتها المنتظرة بالباب الخارجى فاستقلتها وانصرفت

وكان كولبير قد عرف خط مازارين منذ تبينه فى الخطابات ، فما كادت الدوقة تنصرف حتى دق الجرس لسكرتيره ، فلما جاء هذا مسرعا أمره أن يدعو اليه المسيو فانيل المستشار بالبرلمان ، فقال السكرتير :

ــ ان المسيو فانيل جاء منذ هنيهة ليقدم كعادته لسيدى الوكيل بيانا بما دار خلال اليوم بالبرلمان

واقترب كولبير من أحد المصابيح وقرأ مرة اخرى خطابات الكردينال المتوفى ، وابتسم ابتسامة الرضا اذ ادرك قيمة الأوراق التى تسلمهـا من مدام دى شيفريز ، ثم اسند راسه الى يديه واستغرق فى تفكير عميق ، وفى أثناء ذلك دخل الغرفة رجل طويل القامة ضخم الجسم يدل وجهه النحيل ونظرته الثابتة وأنفه الأقنى ، على ثقة بالنفس مع التواضع . وكان يتابط رزمة ضخمة من الورق فوضعها برفق على المنضـدة التى استند اليها كولبير . وقال له هذا وقد تنبه لدخوله وقطع تفكيره :

ــ عم مساء يا مسيو فانيل

فحنى الرجل راسه وقال : « عم مساء يا صاحب المعالى ! »

وخفق قلب كولبير اذ سمع هذا اللقب وقال للمستشار : « لماذا تلقبنى بصاحب المعالى ، ليس هناك ما يدعو الى ذلك ! »

فقال فانيل : « ان هذا من حقك يا سيدى فانت وزير وهذا اللقب حق للوزراء ! »

فزم كولبير شفتيه ثم قال : « لم يحن الوقت لذلك بعد يا مسيو فانيل ، وما أنا الآن الا (مسيو) فقط ! »

فسارع المستشار الى الرد قائلا : « لا يا سيدى !.. انك وزير فى الواقع ، وعلى هذا يجب ان تدعى صاحب المعالى . واذا كنت تكره أن افعل ذلك علنا فاسمح لى بأن أناديك بهذا اللقب فيما بيننا »

فرفع كولبير راسه ونظر اليه مليا كانما يريد أن يستشف مدى اخلاصه ، ثم قال له كولبير فجأة :

— فانيل .. انك ذو جلد على العمل كما اعلم فهل تستطيع ان تعمل اثنتى عشرة ساعة فى اليوم ؟

فقال : « الواقع اننى اعمل خمس عشرة ساعة كل يوم ! »

— هذا مستحيل . ان عمل المستشار فى البرلمان لا يحتاج الى اكثر من ثلاث ساعات

— انى أعد بعض بيانات لصديق لى فى قسم الحسابات ، ولما كنت مع هذا أجد فراغا من الوقت فانى أدرس اللغة العبرية !

— ان لك سمعة عالية فى البرلمان يا فانيل

— شكرا لله على ذلك يا صاحب المعالى

— يجب الا يصيبك الصدأ ببقائك فى منصب المستشار

— وماذا ينبغى لى أن افعل لأحول دون ذلك ؟

— اشتر لنفسك منصبا رفيعا . ان المطامع الصغيرة الحقيرة يصعب ارضاؤها

— الواقع أن ملء اكياس النقود الصغيرة اصعب من ملء الأكياس الكبيرة

ثم قال له كولبير : « أى منصب ترنو اليه ؟ »

— لست ارنو الى اى منصب !

— هناك منصب معين ، ولكن لا بد ان يكون الانسان ملكا تقريبا حتى يستطيع أن يشتريه ، بل أحسب الملك نفسه لا يرغب فى شراء منصب النائب العام !

وهنا نظر فانيل الى كولبير نظرة غبية ، فلم يدر كولبير افهم فانيل قصده أم لم يفهم . ثم قال له فانيل :

— لماذا تحدثنى يا صاحب المعالى عن منصب النائب العام للبرلمان ؟. انى لا أعرف منصبا من هذا القبيل الا ذلك الذى يحتله المسيو فوكيه الآن

— نعم ، هذا صحيح يا عزيزى المستشار

— عفوا يا صاحب المعالى ، ولكن قبل أن يشترى هذا المنصب يجب اولا أن يكون معروضا للبيع !

— أعتقد يا مسيو فانيل أن هذا المنصب سيعرض للبيع !

— للبيع ؟!. ماذا ؟. منصب المسيو فوكيه النائب العام للبرلمان ؟!

فسأله كولبير بجد : « أخائف انت من هذا المنصب ؟ »

— خائف ؟! كلا ، ولكن .. هل من المعقول أن مستشارا بالبرلمان لا يتمنى أن يصبح النائب العام !

— حسنا يا مسيو فانيل ، ما زلت اقول لك أن هذا المنصب سيكون للبيع عما قريب

— انى اقول يا صاحب المعالى أن هذا محال ، فان الانسان لا يرمى الدرع التى يذود بها عن شرفه ومستقبله وعن حياته نفسها

— من الناس من يبلغ بهم الحمق ان يظنوا انفسهم بمنجاة من كل اذى !

— اجل يا صاحب المعالى ، ولكن هؤلاء الناس لا يركبهم الشطط لصالح رجل مثلى

— ولم لا ؟

— لسبب واحد بسيط وهو الفقر !

— صحيح أن منصب المسيو فوكيه قد يكلف مبلغا طائلا من المال . ماذا تدفع فى مقابله يا مسيو فانيل !

— ثلاثمائة الف فرنك أو اربعمائة الف

— وقيمة المنصب ؟

— مليون ونصف على اقل تقدير . انى اعرف اناسا عرضوا مليونا وسبعمائة الف فرنك دون ان يستطيعوا اغراء المسيو فوكيه بالبيع . واذا فرضنا أن المسيو فوكيه يريد بيع منصبه — وهو ما لا أعتقده برغم ما سمعته ..

— اسمعت شيئا عن ذلك ؟. ممن سمعته ؟

— من المسيو دى جورفيل ، والمسيو بليسون وآخرين !

— حسنا !. اذا كان المسيو فوكيه يريد البيع حقا ...

— لا يمكننى بعد ان اشترى المنصب لأن المسيو فوكيه سيطلب الدفع نقدا ، وليس لأحد مليون ونصف من الفرنكات لكى يقدمها فورا

فقطع كولبير كلامه باشارة متعالية ، اذ كان قد بدأ يفكر . ولما رأى فانيل اهتمام سيده ومواصلته الكلام فى الموضوع ، مكث ينتظر الحل دون أن يتعجله . ثم قال له كولبير :

— اوضح لى المزايا التى لصاحب هذا المنصب

— له حق اتهام اى مواطن فرنسى لا يكون اميرا من الأسرة المالكة ، والحق فى ابطال الاجراءات القانونية التى تتخذ ضد أى فرنسى غير الملك والأمراء . ان النائب العام هو يد الملك اليمنى فى معاقبة المذنب ، وهو الأداة التى يمكنه بها ان يتفادى تطبيق العدالة . ومن ثم فان المسيو فوكيه يمكنه أن يقف أمام الملك . ان النائب العام يمكن أن يصبح اداة جد نافعة او ذات خطر بالغ !

فقال له كولبير فجأة : « اسمع يا فانيل : اتحب أن تصبح نائبا عاما ؟ »

— لقد بينت لك انه يعوزنى نحو مليون ومائة الف فرنك لكى اكمل المبلغ اللازم لشراء هذا المنصب

— اقترض هذا المبلغ من أصدقائك ، انك رجل شريف نزيه !

— اوه يا صاحب المعالى !. وددت لو ظن الناس كما تظن

ـ احسبك كذلك وفى هذا الكفاية . واذا اقتضى الأمر ضامنا لك فى ذلك المبلغ فأنا على استعداد لذلك

ـ لا تنس يا صاحب المعالى المثل الذى يقول : « من كان مسئولا عن آخر فلا بد أن يدفع ثمن هذه المسئولية »

ونهض فانيل وهو فى عجب مما عرض عليه فجأة على غير انتظار ، ثم قال لكولبير :

ـ لعلك لا تسخر منى يا صاحب المعالى

ـ انتظر : لقد قلت لى أن المسيو دى جورفيل خاطبك فى شأن منصب المسيو فوكيه !

ـ أجل . وكذلك فعل بليسون

ـ أكان كلاهما فى ذلك رسميا أم من تلقاء نفسيهما ؟

ـ لقد قالا : « أن رجال البرلمان قد أوتوا من الكبرياء مثل ما اوتوا من الثروة . وينبغى لهم أن يجمعوا فيما بينهم مليونين أو ثلاثة ملايين ليقدموها للمسيو فوكيه حاميهم وكوكبهم المنير ! »

ـ وبماذا اجبت أنت ؟

ـ قلت : انى مستعد لأن اقدم عشرة آلاف فرنك اذا اقتضى الأمر ذلك

فقال له كولبير مدفوعا بعامل البغض لفوكيه :

ـ أنت اذن تحب المسيو فوكيه ؟

فقال فانيل : « كلا ! ولكن المسيو فوكيه رئيسنا . وهو مدين وفى طريقه الى الافلاس والخراب . وينبغى لنا أن نحفظ شرف الهيئة التى نحن اعضاؤها ويهمنا . . . »

فقطع كولبير كلامه وقال : « نعم ، وهذا يوضح لنا أن المسيو فوكيه سيبقى فى أمان وسلام ما دام يشغل منصبه الحالى فى البرلمان ! »

ثم عاد المسيو فانيل فقال : « ذكر لى المسيو دى جورفيل أن تقديمنا أية اعانة مالية للمسيو فوكيه قد يسىء الى كرامته ولا شك أنه سيرفضه . ولذا ينبغى لرجال البرلمان أن يكتتبوا فيما بينهم ليشتروا منصب النائب العام ، وفى هذه الحالة يتم كل شىء على ما يرام ، فنحفظ شرف هيئتنا ونحفظ على المسيو فوكيه كرامته واباءه »

فابتسم كولبير ساخرا وقال : « هذا فتح للموضوع ! »

وقال فانيل : « لقد حسبت ذلك يا صاحب المعالى »

ـ حسنا يا مسيو فانيل . اذهب توا وابحث عن المسيو دى جورفيل أو المسيو بليسون . أتعرف اى صديق آخر للمسيو فوكيه ؟

ـ أنا على صلة حسنة بالمسيو لافونتين

ـ لافونتين الشاعر ، مؤلف القصص الشعرية ؟

ـ اجل . لقد كان يكتب أشعارا لزوجتى حين كان المسيو فوكيه احد أصدقائنا

ـ اذن . . اذهب اليه ، ويحسن أن تحصل ايضا على موعد لمقابلة وزير المالية

فقال فانيل : « سأفعل كل هذا يا صاحب المعالى ، ولكن المهم هو الحصول على المال المطلوب »

ـ اطمئن يا مسيو فانيل ، فى الموعد المحدد لاتمام الصفقة ستزود بالمال المطلوب ، فلا تقلق من هذه الناحية

ـ ما أعظم هذه الأريحية يا صاحب المعالى . لقد فقت الملوك فى سخائهم !. بل لقد تفوقت على المسيو فوكيه نفسه فى سخائه !

ـ انتظر لحظة . لا تدع مجالا لسوء الفهم بيننا . اننى لست اقدم لك مليونا وأربعمائة الف فرنك هدية لك يا مسيو فانيل ، بل عندى أطفال أعولهم ، ولكنى انما أقرضك هذا المبلغ !

ـ حدد أية فائدة تريدها ، واطلب أى ضمان يرضيك . . اننى مستعد لأى شىء يا صاحب المعالى . وبعد الوفاء بكل شرط ما زلت اقول انك فقت الملوك ومسيو فوكيه فى الجود والكرم . فما هى الشروط التى تفرضها ؟

ـ الوفاء بالدين فى خلال ثمان سنوات ورهن المنصب نفسه !

ـ حسنا !. أهذا كل ما تشترطه ؟

ـ وسأحتفظ لنفسى بحق شراء المنصب منك ، بربح قدره مائة وخمسون الف فرنك ، وهذا اذا لم تقم بأعباء المنصب بالطريقة التى تحقق صالح الملك وتتفق مع مشروعاتى !. هل لديك اعتراض على شىء ؟

ـ لا . . يا صاحب المعالى

ـ حسنا !. سنوقع على اتفاق بيننا بهذه الشروط فى اى وقت تشاء . والآن اذهب بأقصى سرعتك الى أصدقاء المسيو فوكيه ، واحصل على موعد معه ، ولا تشتد حيال ما يطلب منك . ومتى تمت الترتيبات كلها . . .

ـ سألح عليه فى التوقيع على عقد الصفقة

ـ كلا !. بل حذار أن تفعل ذلك . لا تحدث المسيو فوكيه بشىء عن التوقيع أو الوثائق ، بل لا تطلب اليه كلمة شرف والا فقدت كل شىء . وكل ما عليك أن تغريه بمصافحتك دلالة على الموافقة . أفهمت ؟

ـ فهمت يا صاحب المعالى !

سر بين صديقتين

كانت الملكة الوالدة فى غرفة نومها بالقصر الملكى ومعها مدام دى موتفيل والسنيورا مولينا . وكان حضور الملك منتظرا منذ بداية النهار ولكنه لم يحضر ، فنفد صبر الملكة الوالدة وصارت تسأل عنه كل حين ، وكان جو البلاط كله ينذر باقتراب عاصفة ، وقد تفادى رجال البلاط وسيداته الالتقاء فى الردهات حتى لا يتحدثوا عن أمور شائكة . وكان الامير اخو الملك الاصغر قد صحب جلالته منذ باكورة الصباح فى رحلة صيد . ومكثت زوجة الامير (التى يشيرون اليها بلفظ المدام) فى جناحها لاتلقى احدا

وبعد أن تلت الملكة الوالدة صلواتها باللغة اللاتينية اخذت تتحدث مع صديقتيها عن مسائل منزلية بلغة قسطلة (من اقاليم اسبانيا) . وكانت مدام دى موتفيل تجيب باللغة الفرنسية برغم معرفتها لتلك اللغة . ولما استنفد النساء الثلاث كل وسائل التصنع والادب الملفوف للتعبير عما فى مسلك الملك من اقلاق للملكة والملكة الوالدة يجعلهما تذوبان كمدا وغيظا ، وبعد أن أبدين كل ما بنفوسهن من سخط على الآنسة دى لافالير بعبارات مهذبة كثيرة الحيطة ، بعد ذلك كله اتمت الملكة الوالدة كلامها بقولها :

— آه من هؤلاء الاولاد !

والحق أن هذه العبارة على ايجازها كانت كافية للدلالة على ما يعتمل فى نفس الملكة آن النمسوية ، التى عرفت بمقدرتها على كتمان أخطر الاسرار

واجابت مولينا قائلة :

— اجل ، أولئك الاولاد الذين تضحى الامهات فى سبيلهم !

ثم عادت الملكة تقول :

— ان الام تضحى بكل شىء !

ولم تكد تتم كلمتها حتى رفعت راسها ونظرت الى صورة زيتية كبيرة للملك لويس الثالث عشر بحجمه الطبيعى وبوجهه الشاحب ، فخيل اليها أن شعاعا من الضوء ينبثق من عينيه فى تلك الصورة ، وأن خياشيمه قد امتلأت حنقا وغضبا ، وكأنما دبت الحياة فى الصورة !

وخيم السكوت على أثر الكلمة الاخيرة من الملكة الوالدة ، واخذت مولينا تقلب الاشرطة والمخرم لملاءة منضدة كبيرة ، وعجبت مدام دى موتفيل من نظرة تفاهم تبادلتها الملكة وصديقتها موضع ثقتها فأرخت عينيها كما يخلق

بامرأة كتوم وتظاهرت بأنها لم تلحظ شيئا مما يدور أمامها ، لكنها ازدادت أصغاء لما يقال ، وان لم تسمع شيئا سوى همهمة من جانب الوصيفة الاسبانية التى يتمثل فيها الحذر ، وآهة عميقة من جانب الملكة ، فنظرت الى هذه توا وسألتها :

— اتتألمين ؟

— كلا يا موتفيل . لماذا تقولين ذلك ؟

— لأن جلالتك تأوهت الآن !

— صدقت ! .. لقد تأوهت حقا

— ان المسيو فالو ليس بعيدا من هنا ، واحسبه فى جناح المدام !

— لماذا هو هناك ؟

— لأن المدام عندها نوبة عصبية !

— حقا انه مرض لطيف ! .. لا فائدة من وجود المسيو فالو هناك ، على حين أن طبيبا آخر يستطيع أن يشفى المدام

فبدت الدهشة فى نظرات مدام دى موتفيل وقالت :

— طبيب آخر غير المسيو فالو ؟ .. من الذى تعنينه ؟

— اعنى الشغل ، شغل الفراغ . اذا كان هناك احد مريضا حقا فهو ابنتى المسكينة !

— وجلالتك ايضا

— نعم ، على أنى أقل مرضا فى هذا المساء !

فقالت دى موتفيل : « لاتركنى الى ذلك يا سيدتى »

وما كادت تتم عبارتها حتى شعرت الملكة بالم حلد ، فعاد وجهها شاحبا كوجوه الموتى ، واستندت الى مؤخرة كرسيها ، وظهرت عليها دلائل الاغماء المفاجىء . فسارعت مولينا الى خزانة مذهبة ذات غطاء من الصدف ، واخرجت منها قارورة فيها عقاقير للشم ، ووضعتها تحت أنف الملكة فاستنشقتها هنيهة ثم تمتمت قائلة :

— ان هذا سيعجل بوفاتى .. لتكن مشيئة الله !

فأعادت مولينا القارورة الى الخزانة وقالت للملكة :

— بعد عمر طويل !

وسألتها مدام دى موتفيل : « أتشعرين جلالتك بتحسن الآن ؟ »

فقالت الملكة : « احسن من ذى قبل ! »

ووضعت اصبعها على شفتيها لتدعوهما الى السكوت . ثم قالت مدام دى موتفيل بعد قليل :

— حقا .. انه لأمر عجيب

فسألتها الملكة : « ماذا تعنين ؟ »

فقالت : « هل تتذكرين جلالتك اليوم الذى شعرت فيه بهذا الألم أول مرة ؟ »

قالت : « اذكر أنه كان يوما حزينا جدا فيما يختص بى ! »

فقالت مدام دى موتفيل : « لكن جلالتك لم تعدى ذلك اليوم دائما يوما حزينا ؟ » .

ونظرت اليها الملكة متسائلة ، فواصلت كلامها قائلة :

ـ فى ذلك اليوم ، منذ ثلاث وعشرين سنة ، ولد جلالة نجلك

فندت عن صدر الملكة آهة حزينة ، وأخفت وجهها بين يديها ، وظلت دقائق مستغرقة فى تفكير أليم . وألقت مولينا نظرة غاضبة على مدام دى موتفيل ، وكانت هذه قد اشتد بها الندم على ما قالته للملكة ، ولم تدر له معنى يؤلمها ، حتى أوشكت أن تسألها ، ولكن الملكة آن قامت وهى تقول :

ـ أجل ! .. يوم ٥ سبتمبر ، لقد بدأ حزنى يوم ٥ سبتمبر ، شعرت فى ذلك اليوم بأعظم فرح ، ثم شعرت فى غده بأشد حزن عرفته فى حياتى ، وكان هذا كفارة عن ذلك الفرح البالغ

وبقيت دقائق ساكتة زائغة البصر وقد تدلت يداها وكأن الحياة فارقتها !

وقالت مولينا : « يجب أن نضعها فى فراشها »

فأشارت اليها الملكة قائلة : « نعم يامولينا . وليكن ذلك فورا .. ! »

ثم قالت الوصيفة الاسبانية : « لندع الملكة وحدها ! »

وحينئذ نهضت مدام دى موتفيل ، وأخذت تنظر فى أسف شديد الى الدموع تجرى على خدى الملكة ، بينما قالت لها هذه :

ـ أجل ياموتفيل ، دعينا وحدنا ، اذهبى !

وقد أحدثت هذه الكلمة أثرا سيئا فى نفس الوصيفة الفرنسية ، اذ دلتها على أن هناك سرا قديما بين الملكة ووصيفتها الاسبانية توشك أن تفضى به اليها على حدة ، دون أن تقف عليه هى ، فتمهلت وقالت للملكة :

ـ أتكفى مولينا وحدها لخدمة جلالتك الليلة ؟

واذ أومأت الملكة برأسها موافقة ، لم يسع مدام دى موتفيل الا ان تنحنى وتنسحب ، لكنها قبل أن تصل الى الباب فوجئت بفتحه ودخول وصيفة عجوز ترتدى ثيابا كثياب سيدات البلاط الاسبانى سنة ١٦٢٠ ، وما لبثت هذه أن اقتربت من الملكة وهى ما زالت تبكى . وقالت لهـــا : « الدواء يا مولاتى ! »

فسألتها الملكة آن : « أى دواء ؟ »

فقالت الوصيفة العجوز : « دواء يذهب عن جلالتك الآلام ! »

وهنا سألتها مدام دى موتفيل : « من الذى أحضره ؟ .. المسيو فالو ؟ »

فقالت الوصيفة : « لا ، بل أحضرته سيدة من اقليم الفلاندر »

فدهشت مدام دى موتفيـــل وقالت : « من اقليم الفلاندر ؟ .. أهى أسبانية ؟ »

وبدا على الوصيفة أنها لاتدرى ، فعادت مدام دى موتفيل تسألها : « من الذى بعثها ؟ .. وما اسمها ؟ .. وما مركزها فى الهيئة الاجتماعية ؟ »

واجابت الوصيفة العجوز بقولها : « لقد ارسلها المسيو كولبير ، وهى لم تفصح عن اسمها ، وستشرح بنفسها كل شيء عن شخصها ! »

فازدادت دهشة مدام دى موتفيل وقالت : « أعجوز هى أم شابة ، وماذا يدل عليه وجهها ؟ »

واجابت الوصيفة قائلة : « انها تضع قناعا على وجهها ، ولذلك لم اتبينه تماما ! »

وكانت الوالدة تستمع لذلك الحوار ، فالتفتت الى مولينا وقالت لها :

ـ اذهبى يامولينا وانظرى ماذا هناك ؟

وهنا انبعث من وراء الستار المسدل على الباب صـــوت حازم يقول : « لاحاجة الى ذلك » . وفى اللحظة نفسها انفرج الستار ودخلت امرأة مقنعة ، فى زى يشبه زى الراهبات ، ثم قالت قبل أن تنطق الملكة ببنت شفة :

ـ مولاتى .. اننى مندوبة من جماعة الراهبات فى مدينة (بروجز) ، وقد جئت ومعى الدواء الكفيل بشفاء جلالتك من آلامك .

ثم وقفت فى مكانها ساكتة ، ولم تنطق احدى الحاضرات بكلمة حتى قالت لها الملكة : « تكلمى »

فقالت : « سأتكلم حين أكون وحدى مع جلالتك ! »

ونظرت الملكة آن الى وصيفتيها فانسحبتا توا ، وعندئذ تقدمت الراهبة بضع خطوات نحو الملكة وانحنت لها فى اجلال ، بينما نظرت الملكة اليها فى ارتياب محاولة أن تعرف هويتها بنظراتها الفاحصة الى وجهها الذى أخفاه قناعها ، ثم قالت لها الملكة :

ـ لابد أن ملكة فرنسا فى مرض شديد حتى ان نبأ مرضها وصل الى دير الراهبات فى بروجز ؟

فقالت : « ان مرض جلالتك لايعز على الشفاء ! »

ـ ولكن خبرينى : كيف علمت بنبأ مرضى ؟

ـ ان لجلالتك أصدقاء فى الفلاندر

ـ من هم أولئك الاصدقاء الذين بعثوك الى ؟ .. اذكرى اسماءهم

ـ هذا محال يا مولاتى ما دامت ذاكرة جلالتك لم يوقظها قلبك !

فعادت الملكة آن ترسل نظراتها خلال قناع الراهبة لتستشف غرضها ، ولما عجزت عن ذلك قالت لها :

ــ لعلك لا تعلمين ان الشخصيات الملكية لا تخاطب من وراء قناع ؟

فقالت الراهبة : « ارجو أن تغفرى لى ذلك »

وقالت الملكة : « لن اغفر لك الا اذا خلعت نقابك ! »

فقالت : « لقد اقسمت يا سيدتى على أن أساعد كل شخص يتألم دون ان اسمح له برؤية وجهى ، ولعل فى استطاعتى ان أخفف من آلام جسمك وذهنك ، ولكن ما دمت جلالتك لا تسمحين لى بذلك فانى انسحب ، وداعا يا مولاتى ! »

ونطقت هذه الكلمات بجد واحترام ذهبا بغضب الملكة وارتيابها ، وان تكن قد بقيت على فضولها ، وقالت لها :

ــ انك على صواب ، فلا يليق بمن يتألم ان يرفض وسيلة لتخفيف الله أرسلها الله اليه ، تكلمى اذن ، وعسى أن تقدرى على تخفيف الالم الذى اضنى جسمى

ــ لنتحدث أولا عن الالم الذى بذهنك ، لأنى موقنة بأن الذهن يتألم ايضا !

فرددت الملكة متعجبة : « ذهنى ؟ ! »

وواصلت الراهبة كلامها قائلة : « توجد انواع من السرطان ، خفية فى كنهها حتى ان خفقها لايلحظ . وهذه الأنواع ياسيدتى لا تكاد تنبىء عنها العوارض الظاهرة ، فالطبيب الذى ينحنى على صدر المريض لا يسمع أسنان المرض النهمة وهى تقرض العضلات لأن الدم يستمر فى جريانه ، ومبضع الجراح كان ولا يزال عاجزا عن القضاء عليها ، لأن موطنها هو الذهن الذى تعمل على افساده ، وهى تملأ القلب كله بثغراتها ! »

فرفعت الملكة ذراعها وتأملت هنيهة بياضها الناصع وسرها ان وجدتها عبلة كما كانت فى أيام شبابها ، ثم قالت للراهبة :

ــ ان الآلام التى تشيرين اليها هى من ظروف الحياة لمن يولد على الأرض رفيع المنبت ، واذا اصبحت تلك الآلام أشد من ان يتحملها الانسان ، فان الله يضع عنه وزرها بالندم والاعتراف ، وهناك نزيح عن كاهلنا حمله ، ونعفى انفسنا من عبء الاسرار التى تثقلها ، ولكن لا تنسى أن الله يمنحنا برحمته قوة تعاوننا على حمل ذلك العبء . وقد حملت عبئى صابرة بفضل هذه القوة

ــ أراك شجاعة يا مولاتى حيال أعدائك كما كنت دائما ، انك لا تقرين بثقة لك فى أصدقائك !

ــ ان الملكات ليس لهن أصدقاء ، واذا لم يكن لديك شىء آخر تقولينه لى ،

وحسبت ان الله ملهمك ، فاتركينى ، ارجو منك ، فانى اخشى المستقبل !

فقالت الراهبة بحزم :

ــ لقد حسبتك تخشين الماضى أكثر من المستقبل !

ولم تكد تتم هذه الجملة حتى قامت الملكة من مكانها فزعة ، وقالت لها بلهجة الامر :

ــ تكلمى واوضحى ! .. هيا والا ...

ــ لا تهدديني يا صاحبة الجلالة ، لقد جئت اليك وملء قلبى المحبة والاجلال لك ، ولقد جئت اليك من طريق صديق !

ــ برهنى لى على ذلك بدلا من مضايقتى

ــ هذا أمر يسير على ، وسترين جلالتك من الذى يخلص لك فعلا . اى الكوارث نزلت بك فى خلال الثلاث والعشرين سنة الاخيرة ؟

ــ انها كوارث شديدة ، ألم أنقذ الملك ؟

ــ انى لا أعنى كوارث من هذا القبيل ، بل أود لو أسألك : منذ ميلاد الملك هل سبب لك احد الاصدقاء بعدم الكتمان اى قلق أو شر ؟

ــ انى لا أفهم ما تقولين !

ــ ساوضح قولى اذن ، ان جلالتك تذكرين ان الملك ولد يوم ٥ سبتمبر سنة ١٦٣٨ فى الساعة الحادية عشرة والربع

ــ اجل ..

ــ وعند منتصف الساعة الثانية عشرة نودى بنجلك وليا للعهد بعد أن عمده صاحب الفخامة (دى مو) بحضورك وحضور الملك ، ثم ذهب الملك الى كنيسة القصر القديم فى سان جرمان لحضور الصلاة

فتمتمت الملكة قائلة : « نعم ، نعم هذا ما حدث تماما »

ومضت الراهبة فى حديثها فقالت :

ــ وقد بدأت جلالتك النفاس فى حضرة المرحوم اخيك والامراء وسيدات البلاط ، وكان بوفار طبيب الملك وهونوريه الجراح فى الغرفة المجاورة ، ونمت جلالتك من الساعة الثالثة الى الساعة السابعة كما اعتقد

ــ اجل ، ولكنك لا تخبريننى الا بما يعرفه كل انسان

ــ اننى الآن يا سيدتى أدنو من شىء لايعرفه الا القلائل ، بل لا يعرفه الا بعض القلائل ، أو اثنان فقط ، لأنه فى حينه كان يعرفه خمسة ، ثم مات أهم عارفيه وهو الملك الذى يرقد الآن الى جوار اجداده ، وقد تبعته وشيكا بيرون المولدة ، وأصبح لابورت فى عالم النسيان !

وهنا فتحت الملكة فاها تريد أن تتكلم ، وشعرت بالعرق البارد يتصبب من جبينها ، بينما استطردت الراهبة فقالت :

ــ كانت الساعة الثامنة ، وقد جلس الملك الى مائدة العشاء بادى السرور ،



« وخلعت قناعها فجأة ، فصاحت الملكة فى دهشة : مدام دى شيفريز ! »

تغمره السعادة وترتفع من حواليه صيحات الفرح وشرب الانخاب ، وكان الشعب يهتف تحت الشرفات ، ورجال الحرس السويسرى ، والفرسان ، والحرس الملكى يجوبون خلال المدينة ، والطلبة يمشون سهكارى صاخبين ، وازعجت هذه الاصوات ولى العهد الذى كان راقدا بين ذراعى مدام (دى هوزاك) مرضعته ، ولو انه فتح عينيه لراى تاجين فى اسفل مهده ، وبغتة صرخت جلالتك صرخة عالية فجرت اليك مدام بيرون ، وكان الطبيبان يتناولان عشاءهما فى الغرفة المجاورة لغرفتك ، بينما القصر هجره الحراس ، وفحصتك القابلة ثم صاحت صيحة دهشة ، واخذتك بين ذراعيها ، وأرسلت لابورت توا ليخبر صاحب الجلالة أن الملكة تريد أن تراه فى غرفتها. وكان لابورت كما قد تذكرين جلالتك رجلا هادئا حاضر الذهن ، فلم يفاجىء الملك بما يزعجه ، بل اقترب من جلالته وقال له وعلى شفتيه ابتسامة : « مولاى . ان جلالة الملكة فى سعادة عظيمة وستزداد سعادتها اذا رات جلالتك » . وكان الملك فى أشد حالات السرور والمرح فقام قائلا للجالسين الى المائدة : « أيها السادة : انى ذاهب لرؤية زوجتى » . وجاء جلالته الى سريرك فى اللحظة التى قدمت اليه مدام بيرون أميرا ثانيا فى مثل جمال الأول وهتفت قائلة له : « مولاى . ان الله لايشاء أن تحكم فرنسا ملكات » . وتحت تأثير الفرحة الاولى تناول الملك الطفل بين ذراعيه ورفع رأسه قائلا : « شكرا لك يا الهى ! »

وسكتت الراهبة لترى مبلغ تأثر الملكة ، وكانت هذه قد قبعت فى كرسيها واخذت تصغى باهتمام دون أن تحرك شفتيها بلفظ ما . ثم قالت الراهبة :

ــ لقد اقتنعت جلالتك يومئذ بأن المملكة لا ينبغى أن يكون لها غير ولى عهد واحد ، وهكذا نشأ الوليد الآخر بعيدا عن والديه الملكيين ، على ان جلالتك وان سمحت بذلك فقد تعذبت كثيرا ، وكم ذرفت الدموع الغزار ، وطبعت القبل الحنون على محيا ذلك الطفل البرىء فى مقابل حياة البؤس والظلام التى قضت بها ظروف السياسة على توأم لويس الرابع عشر !

وهنا تمتمت الملكة بصوت واهن : « آه . يا الهى ! »

واستأنفت الراهبة كلامها فقالت : « ان الملك قدر ما قد ينجم عن وجود ولدين له متشابهين فى السن وفى حق المطالبة بالعرش ، وأزعجه الخوف على مستقبل البلاد وأمنها . وهكذا أخذ الكاردينال ريشيليو يفكر فى الامر بتوجيه من الملك ، وبعد ان مكث ساعة يفكر وهو فى مكتب الملك خرج يقول : (أمير واحد يمثل الأمن والسلام للدولة ، واميران اثنان يمثلان الحرب الداخلية والفوضى) . . »

وعندئذ قامت الملكة بغتة من مقعدها وقد شحب وجهها وقبضت يديها وقالت بصوت أجش :

ــ انك تعرفين أكثر مما ينبغى لك ان تعرفيه من أسرار الدولة . اما الأصدقاء الذين تزعمين أنك أتيت من عندهم فهم كاذبون خائنون . وانت

شريكتهم فى الجريمة التى ترتكب الآن . اخلعى نقابك والا امرت قائد الحرس بالقبض عليك . لا تحسبى أن هذا السر يخيفنى ! انه لن يغادر صدرك ، لأن سرك وحياتك لم يعودا ملكك منذ هذه اللحظة !

ونهضت الملكة آن وتقدمت خطوتين نحو الراهبة . فقالت هذه :

ـ تعلمى ان تقدرى قيمة الأصدقاء الذين نبذتهم ، وأن تقدرى اخلاصهم وكتمانهم للسر !

ثم خلعت قناعها فجأة ، فصاحت الملكة فى دهشة : « مدام دى شيفريز ! »

وقالت هذه فى هدوء : « نعم يا مولاتى ، اننى أنا هى تلك التى لا يعلم بذلك السر سواها ! »

فتمتمت الملكة قائلة : « تعالى عانقينى يا دوقة . وا أسفاه ! انك تقتلين صديقتك اذ تعبثين هكذا بمأساتها !! »

وأسندت الملكة رأسها الى كتف الدوقة العجوز ، وانفجرت باكية . فقالت لها الدوقة : « انك لا تزالين شابة يا مولاتى ، وليس أدل على ذلك من أنك تبكين ! »



وجهت الملكة آن نظرة رزينة الى مدام دى شيفريز ثم قالت لها :

ـ أحسبك قد ذكرت اسمى مقرونا بكلمة السعادة منذ قليل ، ولست أكتمك يا دوقة أنى لم أكن أتصور أن أى مخلوق من البشر يمكن أن يكون أقل سعادة من ملكة فرنسا !

ـ ان أحزانك يا مولاتى كانت شديدة حقا ، ولكنك فيما يختص بالمآسى التى وقعت لنا نحن الصديقتين القديمتين اللتين فرق بينهما حقد الرجال ، لا تزالين تملكين موارد للسرور قد تكون ضئيلة فى ذاتها ولكنها مما يحسدك عليه كثير من الناس

فقالت الملكة : « موارد للسرور ؟! .. أين هذه الموارد ؟ وماذا يغريك بأن تذكرى كلمة السرور أنت التى اعترفت منذ هنيهة بأن جسمى وذهنى كليهما فى حاجة الى الدواء ؟ »

فجمعت مدام دى شيفريز شتات جرأتها وقالت : « ما أبعد الملوك عن سواد الناس !. انهم لبعدهم عن الناس ينسون أن غيرهم قد يعوزه ضروريات الحياة ، مثلهم كمثل ساكن فى جبل بأفريقيا يأكل من الارض الخضراء ويرتوى من جداول الثلج الذائب ، فلا يقدر أن يفهم أن الناس الذين فى السهول الواطئة يموتون جوعا وظمأ وسط أراضيهم التى تحرقها حرارة الشمس ! »

فاحمر وجه الملكة قليلا اذ بدأت تدرك ما ترمى اليه صديقتها القديمة ، وقالت لها :

ـ كان من الخطأ أن أهمل أمرك !

ـ آه يا سيدتى ، انى أعرف أن الملك قد ورث عن أبيه كراهيته لى ، ولا شك أنه يخرجنى من هنا اذا علم بوجودى فى القصر !

ـ قد لا أستطيع أن أقول انه يميل اليك يا دوقة ، ولكننى قد أستطيع أن أصنع شيئا دون أن يعلم به

فابتسمت الدوقة ولم تجب ، واستطردت الملكة قائلة :

ـ لقد أصبت اذ جئت الى هنا ولو لتكذيب نبأ وفاتك !

ـ هل قيل اذن انى مت ؟

ـ اننا جميعا مصيرنا الى الموت ، ولعلك أدركت أن أختك الصغرى كما كنت تسميننى ، تسير مسرعة نحو القبر !

ـ لو أن جلالتك اعتقدت صحة وفاتى ، فلا شك أنك عجبت اذ لم يصل اليك منى نبأ قبل ذلك !

ـ ان الموت كثيرا ما يدهم الناس يا دوقة !

ـ آه يا صاحبة الجلالة ، ان أولئك الذين تثقل كواهلهم الأسرار كالسر الذى كنا نتحدث عنه ، يشعرون بحاجة ماسة الى أن يبوحوا بها ، ويرغبون فى تحقيق هذه الرغبة قبل أن يموتوا ، ولا يفوتهم أن يرتبوا أوراقهم قبل رحلتهم الأخيرة !

فارتاعت الملكة ، بينما استمرت الدوقة فى حديثها قائلة :

ـ ان جلالتك ستعلمين نبأ وفاتى ولا شك ، وسيكون ذلك فى اليوم التالى لهذه الوفاة ، اذ تتسلمين جلالتك رسائل تحوى كل ما دار بيننا من مكاتبات فى الايام الخالية !

فصاحت الملكة منزعجة : « ألم تحرقيها ؟ »

وقالت الدوقة فى هدوء : « ان الخونة ـ وحدهم ـ هم الذين يحرقون ما قد يكون لديهم من المكاتبات الملكية ! »

ـ تقولين : الخونة ؟

ـ أجل يا مولاتى .. وبعبارة أصح قد يدعى أولئك الخونة انهم حرقوا تلك المكاتبات ، على حين أنهم فى الواقع احتفظوا بها لكى يبيعوها ، أما الأصدقاء الأمناء فانهم على عكس ذلك تماما ، واذا كان أحد منهم قد احتفظ بتلك الكنوز الملكية ، فلكى يحملها يوما من الايام الى جلالة ملكته المحبوبة قائلا لها : « مولاتى ، ان الزمن تقدم بى ، وصحتى فى تدهور مطرد ، وحيال خطر الموت أخشى أن يظهر السر ، ولهذا جئتك بهذه الاوراق التى تتضمن سرا خطرا عليك ، لتحرقيها بيدك ! »

فسألتها الملكة : « أية أوراق تشيرين اليها يا دوقة ؟ »

فقالت : « فيما يختص بى لا أمتلك الا ورقة واحدة ولكنها حقا من أخطر الاوراق ! »

ــ خبرينى يا دوقة ما هى !

ــ هى خطاب بتاريخ الثلاثاء الثانى من أغسطس سنة ١٦٤٤ كتبته الى بخطك ، وطلبت فيه الى أن أذهب الى (نوزاى ــ لى ــ سيك) لأرى ذلك الطفل التعس

وهنا ســـاد صمت عميق ، كان ذهن الملكة خلاله يجوس خلال المـاضى وكانت مدام دى شيفريز ترقب نجاح خطتها • ثم تمتمت الملكة قائلة :

ــ أجل • الطفل التعس • انه أشقى طفل فى العالم • لقد عاش الطفل المسكين عيشة حزينة لينهيها بتلك النهاية القاسية !

فصاحت الدوقة : « هل مات ؟ »

ــ لقد مات بالسل • مات منسيا ذابلا كالزهرة التى وهبها عاشق الى حبيبته ، فتركتها فى خزانة مغلقة لتخفيها عن أعين الرقباء !

وعادت الدوقة تكرر قولها : « مات ؟!•• أكان ذلك فى (نوزاى ــ لى ــ سيك) ••؟ •• »

فقالت الملكة : « أجـل !• مات بين ذراعى مربيه ، وكان رجلا مسكينا شريفا لم يعش طويلا بعده ! »

ــ من السهل ادراك ذلك • فقد كان عسيرا عليه أن يحمل تلك الصدمة بعد وقوفه على ذلك السر وكلاهما يرهق الكاهل !

ولم ترد الملكة أن تلحظ ما فى هذا القول من سخرية خفية • ثم قالت مدام دى شيفريز : « مع هذا قد سألت منـذ بضع سنوات عن ذلك الطفل البائس فى (نوزاى ــ لى ــ سيك) • وقد وجدت الناس هناك لا يعتقدون أنه مات حقا ، وهذا هو السبب الذى جعلنى لا أشارك جلالتك فى الحزن ، لأنى لو كنت تصورت صدق ذلك لما أشرت أدنى اشارة الى هذا الحادث ولما رضيت أن أبعث الكمد فى نفس جلالتك ! »

فاعتدلت الملكة فى مقعدها وقالت : « تقولين : ان النـاس لا يعتقدون انه مات ؟!• »

فقالت الدوقة : « لقد قالوا : انه ذات مساء فى سنة ١٦٤٥ جاءت الى هناك سيدة بهية الطلعة ذات كبرياء ، لفتت الانظار اليها برغم قناعها وبرغم المعطف الذى كان يلف جســدها • وكان واضحا أنها ذات رتبة رفيعة بلا ريب ، فوقفت بعربتها عند مفترق الطريق،حيث وافاها بالطفل ذلك الوصى عليه • وفى اليوم التالى غادر الطفل والوصى تلك الجهة »

فقالت الملكة : « ان فيما تحكينه شيئا من الصدق ، والواقع أن الطفل المسكين مات من مرض مفاجىء يجعل حياة جميع الاطفال معلقة بخيط »

ــ لا شك فى أن ما تقولينه جلالتك هو الحق ، لكنه مع هذا يبدو عجيبا،

فان الشخص الذى نبأنى بهذه التفصيلات ، وهو الذى عهدت أنا اليه فى السؤال عن صحة الطفل •••

فقطعت الملكة كلامها وسألتها مرتاعة :

ــ هل عهدت فى هذه المهمة الى أحد آخر ؟ • آه يا دوقة !

فقالت الدوقة : « لا عليك يا سيدتى ، ان هذا الرسول لا يمكن أن ينبس ببنت شفة ، مثله فى ذلك مثل جلالتك ومثلى•ولنفرض أنه أنا يا سيدتى• فالمهم أنه حين مر بمدينة تورين »

فرددت الملكة متعجبة : «تورين ؟!» • ومضت الدوقة فى حديثها قائلة :

ــ نعم ، مر بتورين منذ بضعة أشهر ، وهناك عرف الطفل والوصى • أو بعبارة أصح ظن أنه عرفهما وكلاهما فى عيشة ناعمة ، أحدهما فى ختام حياته ، والآخر فى عنفوان شبابه • فاحكمى بعد ذلك عما فى الشائعات من صدق ! ولكن أحسبنى أتعبت جلالتك ولم يكن غرضى ذلك ، ولهـذا أستأذنك فى الانصراف بعد أن جددت لك التعبير عن اخلاصى واجلالى !

فقالت لها الملكة : « بل امكثى يا دوقة وحدثينى عن نفسك ! »

فقالت بعد زفرة طويلة : « عن نفسى ؟• انى لست أهـلا لأن تلقى على نظرة يا سيدتى ! »

فاقتربت الملكة منها متحببة وقالت : « كلا !• انك أقدم صديقة لى ، أم تراك غاضبة منى يا دوقة ؟ »

فقالت : « أنا غاضبة منك ؟!•• وماذا يحملنى على ذلك ؟!•• لو كان لدى أى شعور من هذا القبيل نحو جلالتك ما أتيت اليك ! »

فسكتت الملكة قليلا ، ثم استأنفت الحديث فقالت :

ــ يا عزيزتى الدوقة •• ان الموت يزحف صوبنا نحن الاثنتين ، ويجب أن نكون يدا واحدة حيال ذلك الموت الذى لن يلبث قليلا حتى يدركنا !

فقالت : «انك تأسريننى يا مولاتى بهذا العطف الذى ليس غريبا عليك»

قالت : « ان أحدا من الناس لم يحبنى ولم يخدمنى مثلك ! »

ــ ان تذكر جلالتك خدمتى انما هو عطف كريم منك ، وهذا ما يجعلنى دائما وكلى ولاء ووفاء لجلالتك

ــ اذن •• ألا تقدمين لى برهانا على صداقتك يا دوقة ؟ يجب أن تطلبى منى شيئا الآن ، انى أعرفك حق المعرفة فليس هناك من هو أصدق منك ولاء أو أكثر نبلا !

ــ لا تمتدحينى كثيرا يا سيدتى

ــ مهما أطنب فى الثناء ، فهذا ولا شك دون ما تستحقين !

فتنهدت الدوقة وقالت : « حقا •• ان السن وســـوء الحظ يؤثران فى الناس تأثيرا كبيرا •• ! »

فقالت الملكة : « ان دوقة الايام الخالية ، ذات البهاء والكبرياء كانت تقول دائما : (لا أريد شيئا منك) • أما الآن فما أسعدنى حقا بأن يكون فى استطاعتى اجابة أى طلب لك ! »

— يجب أن أوضح لك الأمر أولا يا مولاتى • ان جلالتك تستطيعين أن تمنحينى أعظم سرور ، ولن يشق عليك ذلك برغم أنك الآن تحت سلطان ابنك كما كنت تحت سلطان زوجك • فهل أنت على استعداد حقا لاجابة ما أطلب يا مولاتى ؟

فقالت الملكة : « نادينى أولا كما كنت تنادينني فى الماضى • وكلمينى بالاسبانية ان كنت لا تزالين تعرفينها ! »

فقالت الدوقة بالاسبانية : « حسنا • يا عزيزتى آن !•• هل تقبلين أن تمنحينى شرف تمضيتك بضعة أيام معى فى قصر دامبيير ؟ »

فنظرت اليها الملكة فى تودد وقالت : « أهذا كل ما تطلبينه ؟ »

فقالت : «انى اذ أطلب اليك هذا ، انما أطلب أعظم شرف لى !•أتقبلين؟»

— أجل بكل سرور • وسأكون سعيدة اذا كان وجودى سيفيدك

وهنا أمسكت الدوقة يد الملكة ، ثم راحت تغمرها بالقبلات ، وقالت لها:

— أتوافقين جلالتك على الانتظار أسبوعين قبل أن تأتى ؟

— أوافق بكل سرور ، ولكن لماذا ؟

— لان الناس وقد عرفوا أنى مغضوب علي فى القصر الملكى،لا يرضون أن يقرضونى مائة ألف فرنك لاصلاح قصر دامبيير • ولكنهم حين يعلمون أن ذلك الاصلاح لكى أستطيع أن أستقبل جلالتك فى القصر ، فان كل المال الذى فى باريس يكون تحت تصرفى !

فأومأت الملكة برأسها دلالة على الفهم وقالت :

— سأقرضك هذا المبلغ اذا شئت يا دوقة !

— لا أقدر أن أقبل منك مثل هذا المبلغ

— انك تخطئين اذا رفضت ذلك ، ثم ان مائة ألف فرنك ليست بالمبلغ الفادح • انى أعلم علم اليقين أنك لا تقدرين القيمة الحقيقية لصمتك وكتمانك • ادفعى هذه المنضدة قليلا نحوى وسأكتب لك أمرا الى المسيو كولبير ، بل الى المسيو فوكيه الذى هو أكثر لطفا وأسرع معروفا !

قصة « لافونتين »

كانت ضاحية (سانت مانديه) هى المكان المختار الذى اعتاد المسيو فوكيه وزير المالية أن يستقبل فيه صفوة أصحابه من الادباء الأبيقوريين(١) وكان رب الدار قد مر خلال الفترة الاخيرة بتجارب قاسية يعلمها كل من فى الدار • خاصة بعد أن قلت فيها حفلات البذخ والترف ، وصار معروفا أن صاحبها يعانى أزمة مالية قاسية !

وقد بذل المسيو فانيل جهده حتى يحفظ للدار شهرتها فى الكرم والضيافة ، ولكن أصحاب البساتين الذين يوردون حاجات المطبخ كانوا يشكون من التأخر فى دفع حقوقهم ، وكذلك التجار الذين يوردون النبيذ الاسبانى كانوا يطالبون بما لهم ، والصيادون الذين يعملون فى البحر عند الشاطىء النورماندى • وقد امتنع أكثر هؤلاء عن توريد أى شىء الى الدار ما لم تؤد اليهم حقوقهم المتأخرة !

على أن أصدقاء فوكيه استمروا برغم ذلك فى التوجه الى داره يوم الاستقبال المعتاد ، وكان (جورفيل) والأب فوكيه — شقيق الوزير — يتحدثان معا فى شأن قرض لم يؤده الثانى للأول • بينما جلس (بليسون) يكتب الخطبة التى يعتزم فوكيه أن يلقيها فى افتتاح البرلمان ، وقد حرص بليسون على أن يجعلها قطعة رائعة من الأدب ، وضمنها كثيرا مما كان المسيو فوكيه خليقا بأن ينساه !

وجاء (لوريه) و (لافونتين) من باب الحديقة وقد استغرقا فى جدل شديد حول سهولة قرض الشعر • فى حين جلس الرسامون والموسيقيون وبقية الضيوف يثرثرون بالقرب من غرفة الطعام،فى انتظار انقضاء نصف الساعة الباقى على موعد اعداد المائدة فى الساعة الثامنة كالمعتاد

ولما اكتمل عقد الضيوف جميعا ، ذهب جورفيل الى بليسون فأيقظه من أحلامه وقاده الى وسط الغرفة ، ثم أغلق الابواب وسأله : «هل من جديد ؟»

فقال له بليسون : « لقد اقترضت خمسة وعشرين ألف فرنك من عمتى وهى معى الآن »

فقال جورفيل : « حسنا !• لا ينقصنا الآن الا مائة وخمسة وتسعون ألف فرنك لسداد أول قسط ! »

(١) اتباع أبيقور الفيلسوف اليونانى القديم الذى كان يدعو الى التماس السرور واللذة

فسأله لافونتين : « سداد ماذا ؟ »

فأجاب بقوله : « أهكذا أنت دائما شارد الذهن ؟! ·· انك أنت الذى أخبرتنا بأن المزرعة الصغيرة التى للمسيو فوكيه فى (كوربى) سيبيعها أحد دائنيه !· وأنت أيضا الذى اقترحت أن يكتتب جميع أصدقائه لسداد ما عليه من ديون ، بل لقد عرضت أن تبيع جانبا من مزرعتك التى فى (شاتو - تييرى) لكى تساهم بنصيبك فى ذلك الاكتتاب · فما بالك الآن قد نسيت كل هذا ، وجئت تسألنا : سداد ماذا ؟! »

فأثارت هذه الملاحظة ضحك الجميع حتى احمر وجه لافونتين خجلا ، ثم قال : « معذرة !· انى لم أنس ولكن ··· »

فسارع لوريه الى اتمام عبارته قائلا : « ولكن لم تتذكر شيئا عن الموضوع !· هذه هى الحقيقة،وهناك فرق كبير بين النسيان وعدم التذكر !»

وقال بليسون للافونتين : « حسنا !· هل جئت بنصيبك من ثمن الجانب الذى بعته من المزرعة ؟ »

فقال لافونتين : « انى لم أبع شيئا ·· هذه هى الحقيقة »

فسأله جورفيل فى دهشة ظاهرة : « ألم تبع جانبا من مزرعة شاتو تييرى ؟ » · فقال : « كلا !· ان زوجتى لم تدعنى أفعل ذلك ! »

وهنا قهقه الجميع ساخرين وقال أحدهم : «ولكنك سافرت لهذا الغرض؟»

فقال له : « أجل يا سيدى ، وقد سافرت على ظهر جواد ! بل الواقع أنها ثمانية جياد لا جواد واحد تنقلت بين ظهورها خلال الطريق ، وكدت ألقى حتفى غير مرة هاويا من فوقها ! »

فقال له ساخرا : « انك لبارع حقا !·· ولعلك ارتحت بعد أن عدت الى باريس ؟ »

فقال لافونتين : « نعم ، فقد كان أمامى عمل كثير أؤديه ! »

والتف حوله الحاضرون يسألونه عن ذلك العمل الكثير ، فقال لهم :

- كانت زوجتى تغازل الرجل الذى كنت سأبيعه الارض ، ولكنه رجع عن عقد الصفقة فدعوته الى المبارزة

وهنا سأله أحدهم : « وهل تبارزتما ؟ »

فأجاب قائلا : « يبدو أننا لم نفعل ذلك ! »

وقال له آخر : « كيف هذا ؟· ألا تدرى أتبارزتما أم لا ؟! »

فقال : « ان زوجتى وأقاربها تدخلوا فى الموضوع ، وقد بقيت أنا ربع ساعة أنتظر وسيفى فى يدى ، ولم أجرح على كل حال ! »

فعاد الرجل يسأله : « وخصمك ؟· أجرح أم لم يجرح ؟ »

فقال : « لم يجرح ، لانه لم يأت الى مكان المبارزة ! »

فصاح آخرون : « هذا بديع !·· لا شك فى أنك غضبت من ذلك ! »

فقال : « أجل !· وقد أصابنى برد · وعدت الى بيتى فشرعت زوجتى تشاجر معى ! »

وسأله لوريه : « أكان شجاركما جديا ؟ »

فأجاب قائلا : « طبعا !· وقد قذفتنى برغيف كبير أصاب رأسى ! »

- وماذا فعلت أنت ؟

- قلبت المائدة عليها وعلى ضيوفها ، ثم امتطيت ظهر جوادى قاصدا الى هنا ، وها أنذا قد وصلت !

وكان عسيرا على الحاضرين أن يكتموا الضحك وهم يسمعون تفصيل هذه المهزلة · ولما خف الضحك سأله أحدهم : « أهذا كل ما جئتنا به ؟ »

فقال : « كلا !· بل جئت وفى ذهنى فكرة رائعة !· ألم تلاحظوا أن الشعراء فى فرنسا يكتبون كثيرا من الاشعار الهزلية الاباحية ؟ »

فأجاب الجميع : « أجل !· لاحظنا جميعا ذلك »

فاستطرد لافونتين قائلا : « ان القليل من تلك الاشعار هو الذى يطبع ويذاع ، لان القانون صارم الى حد كبير فى هذا الشأن كما تعلمون ، ولكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن مثل هذه المادة الادبية مادة نفيسة · ولهذا كتبت قصيدة صغيرة من الأدب المكشوف ، وتحوى سخرية لاذعة ! »

وعاد الجميع يضحكون بينما الشاعر مستمر فى وصف بضاعته يقول :

- لقد اجتهدت لأجعلها تفوق كل ما كتبه (بوكاشيو) و (لمرتين) وغيرهما من أساتذة هذا الفن !

فقال بليسون : « ان مصير قصيدتك معروف ، فلا شك فى أنها ستصادر ! »

فالتفت اليه وقال : « أتظن ذلك ؟· اننى أؤكد لكم انى لم أكتبها من أجل نفسى ، ولكن من أجل المسيو فوكيه ! »

ولم يتمالك الحاضرون أنفسهم من الضحك مرة أخرى ، بينما استمر لافونتين فى حديثه قائلا :

- لقد بعت الطبعة الاولى من الكتيب الصغير الذى تضمن هذه القصيدة بثمانمائة جنيه وانكم لتعلمون أن الكتب الجدية والدينية تباع بنصف هذه القيمة أو أقل !

فقال له جورفيل : « كان خيرا لك أن تؤلف كتابين دينيين بدلا من قصيدتك ! »

فقال جادا : « كلا !· إنهما كانا يجيئان مملين جدا !· وعلى كل حال ·· الثمانمائة جنيه معى هنا فى هذا الكيس ، وسأقدمها لتكون نصيبى فى الاكتتاب المقترح ! »

ثم مد لافونتين يده بالكيس الى أمين صندوق الجماعة فتناوله هذا منه ،

وأعقبه الآخرون فأخذ كل منهم يقدم ما اكتتب به ، حتى اذا جاء دور لوريه وأخذ الحاضرون يعدون المائة وخمسين جنيها التي قدمها ، دخل الوزير دون أن يشعر به أحد ، وكان قد سمع كل ما دار من حديث . فوقف ذلك الرجل الذى امتلك ملايين الجنيهات ، ونعم بكل ما فى الحياة من مجد ومتعة ، وأخذ ينظر الى أصحابه والى النقود بعينين اغرورقتا بالدموع ، ثم دنا من كومة النقود الذهبية والفضية الموضوعة على المنضدة ، وراح يعبث بها قائلا :

ــ ان هذه الهبة الضئيلة ستختفى فى أصغر ركن من خزانتى الخاوية ، ولكنها ملأت قلبى حتى فاض بها ! . شكرا لكم يا أصدقائى . شكرا جزيلا!

ولما لم يستطع أن يعانق جميع الحاضرين ــ وكانوا برغم فلسفتهم لم يتمالكوا أنفسهم من البكاء ــ عانق لافونتين وقال له :

ــ يا صديقى المسكين ! . اذن لقد ضربتك زوجتك بسببى !

فقال الشاعر : « هذا شيء يسير ! . لو أن دائنيك يصبرون سنتين اثنتين، لكتبت مائة قصيدة ، ولكان ثمن طبعتين منها يفى بكل الدين ! »

وعلى أثر ذلك مد المسيو فوكيه يده الى المسيو لافونتين وصافحه قائلا :

ــ يا عزيزى الشاعر .. فلتكتب مائة قصيدة أو أكثر ، لا من أجل المال الذى نفيده منها ، بل لتزيد فى ثروتنا الادبية بروائعك التى لا تقوم بمال!

فقال لافونتين موجها كلامه الى الجميع : « لعلكم تحسبون يا سادة انى لم آت الا بتلك الفكرة البسيطة ذات الثمن الزهيد ؟ »

فتضاحك الحاضرون وصاح بعضهم قائلين :

ــ حقا ! ان المسيو لافونتين لفى أوجه اليوم !

وقال المسيو فوكيه بلهجة ملؤها السرور :

ــ ليبارك الله أفكارك يا عزيزى لافونتين ! لعلها جاءت بمليون فرنك أو مليونين !

فقال لافونتين جادا : « هذا ما أعنيه تماما ! »

وصاح به الجميع قائلين : « قل لنا ، قل لنا ! »

وهمس بليسون فى أذنه قائلا :

ــ انك حتى الآن قد أصبت نجاحا كبيرا ، فلا تغال حتى لا تفشل !

فأجابه بصوت سمعه الجميع : «كلا يا مسيو بليسون ! .. ان الأمر ليس فيه أية مغالاة ، وأنا على يقين من أنك ، وأنت المشهود لك بدقة الحس وسلامة الذوق ، ستقر كل ما صنعت ! »

وقال له جورفيل : « لا تنس قبل كل شيء اننا نتكلم عن ملايين من الفرنكات ! »

فأشار لافونتين الى صدره قائلا : « معى هنا يا مسيو جورفيل مليون ونصف مليون فرنك ! »

وهنا صاح لوريه قائلا : « أى هراء هذا ! .. بل أى جنون ! .. فليذهب الشيطان بهذا الجاسكونى الذى جاءنا من شاتو ــ تييرى ! »

وضحك الحاضرون بينما قال فوكيه للافونتين : «كان ينبغى لك يا عزيزى أن تشير الى العقل الكبير الذى فى رأسك بدلا من الاشارة الى جيبك ! »

فقال له لافونتين : « انتظر هنيهة يا جناب الوزير . لا تنس أنك شاعر أكثر منك نائبا عاما ! »

فانطلقت صيحات الموافقة من كوزيه وكونراد وكل الأدباء من الحاضرين. وواصل لافونتين كلامه فقال :

ــ أجل يا جناب الوزير .. انك شاعر ورسام ومثال وصديق للأدب والفنون . ولم تخلق لتكون محاميا !

فقال المسيو فوكيه وهو يبتسم : « اننى أعترف بذلك »

واستطرد لافونتين قائلا : « واذا عينت عضوا بالاكاديمية فأحسبك ترفض ! »

فقال الوزير : «نعم أحسبنى أرفض ذلك مع احترامى لرجال الاكاديمية!»

ومضى لافونتين فقال : « حسنا .. اذا كنت لا تحب أن تكون عضوا فى الاكاديمية فكيف تسمح لنفسك بأن تكون عضوا فى البرلمان ؟ »

وهنا قال بليسون : « أوه ! . انه يتكلم فى السياسة ! »

ولكن لافونتين استمر فى حديثه قائلا : « أريد أن أعرف : هل رداء المحامى يوائم المسيو فوكيه أم لا ؟ »

فقال المسيو بليسون وقد ضايقه ضحك الحاضرين : « المسألة ليست مسألة رداء »

وقال المسيو لوريه : « ولم لا ؟ .. بل الحق أنها ليست الا مسألة رداء !»

وقال كونراد : « فلندع الرداء جانبا ، وبذلك لا يبقى الا المسيو فوكيه الذى لا نجد سببا للشكوى منه .. ولكنكم توافقوننى طبعا على أنه لا يوجد نائب عام بغير ردائه . ولهذا أرى مع المسيو لافونتين أن ذلك الرداء ليس الا شيئا وهميا مخيفا ! »

فقال بليسون : « على أى حال ، نحن جميعا نعلم أن الارانب لا يسعها الا الفرار حين ترى المسيو فوكيه ! »

فضحك الجميع وقال له كونراد : « ولماذا خصصت الارانب بالذكر ؟ »

فقال بليسون : « لأن الارانب هى التى لا يسرها أن ترى المسيو فوكيه تحيط به كل المزايا المستمدة من مركزه فى البرلمان ! »

ثم قال جورفيل : «أحسب أن الرداء الذى تتحدثون عنه ليس سوى شيء حسن ، ولكنى أحسب أيضا أن مليونا ونصف مليون من الفرنكات هى شيء أحسن ! »

فقال المسيو فوكيه : « أنا أوافق المسيو جورفيل على ذلك ! »

فتمتم بليسون قائلا : « مليون ونصف !٠ ان هناك قصة هندية قديمة أحسبكم تعرفونها ٠ كانت هنـاك سلحفاة لها غطاء تحتمى به كلما هددها عدو ٠ وفى ذات صيف قال لها صديق : (ان هــذا الغشاء يزيدك شعورا بشدة الحر ، ويحول دون ابداء محاسنك ٠ وهنا ثعبان على استعداد لان يشترى غطاءك بمليون ونصف مليون) ٠ وهكذا باعت السلحفاة غطاءها وبقيت متجردة بلا شئ يقيها ، ثم اتفق أن رآها نسر جارح جائع فالتهمها لقمة سائغة٠٠ومن هنا ترون أن المسيو فوكيه لا ينبغى له أن يبيع رداءه !»

فقال المسيو فوكيه : « لو أن السلحفاة لم تبع غطاءها ، لاستطاع النسر الجارح أن يلتهمها أيضا !٠٠ وعلى هذا أحسبها كانت موفقة اذ حصلت على مليون ونصف مليون فرنك ثمنا لذلك الغطاء ، فمن لى بمن يشترى غطائى بمثل ذلك الثمن ؟! »

فقال لافونتين : « لقد وجدت الثعبان الذى يشتريه ! »

فسأله المسيو فوكيه باهتمام : « أتعنى أنك وجــدت مشتريا لمنصب النائب العام الذى أشغله ؟ »

فأومأ برأسه موافقا وقال : « أجل يا سيدى ! »

فقال بليشون : « ولكن الوزير لم يقل قط أنه يريد البيع »

فقال كونراد : « عفوا يا عزيزى !٠ انك أنت الذى تحدثت بذلك ! »

وقال جورفيل : « وأنا شاهد عليه ! »

فقال فوكيه ضـــاحكا : « يلوح لى انه مصر على فكرته الرائعة ، حسنا يا لافونتين ٠ من ذلك المشترى الذى وجدته ؟ »

فقال لافونتين : « انه ثعبان أسود كبير ، يعمـــل مستشارا بالبرلمان ، واسمه ٠٠ فانيل ! »

فقال فوكيه . « فانيل ، زوج ٠٠٠٠ »

فقطع كلامه قائلا : « أجل يا سيدى ! زوجها ! »

وقال جورفيل : « ان فانيل يريد أن يقتفى كل خطواتك يا مسيو فوكيه، وأن يفعل كل ما فعلته ! »

فقال الوزير : « هذا مما يســاعد فى اتمام الصفقة ٠٠ لكن كيف عرفت ذلك يا عزيزى لافونتين ؟ »

قال : « الأمر بسيط ، منذ وقت وجيز لقيته عرضا وأنا أسير فى ميدان الباستيل اذكنت أهم بركوب العربة الصغيرة الموصلة الى سانت ــ مانديه»

فقطع لوريه كلامه قائلا : « لابد أنه كان يراقب زوجته ! »

فقال فوكيه : « كلا ٠٠ كلا !٠ انه أبعد الناس عن الغيرة »

واستطرد لافونتين فقال : « وجاء الى وصافحنى ، ثم أخـــذنى الى حانة

تسمى (ليماج سان ــ فياكر) وأخـــذ يبثنى همومه ٠ وهكذا ترون أن الرجل له هموم !٠٠ثم علمت منه أن زوجته تريد منه أن يكون طموحا !٠٠ وأن حديثا نمى اليه عن منصب فى البرلمان يمكنه أن يشـتريه ، وذكر له اسم المسيو فوكيه لهذه المناسبة ، ومنــذ ذلك الحين لا تحلم زوجته بشيء سوى أن تسمى (قرينة النائب العام) ٠ بل ان التفكير فى ذلك يؤرقها !»

فصاح لوريه : « يا للشيطان ! »

وقال المسيو فوكيه : « يا للمرأة المسكينة ! »

ثم واصل لافونتين حديثه فقال : « ان كونراد لا يفتأ يتهمنى بأنى لا أدرى شيئا فى عالم الاعمال ٠ وسترون كيف عالجت هذه المسألة !٠٠ لقد قلت لفانيل : (أنت تعلم ولا شك أن المنصب الذى يشغله المســيو فوكيه فى البرلمان ذو قيمة طائلة ، وقد علمت أنا أنه رفض مليونا وســـبعمائة ألف فرنك ثمنا له) ٠ فقال : (لقد قدرته زوجتى بمليون واربعمائةألف فرنك)٠ فسألته : (وهل يكون الدفع فورا ؟) ٠ فأجاب : (نعم ان زوجتى باعت بعض أملاك لها فى جيين وتسلمت ثمنها) ٠٠»

وهنا تكلم الأب فوكيه فقال : « هذا ثمن لا بأس به اذا دفع فورا !٠ »

وتمتم المسيو فوكيه قائلا : « مسكينة مدام فانيل ! »

وهز بليسون كتفيه وهمس فى أذن المسيو فوكيه قائلا : «انها شيطانة!»

فرد المسيو فوكيه قائلا : « فليكن !٠ ومما يدعو الى الغبطة أن أنفق مال هذه الشيطانة فى اصلاح ما أفسده ملك من الملائكة ! »

فنظر بليســـون بدهشة الى فوكيه وقد بدا عليه أنه اتجــه بفكره الى موضوع جديد ، ثم قال جورفيل : « ان بعض الناس يطمعون فى الجواد على حين أنهم لا يملكون حتى ثمن البردعة ! »

فقال الأب فوكيه : « نعم !٠ وأحسب أن فانيل سينسحب من الصفقة اذا وجدها جدية ! »

فقال لافونتين : « كلا !٠ لست أعتقد ذلك ٠٠ أنكم لم تسمعوا ختـــام الحكاية : لقد طلب الى فانيل حين علم أنى قادم الى سنان ــ مانديه ، أن آخذه معى ، لأقدمه الى المسيو فوكيه ٠ وعــلى ذلك تركته فى (بل ــ اير) على مقربة من هنا ٠ فما رأيك يا مسيو فوكيه ؟ »

فأجاب المسيو فوكيه قائلا : « ليس من الاحـــترام الواجب نحو مدام فانيل أن نعرض زوجها للاصـــابة بالبرد فى خارج بيتى ٠ ابعث اليــه يا لافونتين ما دمت تعرف أين هو ! »

فقال : « سأذهب بنفسى لآتى به »

وقال له الأب فوكيه : « سأصحبك فانى أقدر أن أحمل أكياس المال !»

فقال المسيو فوكيه بلهجة جادة : « لا تمزحوا !٠٠ ما دام الأمر جـــدا فدعوه هكذا حتى يتم ٠ ولنكن أولا كرماء نحو ضيفنا القادم ٠ اعتذر عنى

يا لافونتين اليه وعبر له عن أسفى اذ تركته ينتظر دون أن أعلم ! »

وبعد ربع ساعة قدم المسيو فانيل الى غرفة مكتب المسيو فوكيه . فما كاد هذا يراه حتى نادى بليسون ، وهمس فى أذنه قائلا : « أصغ جيدا لما أقوله .. دع كل الآنية الذهبية والفضية والجواهر من كل نوع تعبأ وتحمل الى العربة ، وخذ الجياد السوداء ، وسيصحبك تاجر الجواهر ، وأرجىء العشاء حتى تأتى مدام بلير ! »

فسأله بليسون : « أأخبر مدام بلير بذلك ؟ »

فقال له : « كلا ! . هيا اذهب يا صديقى العزيز »

وخرج بليسون دون أن يتبين غرض صديقه وان كان واثقا من سلامة تصرفه . بينما انحنى فانيل للوزير وهم بأن يلقى خطابا ولكن المسيو فوكيه قال له بلطف :

— لا تتعب نفسك يا سيدى . لقد قيل لى انك تريد شراء المنصب الذى أشغله ، كم من المال تدفع فى مقابله ؟

— انك أنت يا صاحب الفخامة الذى تحدد المبلغ الذى تريده . انى أعلم أنه عرض عليك شراؤه

— علمت أن مدام فانيل تقدره بمليون وأربعمائة ألف ، أليس كذلك ؟

— نعم ، وهذا كل ما نملك !

— أيمكنك أن تدفع لى المبلغ فورا ؟

فعجب فانيل من بساطة هذا الرجل التى بلغت حد العظمة ، وقد كان يتوقع خلافا وعقبات واعتراضا من كل نوع . وقال : « لم أحضر المبلغ معى ! »

فقال له فوكيه : « متى تستطيع احضاره ؟ »

قال : « فى أى وقت تشاء يا صاحب الفخامة ! »

— لولا أن يشق عليك الرجوع الى باريس لقلت لك أنى أريد المبلغ فورا . ولكن لا بأس .. فليكن الدفع والتوقيع على العقد صباح غد !

وشعر فانيل بالدم يصعد الى رأسه اذ أربكه نجاحه السهل فى هذه المهمة وأحس رعدة تسرى فى أوصاله ، ثم مد يده اليه فصافحه فوكيه قائلا : « الى اللقاء ! »

واندفع فانيل بعدئذ مسرعا الى الباب ، وانصرف لا يلوى على شىء !

جواهر مدام دى بلير

لم يكد فوكيه يصرف فانيل حتى أخذ يفكر فى الأمر ، ويحدث نفسه قائلا : « انه لقليل حقا كل ما يفعله الانسان فى سبيل امرأة نعم زمانا بحبها !. وما دامت مرجريت يسرها أن تكون زوجة نائب عام ، فلماذا لا أمنحها هذه المسرة ؟.. ولكن أين هى الآن تلك المرأة الاخرى التى أبدت لى غاية الاخلاص والوفاء ؟. لقد كان يجب أن تكون مدام دى بلير هنا فى هذه الساعة ! »

ثم التفت الى الباب السرى فى الغرفة الخاصة التى خلا فيها الى نفسه ، فى بيته ، وفتح ذلك الباب فبدا خلفه ممر تحت الارض يؤدى الى الدار التى تسكنها مدام دى بلير فى شارع فنسين . وكانت فى يده رسالة مطوية فوضعها تحت الباب الآخر فى أقصى الممر ، ثم عاد الى غرفة مكتبه ينتظر ما يكون

ولم تمض الا دقائق معدودات حتى تسلمت مدام دى بلير تلك الرسالة فاذا هو يقول لها فيها : « تعالى يا مركيزة ، اننا أرجأنا العشاء حتى تحضرى ! » . وما هى الا دقائق أخر حتى وقفت بها عربتها عند مدخل داره حيث كان جورفيل هناك فى انتظار وصولها واستقبالها . ولم تلحظ أن عربة فوكيه بجيادها السوداء وصلت فى الوقت نفسه عائدة الى هناك وبها بليسون وتاجر الجواهر نفسه الذى باعته جواهرها وتحفها من قبل

وأدخل بليسون تاجر الجواهر غرفة مكتب فوكيه، فاستقبله هذا مرحبا، شاكرا له أنه أبقى تلك الجواهر والتحف وديعة عنده ، على حين كان له كل الحق فى بيعها لو شاء. ثم ألقى نظرة على الحساب الذى قدمه له التاجر فاذا به مليون وثلاثمائة ألف فرنك ، وسرعان ما جلس الى مكتبه وكتب أمرا بصرف مليون وأربعمائة ألف فرنك للتاجر ، على أن تدفع له فى خزانته قبل الساعة الثانية عشرة ظهر غد ، وما كاد يتسلم الأمر من الوزير ويطلع على ما تضمنه حتى صاح متعجبا !

— معنى هذا أنى أربح مائة ألف فرنك ، حقا يا سيدى ما أكرمك !

فربت فوكيه كتف التاجر متلطفا وقال :

— ان من المروءة أيها السيد ما لا يمكن أن يجزى حق الجزاء . ولا شك فى أن هذا الربح الذى تنوه به ، كان فى استطاعتك أن تحصل عليه لو

انك بعت تلك الجواهر والتحف . وعلى هذا يجب أن تحصل على مكافأة خاصة

ثم فك من كمه زرا من الماس وقدمه للتاجر قائلا :

ـ هذا تذكار مني !

وغلب التأثر على التاجر اذ قدر قيمة هذا الزر بما لا يقل عن ألفى فرنك، ثم قال لفوكيه وهو يصافحه مودعا :

ـ أنت يا سيدى أنبل رجل عاش على ظهر الارض !

وما كاد تاجر الجواهر ينصرف ، حتى سارع فوكيه الى استقبال مدام دى بلير ، وكانت قد أحاط بها المدعوون ، ووقفت بينهم باهرة الجمال والفتنة كعادتها ، بل كانت فى تلك الساعة أجمل وأروع فى عينى فوكيه منها فى أى يوم مضى ، ولهذا لم يسعه الا أن يهتف بجماعة الضيوف وهو يشير اليها قائلا :

ـ ألا ترون يا سادة ان المركيزة تبدو فى هذه الليلة وقد ازدادت جمالا على جمال ؟

فقال أحد الحاضرين : « ان المركيزة ولا شك أجمل النساء قاطبة ! »

فقال فوكيه : « وهى كذلك خيرهن بلا استثناء !.. ومع هذا .... »

فقطعت المركيزة كلامه وقالت له وهى تبتسم : « أهناك استثناء تذكرته الآن ؟! »

فقال : « كلا !. بل أردت أن أقول .. ان جميع الحلى والجواهر التى تحملها المركيزة الجميلة الرائعة الليلة ليست الا من النوع الزائف ! »

فاحمر وجهها خجلا ، وصاح بعض الضيوف قائلين :

ـ أوه.أوه !. لا يمكن أن يقال هذا عن السيدة التى تملك أنفس الجواهر والحلى فى باريس !

وهنا قال فوكيه لبليسون بصوت منخفض : « أرأيت ؟ »

فقال له بليسون : « لقد فهمت قصدك أخيرا ، وقد أحسنت التصرف! »

ثم جاء رئيس الخدم وقال لفوكيه : « لقد تم اعداد المائدة يا صاحب الفخامة »

وسارع الضيوف الى قاعة الطعام حيث واجههم منظر باهر ، ففوق البوفيهات ، وفوق المناضد الجانبية ، بل فوق مائدة الطعام نفسها بين آنية الازهار ،كانت تسطع مجموعة من التحف الذهبية والفضية النفيسة، كلها من صنع فنانى فلورنسا المشاهير لأسرة دى مديتشى العريقة.وكانت هذه التحف الغالية قد أخفيت خلال الحرب الداخلية ثم أظهرت بعدها . وقد حفر على كل قطعة منها الحرفان الأولان من اسم المركيزة !

على أنه كان هناك على المائدة أيضا ما هو أروع وأبدع من هذه التحف

التاريخية الثمينة ، فقد أمر فوكيه بأن توضع أمام المركيزة مباشرة ، مجموعة أخرى من الجواهر النادرة كلها من الماس والزمرد والعقيق ، وقد أبدعت تنسيقها أيدى الفنانين فى آسيا الصغرى ، كماكانت هناك حلى من الذهب بين أساور وخواتم وغيرها

وشحب وجه المركيزة حين فوجئت بهذا المنظر ، فقد عرفت جواهرها وحليها وتحفها من أول نظرة ، وأدهشها أن تجدها أمامها بعد أن باعتها منذ حين !

وساد الصمت فترة بدا الجميع خلالها وقد تملكهم التأثر ثم قال فوكيه :

ـ أيها السادة : ان كل هذه الجواهر والحلى والتحف كانت ملكا لمدام دى بلير ، ولكنها لما وجدت صديقا لها فى ضائقة باعتها كلها الى تاجر الجواهر، ان هذا العمل النبيل من صديقة وفية مخلصة لجدير بأن يقدره رجال أوفياء مثلكم . وما أسعد الرجل الذى تحبه هذه السيدة مثل هذا الحب ، هيا بنا نشرب نخب مدام دى بلير !

فهتف الجميع تحية لها ، على حين قبعت هى فى كرسيها وقد ألجمها التأثر . ثم قال المسيو بليسون :

ـ لنشرب أيضا نخب الرجل الذى ألهم مدام دى بلير هذا المسلك النبيل، لأن هذا الرجل يستحق أن يحب مثل هذا الحب !

وجاء دور المركيزة فوقفت شاحبة الوجه وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة باهتة ، ثم أمسكت كأسها ورفعتها ، فلمست أصابعها أصابع فوكيه وتلاقت نظرتها المفعمة حبا بنظرة عاشقها الولهان !

واستمر العشاء الذى بدأ هكذا وكأنه وليمة عرس أو عيد ، وكان الجميع فى أوج سرورهم ، يقولون النكات عفوا ودون اجهاد فكر . ونسى لافونتين نبيذ جوزى الذى يؤثره ، وترك فانيل يسقيه من نبيذ الرون . وبلغ من رقة الأب فوكيه ووداعته أن قال له جورفيل : « حذار أيها الأب لا تكن كثير الرقة هكذا حتى لا تؤكل ! »

ومضت الساعات فى حبور حتى ان الوزير ، على غير عادته ، لم يغادر المائدة قبل تناول الحلوى . وكان يبتسم لأصدقائه وقد انتشى قلبه بفرط سروره قبل أن ينتشى رأسه بما شرب من خمر !. وفجأة سمع الحاضرون صوت عربة فى فناء الدار ، ومن عجب أن صوتها كان واضحا برغم الضجة السائدة . فأصغى فوكيه بانتباه ، ثم أخذ ينظر الى الردهة . وخيل اليه أنه يسمع وقع خطى ، وأن هذه الخطى كأنما تقع على قلبه . وسرعان ما جاء الحاجب يقول : « السيد دربلاى أسقف فان » . ثم بدا أراميس بالباب بوجهه الجاد ونظرته الصارمة ، فكاد فوكيه يهتف مهللا برؤية هذا الصديق الآخر الذى وصل الى بيته ، ولكن أراميس لم يتح له فرصة لذلك ، اذ بقى واقفا بالباب ، وفى نظراته اليه ما يوحى بأن لديه ما يجب أن يتحدث فيه معه على حدة !

وقال له فوكيه : « ماذا وقوفك يا اراميس ؟• ألا تتناول معنا الحلوى ؟• أم أنت لا يروقك مثل هذا الصخب الذى نحن فيه ؟ »

فقال له اراميس باحترام : « يا صاحب الفخامة • انى أعتذر اذ كدرت صفو اجتماعكم السار ، وأرجو أن تمنحنى دقائق نتحدث خلالها على حدة فى شأن بعض الاعمال ! »

استرعت كلمة (الاعمال) انتباه (الأبيقوريين) الحاضرين ، ثم نهض فوكيه وهو يقول للأسقف :

ــ الاعمال قبل كل شىء يا مسيو دربلاى • ان مما يسعدنا ألا تأتى الاعمال فى ختام الوليمة !

ثم أمسك يد مدام بليير وقادها الى غرفة مجاورة لغرفة المائدة وهى تنظر اليه بقلق ، وتركها هناك مع أعقل أصحابه •• ثم تأبط ذراع أراميس وقاده الى غرفة المكتب • وما كاد اراميس يدخل هذه الغرفة حتى ترك سمت الاحترام وجلس على كرسى وقال له :

ــ أتدرى من الذى قابلته هذا المساء ؟

فقال : « يا فارسى العزيز : انك كلما بدأت الحديث على هذا النحو أيقنت أنا بأنى سأسمع أنباء لا تسر ! »

فقال اراميس : « لكنك على خطأ فى هذه المرة يا صديقى العزيز ! »

فقال فوكيه : « هذا ما أرجوه ، والآن دع عنك التشويق والمقدمات ولندخل فى الموضوع ! »

فقال اراميس : « حسنا !• لقد قابلت مدام دى شيفريز ! »

ــ أتعنى الدوقة العجوز ؟• ربما تكون قد قابلت شبحها ؟!

ــ كلا !• بل التى قابلتها هى تلك الذئبة بعينها وأنيابها ومخالبها !

ــ حسنا !• أى أذى لى وجدتها تفكر فيه ؟

ــ انها تريد أن تحصل منك على بعض المال !

ــ وبأية حجة يا ترى ؟

ــ انها لا تعوزها الحجج قط !• ويبدو أن لديها خطابات من المسيو دى مازارين !

ــ لا يدهشنى ذلك فان ذلك القس كان ذا مغامرات !

ــ أجل ولكن هذه الخطابات لا علاقة لها مطلقا بغرامياته • بل هى خاصة بمسائل مالية !

فقال فوكيه : « هذا يجعلها أقل تسلية ! »

وهنا سأله اراميس : « ألم تدرك بعد ما أرمى اليه ؟ » • فلما أجاب بالنفى ، عاد صديقه الأسقف فسأله :

ــ ألم تسمع قط برفع دعوى لاختلاس أموال من خزانة الدولة ؟

فأجاب فوكيه : « أجل !• سمعت بمثل ذلك مئات المرات بل آلافها • بل أنا منذ شغلت بالامور العامة لا أكاد أسمع غير ذلك • ان المسألة غاية فى البساطة ، فكما يتهمك الناس بالفجور وأنت أسقف ، أو كما يتهمونك بالجبن وأنت فارس ، كذلك هم يتهمون بالاختلاس كل وزراء المالية »

فقال اراميس : « انك لم تعلم بعد أن الدوقة تؤكد أن المسيو مازارين أشار فى خطاباته الى مسائل معينة،فهو مثلا قد ذكر مبلغ ثلاثة عشر مليون فرنك ربما يصعب تحديد الوجه الذى أنفقت فيه ! »

فردد فوكيه : « ثلاثة عشر مليونا ؟! » ، ثم استلقى فى كرسيه وأخذ يفكر لعله يتذكر قصة هذا المبلغ ، ثم عاد يقول :

ــ ثلاثة عشر مليونا ؟!• انى أحاول أن أتذكر هذا المبلغ ضمن المبالغ التى اتهمت باختلاسها !

فقال اراميس : « لا تسخر يا سيدى العزيز ، فان الأمر جد •• ان الدوقة تمتلك بضعة خطابات لها خطرها ولا شك • فقد أرادت أن تبيعنى اياها لقاء خمسمائة ألف فرنك ! »

وهنا أخذ فوكيه يضحك من كل قلبه ، ثم قال : « انها تغالى كثيرا فى تقدير قيمة فريتها !• والآن فقط أدركت ماذا تعنيه تلك الذئبة • فهذه الثلاثة عشر مليون فرنك كان المرحوم الكاردينال مازارين قد ربحها من بيع أراض فى (الفالتلين) لكنه حذفها من سجل الايرادات وأرسلها الى لأودعها باسمى ، ثم جعلنى أقدمها له لنفقات الحرب ، وأعطانى ايصالا بذلك ! »

فاطمأن اراميس وقال : « حسنا !• اذن لم يبق شك فى وجه انفاقها ، وحبذا لو كان لديك ذلك الايصال »

ونهض فوكيه فى هدوء ، ثم مشى خطوات حتى بلغ مكتبا من الآبنوس مرصعا باللؤلؤ والذهب • ثم قال لأراميس :

ــ اننى أحب النظام فى كل شىء ، ولهذا لا أتعب فى البحث عن شىء • وفى استطاعتى مثلا أن أؤكد لك أن ايصال مازارين محفوظ بالدرج الثالث من هذا المكتب تحت حرف (م) • وما على الا أن أفتح الدرج فأضع يدى على الورقة التى أريدها !

ومد يده مطمئنا وتحسس رزمة من الورق مكدسة فى الدرج الذى فتحه ثم استطرد يقول : «أكثر من ذلك انى أتذكر تلك الورقة كما لوكنت أراها الآن • انها سميكة ذات أطراف ذهبية وقد سقطت من قلم مازارين بقعة حبر على رقم التاريخ ! »

ومضى الوزير يبحث فى الدرج ، ثم قال فجأة : « هذا أمر عجيب !• يخيل لى أن تلك الورقة تعرف أننا نتحدث عنها ونريدها ، ولهذا تتدلل علينا ! »

فقال اراميس : « ربما تكون ذاكرتك قد خانتك هـذه المرة ، انظر فى درج آخر ! »

وتناول فوكيه رزمة من الورق وأخـذ يقلبها ثم شحب وجهه ، فقال له اراميس : « لا تقصر بحثك على هذا الدرج بل انظر فى الادراج الاخرى »

فقال : « لا فائدة من ذلك !٠ اننى على يقين من أنها كانت هنا ٠ ولا أحد سواى يرتب المستندات التى من هذا القبيل ٠ ولا أحد غيرى يفتح هـــذا الدرج وأنا وحدى الذى أعرف هذا السر »

فقال أراميس وهو بادى القلق : « ماذا تستنتج اذن ؟ »

قال : «ان ايصال مازارين قد سرق منى٠وهكذا تبدو مدام دى شيفريز على حق يا عزيزى !٠ فما دام ذلك الايصـــال غير موجود ، فكيف أدفع عن نفسى تهمة اختلاس الثلاثة عشر مليون فرنك من خزانة الدولة ؟٠٠ اننى الآن لص محتال يا عزيزى ! »

فقال له اراميس : « كلا ٠٠ كلا !٠ لا تثر أعصابك هكذا ، فليس ثمة ما يبرر ذلك »

قال : « بل هناك كل مبرر !٠ ومن السهل أن تتخذ الاجراءات القانونية معى ، ثم يصدر الحكم بادانتى ، وهكذا يزج بصديقك الوزير فى السجن كما حدث لسمبلانساى ومارينى ! »

فابتسم اراميس وقال : « ليس بهذه السرعة ! »

فسأله فوكيه : « ولم لا ؟٠ لم لا يجرى الأمر أسرع من ذلك ؟٠٠ وماذا تحسب مدام‌شيفريز قد فعلت بتلك‌الخطابات بعد أن رفضت‌أنت شراءها؟!»

فقال : « أحسبها ذهبت الى المسيو كولبير ، بل أنا متأكد من ذلك ، لانى تبعتها فرأيتها بعد أن دخلت بيتها سرعان ما غادرته من باب خلفى وذهبت مباشرة الى منزل وكيل المالية ! »

فتمتم الوزير قائلا : «اذن ستتخذ الاجراءات‌القانونية‌ضدى ، وستتبعها الفضيحة والعار ٠٠ وستنزل بى الصاعقة دون رحمة ! »

وكان يقول ذلك وهو قابع فى مقعده يرتعد ، على مقـــربة من الادراج المفتوحة ٠ فدنا منه اراميس ووضع يده على كتفه وقال له بلهجة عطف :

ـ لا تنس أن مركز المسيو فوكيه لا يمكن أن يقارن بمركز سمبلانساى أو مارينى ٠ أعنى أن جميع الاجراءات القانونية فى مثل هذه الحالة لابد أن تبدأ فى البرلمان ، من جانب النائب العام ، وأنت النائب العام !

فصاح فوكيه صيحة ألم وضرب المنضدة بقبضة يده ثم قال : « انى لم أعد النائب العام ! »

ثم قص على اراميس موجزا لما حـدث من مدام بلبير اذ باعت جواهرها وتحفها وكيف رأى أن يرجع اليها هـذه الجواهر والتحف ٠ فكاد اراميس يصعق لهذه المفاجأة لكنه تمالك نفسه وقال له :



« وضرب الوزير المنضدة بقبضة يده ، ثم قال : إنى لم أعد النائب العام ! »

— حقا ٠ هذا مسلك نبيل ٠ ولكن كم كلفك ذلك ؟

— كلفنى المليون والاربعمائة ألف فرنك ، ثمن المنصب !

فقال اراميس : « لاتزال أمامنا وسيلة واحدة آمل ألا ترفض استخدامها»

— لن أرفضها اذا كانت وسيلة شريفة !

— انى أعنى رجوع المشترى فى صفقته ٠ من هو ذلك الرجل ؟

— انه مستشار فى البرلمان ، اسمه فانيل !

فتغير لون وجهه اذ سمع ذلك الاسم وقال : « فانيل زوج مرجريت ٠٠ خليلتك السابقة ؟ »

فقال فوكيه : « أجل يا عزيزى !٠ انها تتوق لان تصبح زوجة النائب العام ، وهكذا ترى أنى مدين لفانيل المسكين بهذه الفرصة التى أتاحها لى كى أحقق هذا الأمل لزوجته ! »

فدنا اراميس من فوكيه وقال له : « أتعرف من هو عشيق مدام فانيل الجديد ؟ »

فقال متعجبا : « ألها عشيق جديد ؟٠ لم أكن أعلم ذلك ! »

قال : « ان اسمه (جان بابست كولبير) ٠٠ وهو وكيل المالية ٠ وقد زارته اليوم مدام دى شيفريز فى منزله بشارع كرواديه بتى شان ، لتساومه على شراء خطابات مازارين منها ! »

ومر فوكيه بيده على جبينه وقال : « رباه ! »

فسأله أراميس : « ها أنت ذا بدأت تدرك الأمر ٠٠ فهل لا تزال مصرا على التوقيع على العقد ؟! »

فأجابه فوكيه قائلا : « نعم ، بدأت أدرك أننى ضائع لا محالة !٠ ولكنى مع هذا لا أجد بدا من المحافظة على كلمتى ! »

فتمتم أراميس قائلا : « ان الناس الذين جبلوا على العناد يعالجون الأمور بشكل لا يسعنا معه الا أن نعجب بهم ! »

وفى هذه اللحظة دقت ساعة الحائط الموشاة بالصدف والمحمولة على عمد من الذهب ، ست دقات ، وسمع فى اللحظة نفسها صوت باب يفتح فى الردهة ، وجاء جورفيل يستأذن للمسيو فانيل فى الدخول ، فأدار فوكيه وجهه كيلا يلتقى نظره مع نظر أراميس ، ثم أذن فى دخول فانيل

صفقة لحساب الشيطان !

عجب فانيل لوجود أسقف فان فى غرفة مكتب فوكيه ، لكنه لم يزد على نظرة الدهشة والتساؤل التى وجهها اليه حين دخوله الغرفة ٠ أما فوكيه السياسى الكامل المسيطر على أعصابه فلم يبد على ملامح وجهه شىء من أثر السر الذى كشفه له أراميس منذ لحظة ، وهكذا لم يعد الرجل البادى الشقاء كما كان قبل فترة وجيزة ، بل بدا كعادته مرفوع الرأس بادى الشمم والكبرياء

وكان أراميس يعرف فوكيه حق المعرفة فلم يدهشه ذلك منه ، وقصر مهمته على السماع والاصغاء ، على أن يشترك فى الحديث فيما بعد حين يصل الى طور يتطلب تدخله

وبدا على فانيل أنه غلب على أمره ، ودخل الى وسط الغرفة وانحنى لكل من فيها ثم قال : « ها أنذا قد جئت يا سيدى »

فقال له فوكيه : « إنك محافظ على مواعيدك يا مسيو فانيل ! »

فقال فانيل : « اننى يا صاحب الفخامة أعد المواظبة فى شئون الاعمال أهم أسس النجاح ! »

وأومأ فوكيه برأسه موافقا ، وتمتم قائلا : « نعم ، بلا شك ! » ٠ بينما أشار أراميس بسبابته الى فانيل ، ثم قال موجها الكلام الى فوكيه :

— معذرة !٠ هذا السيد كما أظن قد جاء فى شأن منصبك ؟

فدهش فانيل من لهجة التعالى التى اتخذها أراميس نحوه وقال له : « أجل اننى هو ! »

وقال لهما فوكيه : « هيا أيها السيدان ، ليس لدينا متسع من الوقت لغير بحث الأمر الذى نعنيه ! »

فقال له فانيل : « اننى يا صاحب الفخامة فى انتظار ما تراه »

فقال فوكيه : « بل أنا الذى أنتظر ما تقوله »

فقال فانيل يحدث نفسه : «لقد فكر فى الموضوع ولا أخالنى الا ضائعا!»٠ ثم استرد شجاعته وقال لفوكيه : « ليس لدى ما أقوله يا صاحب الفخامة بعد الذى قلته أمس ، وأنا مستعد لتكراره الآن ! »

فقال له فوكيه : « خبرنى يا مسيو فانيل بصراحة ٠٠ أليس فى هذا الأمر عبء ثقيل عليك ؟ »

فقال على الفور : « بالتأكيد يا صاحب الفخامة ، فان مليـونا وأربعمائة ألف فرنك ليست بالمبلغ الزهيد ! »

فقال فوكيه . « بل هي مبلغ ضخم حتى انى فكرت فى أنك ربما تكون فى موقف لا يمكنك من الشراء !٠ من أجل هذا لن ألومك على خلف وعدك ما دام ناشئا من عدم القدرة على الوفاء من جانبك ! »

ـ كلا يا صاحب الفخامة ، بل انك ستلومني وسـتكون على حق فى لومى ٠ لأن الانسان يكون اما قليل التبصر واما فاقد العقل اذا أخـذ على عاتقه عهدا لا يستطيع الوفاء به !

فاحمر وجه فوكيه ، وبدا أراميس نافد الصبر ٠ ثم عاد الوزير يقول :

ـ انك تخطىء اذا بالغت فى تقدير مثل هـذه الأوهام ، ذلك لأن فكر الانسان قابل للتغير ومملوء بالأهواء التى يوجد ما يبررها ٠ وقـد يرغب الانسان فى شيء أمس ثم يصدف عنه اليوم !

فشعر فانيل بالعرق البارد يتصبب من جبينه وتمتم قائلا : « يا صاحب الفخامة ! » ٠ وسر أراميس أن رأى الوزير يدير المناقشة بمهارة ٠ وكان واقفا مسندا ذراعه الى منضدة ويده تعبث بمدية ذهبيـة صغيرة فوقها ٠ بينما سكت فوكيه هنيهة ثم قال لفانيل : « سأوضح لك موقفى ! »

فتولت فانيل رعشة ، واستطرد فوكيه يقول : « اننى كنت راغبـا فى البيع أمس كما قد تذكر ، بل قد بعت فعلا !٠ ولكنى اليوم أرجو منك أن تسدى الى جميلا فترد الى كلمتى التى ارتبطت بها حيالك ! »

ـ لقد تلقيت كلمتك وأنا موقن أنك ستفى بها !

ـ أعرف ذلك وهذا ما يجعلنى أقدم لك هذا الرجاء !

وسكت فوكيه لان كلمة (الرجاء) التى لم يعتدها كادت تخنق صوته ، وظل أراميس يعبث بالمدية الذهبية الصغيرة وينظر الى فانيل نظرة نافذة يريد بها أن يستشف ما فى ضميره ٠ فلم يزد فانيل على أن انحنى وقال :

ـ لقد قهرنى يا صـاحب الفخامة هـذا الشرف الذى تمنحنى اياه باستشارتى فى أمر قد تم بالفعل ، ولكن ٠٠٠

ـ كلا ، لا تقل « ولكن » يا عزيزى المسيو فانيل

فقال فانيل وهو يفتح حافظة نقود كبيرة :

ـ وا أسفاه يا صاحب الفخامة !٠ لقد أحضرت معى المبلغ كله كما ترى٠ وها هو ذا عقد بيع أرض كانت تملكها زوجتى ٠ وأمر الدفع هـذا بمثابة نقود حاضرة فى الواقع٠وبكلمة واحدة قد تمت الصفقة من جميع الوجوه !

ـ يا عزيزى المسيو فانيل : لا توجد فى العالم مسألة ماليـة لا تحتمل الارجاء مهما تكن أهميتها ، هذا الى أنك بارجاء هذه المسألة تسدى جميلا الى رجل قد يصبح بعد ذلك صديقا مخلصا لك !

فقال فانيل بارتباك : « لا شك فى ذلك » ٠ وعاد فوكيه يقول : « ولا شك فى أن مودة هذا الصديق قد تكون قدكسبت بجدارة ، نتيجة للخدمة التى أديت له ٠٠ والآن ماذا تقول ؟ وماذا قررت ؟ »

فسكت فانيل ولم ينطق ببنت شفة ٠ وفى الوقت نفسه ظل أراميس يرقبه من كثب وقد دلته ملامح وجهه على أنه رجل بخيـل طموح ، وأدرك فى الوقت نفسه أن فوكيه أوشك أن ينهزم أمام جمود فانيل ، فسارع الى نجدته على طريقته الخاصة وقال :

ـ معذرة يا صاحب الفخامة !٠ أراك قد نسيت أن تبين للمسيو فانيلأن مصلحته تتعارض تماما مع عدوله عن الشراء !

فنظر فانيل الى أراميس متعجبا ، اذ كان لا يتوقع أن يجد فيه معينا له وكذلك سكت فوكيه فى انتظار ما يقوله صديقه الاسقف ٠ ثم قال هـذا موجها الخطاب الى فوكيه أيضا :

ـ ألا ترى أن المسيو فانيل قد اضطر فى سبيل شراء منصبك ، الى بيع ملك لزوجته ؟٠ ان ذلك ليس بالأمر اليسير ٠ لان الانسان لا يستطيع أن يبيع ملكا بمليون وخمسمائة ألف فرنك فى يوم أو بعض يوم الا اذا تكبد فى هذه الصفقة خسارة كبيرة فضلا عن المتاعب !

فقال فانيل وقد استلأراميس سره منحنايا صدره : «تماما يا سيدى!»

وواصل أراميسكلامه فقال : « ان أمثال هذه المتاعب تقتضى نفقاتكثيرة وعلى الانسان كلما عالجها أن يوجه تفكيره قبل كل شيء الى تلك النفقات ! »

فبدأ فوكيه يدرك ما يرمى اليه أراميس وقال : « أجل ، أجل ! »

وظل فانيل صامتا اذ كان هو أيضا قد فهم مراد أراميس ، ولحظ هـذا سكوته وجموده فقال محدثا نفسه : « لا بأس !٠انه ينتظر حتى يعرف المبلغ الذى أعرضه ولعله لا يلبث أن يسلم بعد أن يعرفه »

وهنا قال فوكيه مدفوعا بالسخاء الذى جبل عليـه : « يجب أن نمنح المسيو فانيل مائة ألف كرون فى الحال ، بل انى لأشعر بأنه ينبغى لى أن أوقع على أمر بصرف خمسمائة ألف فرنك اليك ، وحتى فىهذه الحالةأشعر بأنى سأبقى مدينا لك ! »

على أن فانيل برغم ذلك لم يبد فى وجهه ما يدل على رغبته فى القبول٠، فنظر أراميس الى فوكيه نظرة يأس ، ثم مضى الى فانيل قدما وأمسكه من سترته وقال له :

ـ يا مسيو فانيل ٠٠ انك فى هـذه اللحظة لا تفكر فى المتـاعب التى تجشمتها ، ولا فى بيع ملك زوجتك ، ولا فى خسارة نجمت من ذلك ، انك تفكر فيما هو أخطر من ذلك ٠ وأنا أقدر هـذا منك حق قدره ، فاصغ الى ما سأقوله لك

ثم نظر اليه نظرة نافذة جعلته يرتعد ومضى فى حـديثه فقال : « انى

أعرض عليك ، باسم الوزير ، لا ثلاثمائة ألف فرنك ، ولا خمسمائة ألف ، بل أعرض مليونا !٠ نعم أعرض عليك مليون فرنك ، لكى ترد الى الوزير كلمته !٠ فهل سمعت ؟! »

فقال فانيل وقد شحب وجهه حتى عاد مثل وجوه الموتى : « مليون ؟!»٠ واستمر الاسقف فى حديثه قائلا :

ــ أجل مليون !٠ أى دخل قدره سبعون ألف فرنك فى السنة !

وقال له فوكيه : « أحسب أنه لا يمكنك أن ترفض ذلك يا مسيو فانيل»

وسادت فترة صمت ، قطعها فانيل متمتما بقوله : « هذا محال ! »

فعض أراميس على شفتيه من شدة الغيظ ، ثم التفت الى فانيل وقال له وهو يحدجه بنظرته النافذة :

ــ انك اشتريت المنصب بمليون وخمسمائة ألف فرنك ، أليس كذلك ؟٠ حسنا !٠ سيعاد اليك هذا المبلغ وفوقه مثله ، فما قولك ؟

فقال فانيل بصوت أجش : « لا يمكننى أن أقبل ذلك ! »

وكان أراميس ما زال ممسكا اياه من سترته فتركها فجأة وتراجع بضع خطوات ، ثم قال له :

ــ حسنا !٠ ان غرضك من المجىء الى هنا أصبح واضحا ! هيا ابرز لنا عقد البيع ٠ أحسبك قد جئت به معدا فى جيبك كما يخبىء القاتل مسدسه أو خنجره فى طيات ردائه !

وأراد فانيل أن يقول شيئا فصاح به فوكيه : «كفى !٠٠أين عقد البيع؟»

فبحث فانيل بيد مرتعشة فى جيوبه ، حتى وجد ورقة العقد فمد يده بها الى فوكيه ، فى الوقت الذى سقطت من جيبه ورقة أخرى على الارض ، وسرعان ما انقض عليها أراميس والتقطها ، ثم أبقاها فى يده اذ عرف الخط الذى كتبت به ٠ فمد اليه فانيل يده ليأخذها منه قائلا : « معذرة !٠ ان هذه مسودة لعقد البيع »

ولكن أراميس ابتسم ساخرا وقال له :

ــ انى أرى ذلك بوضوح ٠ والذى يعجبنى منها أنها بخط المسيو كولبير ثم ناول فوكيه الورقة قائلا : « انظر يا صاحب الفخامة ، انظر ! »

وعرف فوكيه كذلك خط كولبير من أول نظرة ٠ وبدا فانيل كالفأر الذى يبحث عن جحر يختبىء فيه ٠ ثم قال أراميس لفوكيه :

ــ لو أنك لم تكن فوكيه ، ولو أن خصمك لم يكن كولبير ، ولو أن هذا اللص الحقير ليس أمامك ، لكنت أنصح لك بأن ترفض هذا العقد ، فان هذا الدليل كاف لأن يحلك من كلمتك ٠ ولكن هؤلاء الاوغاد قد يحسبون أنك تخشاهم ولهذا أقول لك : وقع على هذا العقد دون ابطاء !

ثم ناوله قلما ليوقع به ، فضغط فوكيه يد أراميس ، وبدل أن يوقع على

العقد الذى قدمه له فانيل تناول المسودة التى بخط كولبير ليوقع عليها ، فقال له أراميس : « كلا !٠ لا توقع على هذه الورقة ٠ انها وثيقة أنفس من أن تتركها لأعدائك ! »

فقال فوكيه : « بل سأوقع تحت ما كتبه كولبير ، وسأكتب تحت توقيعى : (مع اعتماد الخط) ٠٠ »

وبعد أن انتهى من ذلك مد يده بالورقة الى فانيل ، فتناولها هذا بيد مرتعشة ، ووضع المبلغ على المنضدة ، ثم هم بالانصراف فقال له أراميس :

ــ مهلا !٠٠ أواثق أنت من أن المبلغ هنا كله ؟٠ يجب أن نعده يا مسيو فانيل ٠ ولاسيما أن المسيو كولبير يهدى المال الى بعض السيدات !٠٠ نعم ان المسيو كولبير ليس سخى اليد مثل المسيو فوكيه !

وأخذ أراميس يقرأ كل كلمة وكل حرف من أمر الدفع ، بينما يصب غضبه وازدراءه بوساطة نظراته وحركاته على رأس فانيل زهاء ربع ساعة٠ ثم صرفه أراميس باشارة من يده وكأنه يصرف خادما أو متسولا !

وبقى الوزير والقس بعد ذلك فترة صامتين وأحدهما ينظر الى الآخر ، ثم قطع أراميس حبل السكوت قائلا :

ــ بماذا يوصف الرجل الذى يهم بالدخول فى قتال مع عدو لدود له مسلح من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، فيبدأ بنزع سلاح نفسه ثم يرخى ذراعيه الى جانبيه ويبتسم لعدوه ويبعث اليه بالقبل على أطراف أصابعه ؟٠ ان حسن النية يا مسيو فوكيه سلاح كثيرا ما يستغله الاوغاد ضد الشرفاء فينيلهم مأربهم منهم ٠ وانى أرى أن الناس ذوى الشرف يجدر بهم أن يستخدموا وسائل غير شريفة مع هؤلاء اللئام ، فبذلك وحده يتقون مكايد أولئك الخصوم ، ويسلم لهم من الأذى شرفهم الرفيع !

فقال له فوكيه فى هدوء : « لا تنس يا عزيزى أن مثل هذا التصرف من أولئك الشرفاء يعد عملا منافيا للشرف ! »

فقال أراميس : « كلا !٠ بل يكون منهم مداعبة للحقيقة ٠ وعلى أى حال ما دمت قد انتهيت مع هذا الفانيل ، وما دمت قد جردت نفسك من مسرة ارباكه برفض التوقيع،وما دمت قد سلمته السلاح الذى يقضى به عليك٠٠٠»

فقطع فوكيه كلامه قائلا : «يا صديقى العزيز : انك مثل مدرس الفلسفة الذى حدثنا عنه لافونتين منذ قليل !٠ فقد رأى طفلا يغرق فوقف يتلو عليه محاضرة ذات ثلاثة فصول ! »

فابتسم أراميس وقال : « أجل يا عزيزى !٠ على أن الطفل يمكن انقاذه كما سترى ٠ ولكن لنتكلم فى الاعمال أولا ٠٠ ألم تحدثنى منذ حين عن رغبتك فى اقامة مهرجان فى مدينة (فو) ٠٠ »

فقال فوكيه : « نعم ، ولكن هذا كان أيام كنا فى رخاء يسمح بذلك ! »

فواصل أراميس كلامه قائلا : « وكان الملك سيحضر هـذا الاحتفال من تلقاء نفسه ، أليس كذلك ؟ »

ـ ان المسيو كولبير هو الذى نصح للملك بأن يحضره !

ـ لأنه عندئذ يكون مهرجانا فادح النفقات بحيث يجر عليك الخراب !

ـ أجل !· لقد كنت فيما مضى أشعر بالغبطة اذ أظهر لاعدائى أن مواردى المالية لا تنفد · بل كنت أشعر بالفخر كلما لحظت ذهولهم لقدرتى على انفاق الملايين فى ظروف يتوقعون لى فيهـا الافلاس والخراب · ولكنى فى الوقت الحاضر أرتب حسابى مع الدولة ، ومع الملك ، ومع نفسى ، فيجب على الآن أن أصبح رجلا شحيحا مقترا·وسأبرهن للعالم على أنى أستطيع أن أتصرف فى دراهمى المعدودة ، كما كنت أفعل بأكياس مملوءة بالجنيهات·ومن الغد ستباع جيادى وسترهن أملاكى وستنكمش نفقاتى !

فقـال أراميس فى هدوء : « بل من الغد تشـغل نفسك دون ابطاء بالاستعداد لاقامة مهرجان (فو) ·· على أن يتحدث به النـاس بحسبانه أبهر ما أقمت من حفلات فى أحسن أوقات رخائك ! »

فابتسم فوكيه ساخرا وقال : « ماذا تقول ؟!·· ان هـذا يكلف عشرة ملايين أو اثنى عشر مليونا ! »

فقال الأسقف : « بل تنفق عشرين مليونا اذا اقتضى الأمر ذلك ! »

فصاح فوكيه قائلا : « لكن أنى لى هذه الملايين ؟ »

فقال أراميس : « هذا شأنى يا سيدى الوزير·ولا تقلق من هذه الناحية، وسيوضع المال تحت تصرفك · انى أخلص لك دون حـد ، ولما كنت أنت أصفى عقلا منى ، فاننى أدع لك الاشراف التـام على المهرجان ، الى أدق تفاصيله · ولكنى أترك لك وضع الخطط ، وأحتفظ لنفسى باشراف عام على التنفيذ ·· أعنى أن تجعلنى فى ذلك اليـوم بمثابة مفتش عام ، أو شيئا بين قائد الحـرس ومدير القصر ، وسأعنى بالمدعـوين وأحتفظ بمفاتيح الابواب · وستصدر أوامرك طبعا ولكنك لن تصدرها الا الى وحدى ، فتمر بين شفتى لتصل الى أولئك الذين يقصدون بها » ·



عاد راءول دى براجلون فجأة من لنـدن وهو فى أشـد حالات الحنق والغضب ، فقد نمى اليه أن هناك خطرا على غرامه ! وما كاد يضع قدمه فى باريس حتى بدا له ذلك الخطر شيئا محققا · على أنه لم يشأ أن يبحث عن الحقيقة كما هو المنتظر من عاشق غيور مثله ، بل انه لم يشأ حتى أن يذهب الى لويز حبيبته نفسها ليسألها : « أصحيح أنك الآن لا تحبيننى ؟ وأنك استبدلت بى حبيبا آخر ؟ » · واكتفى بأن قال لنفسـه : « لقد كتب الى

(دى جيش) يحذرنى · ولا بد أنه وقف على سر خطير ، فلأذهب اليـه وأسأله عما يعرفه »

وكان دى جيش قد جئ به من فونتينبلو الى باريس منذ يومين وقد بدأ جرحه يندمل وسمح له الطبيب بأن يمشى فى غرفته·فلما رأى راءول هتف به مرحبا فرحا ، بينما صاح هذا مندهشا اذ رآه شاحب الوجه نحيل الجسم ظاهر الحزن ، ثم قال له : « هكذا دائما حال الانسـان الذى يحب !· ان الحب مرض لا شفاء منه الا بالموت ! »

فابتسم دى جيش وقال له : « ولكن الانسان لا يموت من الحب !· وليس أدل على هذا من أنى أستطيع أن أعانقك الآن !· وأؤكد لك اننى لست فى تعاسة كما تحسبنى ، بل أنا أسعد انسان فى العالم !· صحيح أن جسمى يتألم ولكن عقلى وقلبى على ما يرام ! »

فقال له راءول : « هذا شئ يسرنى حقا ، لكنى أخشى ألا يدوم ! »

فقال دى جيش : « لا تخش شيئا !· انتهى الأمر ، وان ما نعمت به من السعادة ليكفينى حتى آخر أيام حياتى ! »

قال : « ليس عندى شك فى ذلك ، ولكنها ···· »

فقطع دى جيش كلامه قائلا :« انى أحبها لأنهـا ··· ولكنى أراك غير مصغ الى يا راءول ! »

قال : « معذرة !· لقد سارعت الى هنا قادما من لندن ، وقطعت الرحلة فى نصف الوقت الذى تقطعها فيه عادة عربات السفر !·كذلك لم تخبرنى بعد يا عزيزى بما دعاك الى استقدامى ! »

فقال : « لقد أردت أن تحضر ، وهذا كل ما هناك »

فارتسمت امارات الدهشة على وجه راءول من جديد وقال : « أمن المعقول أن تحطم كل آمالى بهذا العنف ، وأن تجعلنى أتعرض لغضب الملك بعودتى رغم أوامره ؟! »

فقال له دى جيش : « قد لا يكون الأمر مما يدعـو الى كل الاطمئنان ، ولكنى أرجو أن تفهمنى يا راءول ·· انى لن أقول لك أى شئ آخر ! »

فنظر اليه راءول عاتبا وقال : « اذا كنت تعرف شيئا فلماذا تخفيه على؟· واذا لم تكن تعرف شيئا فلماذا كتبت الى محذرا ؟! »

فقال دى جيش : « ربما أكون قد أخطأت ، وانى اذن لآسف عـلى ما فعلت · عـلى أنى حين كتبت اليك لم أكن أرى فى ذلك الا شيئا عاديا ·· وليت شعرى أى غرابة فى أن يكتب المرء الى صديق له يستقدمه ؟· أما الغريب حقا فهو أن أرى هذا الصديق يرتعد فى قلق ، ويتوقع منى أن أقول له ما لا يجرؤ على قوله أحد ! »

فقال راءول : « ما هذا الذى لا تجرؤ على قوله يا عزيزى ؟·· ان عندى من الشجاعة ما يسمح بأن تقول لى كل شئ ! »

فقال دى جيش : « انك ظالم يا راءول وتكاد تنسى أنك تخاطب صديقا جريحا !٠ ألا هدىء من روعك يا أخى ، فقد دعوتك الى المجىء ، وها أنت ذا قد جئت ، وأرجو ألا تسألنى عن شىء بعد ذلك ! »

قال : « كيف يصح هذا ؟٠٠ انك ولا شك قد دعوتنى الى المجىء لكى أرى بعينى ما هناك ! فلم ترددك الآن ؟٠ أتظن أنى لم أر بنفسى كل شىء٠٠ لقد رأيت (لويز) ثائرة الاعصاب ٠ و (مونتاليه) فى ارتباك٠ والملك٠٠٠ نعم ٠٠ الملك يا عزيزى ! مالك تفزع هكذا وتدير رأسك جانبا ؟٠ ان الخطر والشر لم يجيئا الا من هنا !٠٠ تكلم يا أخى وكن صريحا ٠٠ أليس هو ؟ »

فغمغم دى جيش يقول : « ليس عندى ما أقوله ! »

فصاح به راءول محتدا : « بل عنـدك ألف شىء مما يجب أن يقال !٠٠ أنسيت أنك صديقى الوحيد ؟٠ تكلم وقل لى كل شىء ٠ لقد سحق قلبى وطعن فى الصميم ، وها أنذا أكاد أموت من اليأس ! »

فقال له دى جيش : « اذا كان الأمر كذلك يا عزيزى ، فانى لا أستطيع أن أقول لك الا ما يبعث فى قلبك العزاء !٠ وبعبـارة أخرى سأخبرك بما يمكنك أن تعرفه من كل انسان تقابله ! »

فقال راءول متعجبا : « يعرفه كل انسان ؟!٠ أيتحدث الناس بهذا ؟ »

فقال دى جيش : « ان الناس كثيرا ما يتحدثون أكثر مما ينبغى لهم ، وعندى أن الأمر فى حقيقته قد لا يكون أكثر من رياضة عادية قامت بهـا فى صحبته !٠ وقد تريض الملك مرارا عديدة مع سـيدات كثيرات دون أن يكون فى ذلك أى شىء غير عادى »

ـ لكنك ما كنت لتكتب الى لو كانت تلك الرياضة عادية !

ـ الذى أعرفه أنه كان خيرا للملك أثناء العاصفة أن يأوى الى مكان ما ، بدلا من أن يبقى عارى الرأس أمام لافاليير !

ـ أوه يا دى جيش !٠ انك تقتلنى !

ـ اذن لا داعى لأن نتكلم فى هذا الشأن !

ـ كلا بل استمر ٠٠ هل تلك النزهة تبعتها نزهات ؟

ـ لم يكن هناك بعدها أكثر من مغامرة قيل أنها وقعت تحت شجـرة السنديان !٠ ولكنى لا أعرف عنها شيئا !

وهنا نهض راءول ، وحاول دى جيش أن ينهض أيضا برغم ضعفه ، ثم قال له : « لن أقول كلمة أخرى سواء أكنت قد قلت أكثر مما ينبغى ، أم لم أقل الا النزر اليسير٠ وعلى كل حال كان واجبى يقضى بأن أحذرك ، وقد فعلت ٠ فراقب أمورك بنفسك الآن٠ وقد يستطيع غيرى أن يمدك بمعلومات أوفى »

ـ أتريد أن أسأل غيرك ؟٠٠ انك اذن لست صديقا مخلصا !٠ وما عسى أن يقول لى من أسأله فى هذا ؟٠٠ انه اما أن يكون سىء النية فيكذبنى القول

ليبعث فى نفسى ألما أشد مما أعانيه ٠ واما أن يكون أحمق فتكون النتيجة شرا من ذلك٠ وهكذا لن تمضى ساعتان حتى أكون قد سمعت عشرأكاذيب ، وأكون قد دعوت الى عشر مبارزات !٠ كلا يا صديقى العزيز !٠ خير لى أن أقف منك على الحقيقة المؤلمة كلها !

ـ قلت لك أنى لا أدرى شيئا ٠٠ لقد جرحت ثم أصابتنى حمى ٠ وكنت فاقد الوعى ٠ ولا أذكر الا القليل عن الأمر كله ٠ ولكن لا داعى لأن نبحث بعيدا على حين أن الرجل الذى تحتاج اليه جد قريب منا ٠ أليس دارتانيان صديقك ؟٠٠اذن اذهب اليه،فقد يستطيع أن يلقى بعض الضوء على الأمر!»

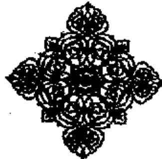
وفى هذه اللحظة دخل خادم الغرفة وقال لدى جيش : «ان أحد الزائرين ينتظر فى غرفة الخزف »

فقال : «حسنا !» ٠ ثم التفت الى راءول وقال له : «أتأذن لى يا عزيزى؟٠ انى أشعر بالكبرياء اذا استعدت قدرتى على السير »

فقال راءول : « كان يسرنى أن أعرض عليك أن تستند الى ذراعى ، لولا أنى أعتقد أنك ذاهب لمقابلة سيدة ! »

فابتسم دى جيش وقال : « أحسب ذلك أنا أيضا ! » ٠ ثم غادر الغرفة وبقى راءول وحده فيها جالسا بلا حراك وقد استغرق فى همومه٠ ولم يلبث الا قليلا حتى سمع صوت (مونتاليه) فى الغرفة المجاورة ٠ فقال لنفسه : « هى ؟! حقا انه صوتها !٠ انها تقدر أن تذكر لى الحقيقة كلها !٠٠ ولكن هل أسألها هنا ؟٠ لا شك أنها قادمة من عندها ٠ واذن يحسن أن أزورها فى جناحها ٠ وسوف توضح لى سر انزعاجها وفرارها والطريقة العجيبـة التى أخرجت بها ٠ ستقول لى كل ذلك بعد أن أستمد من المسيو دارتانيان، الذى يعرف كل شىء ، جديدا من الشجاعة ومزيدا من القوة٠ حقا انها امرأة عاشقة لعوب ذات أهواء وتقلبات ، ولكنها أحيانا تبدو ذات عطف وشفقة٠ كما أنها تؤكد لدى جيش أنه أسعد الرجال ! »

وعلى أثر ذلك ، غادر مسكن الكونت دى جيش مسرعا ، وهو يؤنب نفسه لأنه لم يحدثه الا عن شئونه هو نفسه ٠ ولم يمض قليل حتى كان قد وصل الى منزل (دارتانيان)



حديث لايبعث على الأمل

كان الكابتن دارتانيان جالسا على كرسيه الكبير ، ومهمازه على الأرض ، وسيفه بين قدميه ، وقد شغل بقراءة بعض الخطابات بينما هو في الوقت نفسه يفتل شاربه • وما كاد يرى راءول حتى هتف به مرحبا في فرح قائلا له :

ــ مرحبا بالصديق ابن الصديق !• أى حظ سعيد جعل الملك يستقدمك من لندن ؟

وجلس راءول وهو يقول : « الحق انى لا أعرف أكثر من أنى عدت ! »

فهمهم دارتانيان وهو يطوى خطاباته ، ونظر الى الشاب نظرة عميقة ثم قال له :

ــ ماذا قلت يا بنى ؟• ألم يستقدمك الملك ؟• كيف عدت اذن ؟!

فأخذ راءول يدير قبعته فى يده دون أن يجيب بشىء ، ثم استطرد الكابتن صديق أبيه فسأله :

ــ ماذا بك ؟ وما الذى يسكتك ؟• أتراك قد اكتسبت هذا الجمود من الاقامةبانجلترا ؟•لكنى أنا أيضا أقمت بها حينا وقد رجعت ممتلئا حيوية!• أم ليس لديك ما تقوله ؟!

فغمغم راءول قائلا : « بل لدى الكثير مما يقال ! »

فقال دارتانيان : « ماذا ؟• آه • كيف حال أبيك ؟ »

فأجاب راءول : « كنت أهم بأن أوجه اليك هذا السؤال ! »

فأمعن دارتانيان فيه النظر وقال : « لعلك فى كدر من شىء ما ؟ »

قال : «هذه هى الحقيقة !•وأنت تعرف الأمر جيدا يا مسيو دارتانيان!• وأرجو ألا تتصنع الدهشة يا سيدى ، ولتعلم انى دونك فى كل ما يتعلق باللباقة أو يتصل بتجارب القوة والجلد ، وها أنت ذا ترانى أمامك لا عقل لى ولا ادراك ، وليس لى رأس أفكر به ولا ذراع أصد بها • وبالاجمال أنا أشقى انسان فى العالم ! »

فغمغم دارتانيان قائلا : « أهكذا ؟!• ولم هذا كله يا بنى ؟ »

فقال راءول : « لأن الآنسة دى لافاليير تخدعنى ! »

ــ تخدعك ؟• هذه كلمة كبيرة !• ولكن ما الذى يدعوك الى هذا الظن ؟•

لابد أن فى الأمر سرا • لأنه لا دخان بلا نار !• ولكنك تعلم أنى لا أتدخل فى مسائل من هذا القبيل !

ــ حتى ولا من أجل صديق ابن صديق ؟

ــ حقا •• انك صديق ابن صديق ، ولولا هذا ما كنت لأقول لك شيئا مطلقا • كيف حال عزيزنا بورتوس ؟

وهنا نهض راءول وأمسك يد دارتانيان ، ثم قال له : « انى أتوسل اليك باسم الصداقة قبل كل شىء ! »

فقال دارتانيان : «حقا انك مريض !• مريض بداء الفضول على الأقل!»

فتنهد راءول وقال : « ليته كان داء الفضول يا سيدى ، لكنه أدهى وأمر •• انى مريض بالحب ! »

ــ هذه كلمة كبيرة أخرى !• ولكن لو أنك كنت مغرما حقا يا عزيزى راءول ، لكنت فى حالة أخرى غير حالتك الآن !

ــ ماذا تعنى بذلك ؟

ــ أعنى أنك لست عاشقا متيما ، ولكنك مثل أى شاب آخر • قد خيل اليك ذلك ، فهذا الذى تقوله عن حبك للويز لا يمكن أن يكون الا نتيجة للوهم والذهول • والواقع أن عقل الانسان قلما يجديه شيئا اذا هو أسلم نفسه الى مثل هذه الاوهام • وأنا نفسى أعترف لك بأنى فقدت حواسى على هذا النحو مائة مرة فى حياتى !• إنك قد تصغى الى ولكنك لن تسمع ما أقول ، وقد تسمع ولكنك لن تفهم ، وقد تفهم ولكنك لن تطيعنى !

فقال راءول : « تكلم يا سيدى ، قل كل ما لديك • وثق بأنى سأسمع وأفهم وأطيع ! »

فنظر اليه دارتانيان مليا ، ثم هز رأسه أسفا وقال :

ــ أوه !• انى أذهب بعيدا !•• ولو أننى كنت أعرف شيئا ، وكنت من الحماقة بحيث أطلعك عليه بوصفك صديقى وابن صديقى ، فلا شك فى أنه لن يؤدى آخر الأمر الا الى أن أخسرصداقتك ! لأنك فى هذه الحالة لا تغفر لى أبدا أنى بددت أوهامك فى مسائل الحب والغرام !

فزفر راءول زفرة حرى وقال :

ــ يا مسيو دارتانيان••انك تعرف كل شىء ، ومع هذا تردنى الى الحيرة واليأس بل الى الموت !• انى لا أشكو أبدا كما تعلم عنى • ولكن لما كان الله وأبى لن يغفرا لى قط اذا أطلقت الرصاص على رأسى ، فانى سأذهب وأرغم أول شخص أقابله على أن يفشى الى من الانباء ما تسره أنت وتخفيه على ، ثم أتهمه بالكذب والدس و •••

فقطع دارتانيان كلامه وقال متمما عبارته : « وتقتله ؟!•• ان هذا يكون شيئا جميلا يا عزيزى !•• واذاكنت ترى فيه ما يبعث السرور فى نفسك، فهيا نفذه واقتل من تشاء ! »

فقال راءول مكتئبا : « كلا يا سيدى !٠٠ لن أقتل أى انسان ! »

فقال دارتانيان : « ولم لا تفعل ؟٠٠ وماذا جعلك تتخذ لهجة أخرى ؟٠٠ لعلك تؤثر على ذلك أن تسعى فى أن يقتلك أنت أى انسان ؟٠ وصـــدقنى يا عزيزى ان هذا لشيء جميل أيضا ! على أني سأحزن عليك حقا ! وسأظل طول يومى أقول : لقد كان شابا لطيفا لكنه كان كذلك غبيا أحمق !٠ ولقد قطعت السنين الطوال أعلمه كيف يستخدم سيفه لكنه مع هذا أسلم نفسه لمن يقتله كما تقتل قبرة ! اذهب اذن يا راءول وخل الناس يخلصوا منك٠٠ لست أدرى من الذى علمك هذا المنطق ، ولكن الحق أن أباك قد ضاعت عليه نفقات تعليمك ! »

فوضع راءول راسه بين كفيه وقال : « ليس لى صديق فى العـالم ! انى لا ألقى الا عدم الاكتراث أو السخرية ! »

فقال دارتانيان : « هذه أوهام يا بنى !٠ انى لا أســخر منك مع أنى جاسكونى يحب السخرية ٠ ولو أننى كنت لا أعيرك اهتماما لصرفتك منذ ربع ساعة ، ولكان فى ذلك القضاء عليك لأنك لست فى وعيك ٠ والآن أيها الشاب : أتحب أن أغريك بالاشـمئزاز من فتاتك حتى لتمقت الجنس اللطيف كله الذى هو أصل الشرف والسعادة فى الحياة البشرية ؟ »

فقال راءول متلهفا : « بالله يا سيدى ٠ نبئنى بكل ما تعلم ، فأنت بذلك تسدى الى يدا لن أنساها ما حييت ! »

ـ كما تشاء !٠٠ ولكن لا تظن أنى قد حشـــوت رأسى بكل ما قيل عن النجار والرسام ٠٠ الى آخر القصص التى من هذا القبيل ! »

فتساءل راءول متعجبا : « نجار ورسام ؟!٠ ماذا تعنى يا سيدى ؟ »

ـ الحق أنى لست أدرى !٠ وكل ما هنالك أن أحد الناس أخبرنى أن نجارا فتح فوهة فى أرض احدى الغرف !

ـ أتعنى غرفة لافاليير ؟

ـ قلت لك لست أدرى !

ـ أتظن اذن أن هذه الغرفة فى جناح الملك ؟

ـ لو كان الأمر كذلك لأخبرتك به ، ولكنى كما ذكرت لك لا أعلم شيئا أكثر من هذا !

فسكت راءول قليلا ، ثم قال : « وما شأن الرسام اذن ؟٠ أهناك صورة مثلا كلف أن يرسمها ؟ »

فقال دارتانيان : « نعم ، لكنى لا أعلم أكثر من أن الملك أراد أن ترسم صورة لاحدى سيدات البلاط ! »

فصاح راءول : « صورة لافاليير طبعا ؟٠ أليس كذلك ؟ »

فقال دارتانيان ساخرا : « ألا تعرف غير هذا الاسم لتلوكه فى فمك ؟!٠ انى لم أشر من قريب ولا من بعيد الى اسم لافاليير ! »

ـ اذا لم تكن الصورة صورتها فما الذى جعلك تظن أن الأمر يعنينى ؟

ـ أنا لم أظن أن الأمر يعنيك ٠ ولكنى أجيب عما تسألنى عنه !

فضرب راءول جبينه بيده يأسا وقال : « يا لى من مسكين !٠ ان هـذا الأمر سيقتلنى ولا شك ! »

فقال له دارتانيان : « لم تأت بجديد يا بنى فقد ذكرت هـذا الأمر من قبل ! »

فغمغم قائلا : « صدقت يا سيدى ٠٠ صـدقت ! » ٠ ثم خطا خطوة أو خطوتين كمن يعتزم الانصراف ، فقال له دارتانيان : « الى أين ؟ »

فقال : « الى حيث أبحث عمن أعرف منه الحقيقة !٠٠ الى الآنسـة دى لافاليير نفسها ! »

فقال دارتانيان : « هذه فكرة عظيمة !٠ انك لفى حاجة شديدة الى من يبعث العزاء فى نفسك ، وستلقى عندها هذا العزاء ، ولا شك أنها بالطبع لن تذكر عن نفسها أى سوء ! »

فقال راءول : « كلا يا سيدى !٠ ان المرأة التى أقصدها ستذكر لى كل سوء تعرفه ! »

ـ اذن أنت تعنى (مونتاليه) صديقتها ؟٠ لكن هـذه ستبالغ فى كل حســنة أو سيئة تذكرها لك !٠ وأنا لهذا أنصح لك بألا تتحــدث معها يا عزيزى فانه يكفى أن تكتب اليها !٠٠

وفيما كان راءول يتناول القلم من يد الكابتن ، فتح الباب فجأة ودخل أحد الفرسان وقال لدارتانيان :

ـ ان الآنسة مونتاليه هنا وتريد أن تقابلك يا كابتن !

فبدت الدهشة فى وجهه وقال : « أنا ؟!٠ دعها تدخل وسنرى ! »

ولم تكد الآنسة دى مونتاليه تدخل حتى صاحت : « آه يا سـيدى !٠ أرجو المعذرة يا مسيو دارتانيان »

فقال لها : « أنا أعلم يا آنسة أن من كان فى مثل سنى لا يطلبه الناس الا لحاجة من الحاجات ! »

فقالت مونتاليه : « لقد كنت أبحث عن المسيو دى براجلون »

فقال لها : « هذا من حسن الحظ ، لأنه هو أيضا يبحث عنك »

ثم التفت الى راءول وقال له : « اذاهب أنت مع الآنسة مونتاليه الآن؟»

ولما أومأ هذا موافقا ، دفعه دارتانيان برفق الى خارج الغرفة،ثم أمسك بيد مونتاليه وقال لها بصوت خافت : «كونى رحيمة به ، وأبقى عليه وأبقى عليها أيضا بقدر استطاعتك ! »

فقالت له : « لكنى لست أنا التى سأتحدث معه !٠ ان المدام نفسها هى التى بعثتنى اليه ! »

فقال : « حسنا !٠٠ ما دام الأمر كذلك ، فلن تمضى ساعة حتى يشفى المسكين من حبه ! »

فقالت مونتاليه : « أو يكون فى عداد الأموات ! »



لم يكد راءول يخلو الى الآنسة مونتاليه حتى قبل يدها بشغف ، فقالت له بحزن :

ــ انك تبدد قبلاتك هباء ، وما أحسبها تعود عليك بأية فائدة !

فسألها : « وكيف ذلك ؟ ألا توضحين ؟ »

فقالت : « ان المدام (قرينة الشقيق الأصغر للملك) ستشرح لك كل شيء ٠ وسآخذك الى جناحها ! »

فصاح متعجبا : « ماذا تقولين ؟ »

فوضعت الآنسة مونتاليه سبابتها على شفتيها محــذرة اياه وقالت : « صه يا سيدى ، ودع عنك هذا المظهر الحزين٠ان للنوافذ أعينا وللجدران آذانا ٠ وأرجو ألا تحدثنى بصوت مرتفع أو ليكن الحديث عن المطر والجو وعن مفاتن انجلترا وما الى ذلك !٠ ان المدام لها عينــان وأذنان ترى بهما وتسمع كل شيء !٠٠ وأنا لا أحب أن أفصــل من مركزى ، ولا أن يزج بى فى الباستيل ! »

فقبض راءول يديه محاولا أن يسترد شجاعته ، بينما تقدمته مونتاليه وهى تنظر حواليها حتى وصلت الى جناح المدام فسمح له بالدخول توا ، وكانت قد استلقت على مقعدها ومدت قدميها الدقيقتين على وســادة من المخمل ، وأخذت تداعب قطة ذات فروة حريرية طويلة الشعر ٠ وبدا عليها التفكير العميق حتى أنها لم تنتبه الا على صوت راءول وهو يقول لها : «لقد بعثت سموك فى طلبى ؟! »

فهزت الاميرة هنريتا أو (المدام) رأسها كأنها تستيقظ من النوم وقالت له : « عم صباحا يا مسيو دى براجلون ٠ أجل لقد بعثت فى طلبك ٠واذن فقد عدت من انجلترا ؟ »

ثم أومأت الى مونتاليه ، فسارعت هذه الى مغادرة الغرفة ، بينما قالت الأميرة لراءول :

ــ هل لديك بضع دقائق أستطيع أن أحدثك فيها ؟

فقال لها : « ان حياتى كلها رهن تصرف سموك الملكى ! »

ولم يفته أن يلاحظ مظهر الجد الذى ارتسم على محياها،وشعر بأن هناك تشابها بين شعورها وشعوره ٠ والحق أن كل انســـان قوى الملاحظة فى البلاط كان يعرف غرابة أهواء هنريتا واســتبدادها ٠ وقد أرضى غرورها

التفات الملك لها ، وتركت الناس يتحدثون بذلك ، وقــد غرست فى قلب الملكة من أجل ذلك بذور الغيرة التى لا سعادة معها لأى امرأة

والحق أن الأميرة ــ أو (المدام) كما يسمونها فى البلاط ــ حاولت أن تداوى جروح كبريائها ، ولكنها وجدت أن قلبها لم يعد ملكا لها٠وقد بذلت جهدها لاستدعاء راءول دى براجلون ، وكان لويس الرابع عشر أرسله الى انجلترا ليبعده من طريقه ٠ ولم يعلم راءول شيئا عن الخطاب الذى أرسلته المدام الى أخيها تشارلس الثــانى ملك الانجليز ، وان كان دارتانيان قد تصور ما يحتويه

وقالت الأميرة لراءول بعد تفكير : « يا مسيو دى براجلون٠٠هل رجعت مستريح البال ؟ »

فنظر هنيهة الى وجهها الشاحب ، ثم أجاب قائلا : « مستريح البال ؟٠ وماذا هناك مما أنعم به أو أشقى يا سيدتى ؟ »

فسألته : « ما هى الاشياء التى تجعل شــابا فى مثل سنك ومظهرك ، سعيدا أو شقيا ؟ »

فقال راءول لنفسه مرتاعا : « ما أشد اشتياقها الى أن أخبرها بما هناك!٠ ترى ما الذى ستنفثه فى قلبى؟ » ٠ وأراد أن يرجىء الشر الذى ستنبئه به وأن يحيد بها عنه فقال لها :

ــ لقد تركت خلفى هنا صديقا فى تمام صحته ولما عدت وجدته مريضا !

فقالت متمالكة أعصــابها : « أنت تقصد دى جيش ؟ لقد ســـمعت أنه صديق حميم لك ! »

فقال : « نعم ، انه حقا كذلك ! »

فاستطردت قائلة : « صحيح انه جرح ، ولكن حالته تحسنت الآن ٠٠ ان المسيو دى جيش ليس فى حاجة الى شفقة ٠٠ ولكن أيشــكو شيئا ؟٠ أهناك ما يضايقه أو يحزنه دون أن نعلمه ؟ »

فقال راءول : « أنا أقصد جرحه يا سيدتى ! »

فقالت : « حسنا !٠ ان دى جيش سعيد من كل وجه آخر ٠٠ انه دائما فى سرور ومرح ، وانى موقنة أنك أنت يا مسيو براجلون كنت تؤثر أن تكون مثله ، جريح الجسم فقط ! »

فاقترب منها راءول وقال لها : « انك يا صاحبة السمو الملكى تريدين أن تقولى لى شيئا ، ولكن رقتك وسماحتك تغريانك بأن تكونى على حــذر فى قوله مراعاة لشعورى ٠ ألا تدعين هذا الاعتبار الكريم جانبا ؟٠٠ انى أقدر أن أتحمل أى شيء ٠ وها أنذا أصغى الى سموك ! »

ــ انك على الاقل تعرف كل ما هو معروف فى البلاط ٠ ألم يبلغك شيء عما حدث وقت العاصفة ، أو عن المناجاة فى الغابة،أو الرحلة الى شايو ؟ »

وكان راءول قد طاطأ رأسه كالزهرة التى قطعت ساقها ، فابتسم ابتسامة يأس وقال :

ـ أؤكد لسموك الملكى أنى أجهل كل شىء ، وأننى لست الا طريدا بائسا عاد هذه الساعة من انجلترا ! • ولقد كانت ثمة أمواج صاخبة بينى وبين من خلفتهم هنا ، فلم تقدر أن تصل الى أية شائعة عن الظروف التى أشرت سموك اليها !

فتأثرت هنريتا بشحوبه ووداعته وشجاعته • وقالت له :

ـ يا مسيو دى براجلون •• ان الذى أبى أصحابك أن يصارحوك به ، سأقوله لك ، أنت الذى أحبه وأقدره كثيرا • وسأكون صديقتك فى هذه المسألة • انك ترفع رأسك عاليا كما ينبغى للرجل الشريف ، وأنا يؤسفنى أن ترغم على حنى رأسك حيال سخرية الناس ، وربما حيال ازدرائهم بعد حين !

فتساءل راءول : « هل الأمر بالسوء الى هذا الحد ؟ »

فأجابت الأميرة : « اذا كنت لا تعلم فانى أراك مشغول البال •• لقد كنت خطيب الآنسة دى لافاليير على ما أعتقد ؟ وأنت اذن تستحق أن تحذر ما هناك • انى سأضطر يوما من الايام الى أن أفصلها من خدمتى ! »

فصاح هالعا : « تفصلين الآنسة دى فاليير ؟ »

فقالت : « نعم ، أم تحسبنى سأخضع دائما لدموع الملك وتوسلاته ؟• كلا !• ان بيتى لا يصلح مكانا لمثل ذلك »

فبذل راءول قصارى جهده ليتغلب على ضعفه وأجاب قائلا : « يا صاحبة السمو••لقد تفضلت سموك وقلت ان الملك كان يبكى ويتوسل اليك ؟ »

ـ أجل ، ولكن بلا جدوى !

وكان راءول يستمع الى كلامها خافض الرأس ، ثم قالت له : « ماذا ترى فى هذا كله ؟ »

فأجاب قائلا : « ان الملك يحبها ! »

فقالت : « ولكن يبدو أنك تحسبها لا تحبه ؟ »

قال : « وا أسفاه يا سيدتى !• انى أفكر فى الوقت الذى كانت تحبنى فيه ! »

فهزت كتفها وقالت : « يخيل الى انك لا تصدقنى • لا ريب انك تحبها حبا عميقا • وأنت تشك فى أنها تحب الملك ! »

فقال : « أجل !• حتى أرى برهانا على ذلك • عفوا يا سيدتى !• لقد تعاهدت معها على الحب وأعطتنى كلمتها • وان عقلها وقلبها لأزكى من أن تكذبنى القول ! »

فنهضت الأميرة وهى تقول له : « أنت تطلب برهانا ؟• فليكن •• تعال معى اذن ! »

فى مخبأ الغرام

مشت الاميرة هنريتا ـ أو (المدام) ـ أمام الفيكونت راءول دى براجلون خلال الردهة ، حتى بلغت الجناح الذى تسكنه الآنسة دى لافاليير •وكانت الفرصة سانحة لتنفيذ خطة الاميرة ، لان القصر كان خاليا ، اذ ذهب الملك فى صباح اليوم نفسه الى سان جرمان ومعه رجال البلاط والوصيفات ، وبقيت هى فى القصر مدعية انها منحرفة الصحة ، ثم أرسلت فى طلب دى براجلون لعلها تفيد شيئا من مقابلته

وكانت على يقين من خلو غرفة لافاليير وجناح سان اينيان ، فأخرجت مفتاحا سريا من جيبها وفتحت باب غرفة وصيفتها ، ونظر دى براجلون الى داخل الغرفة التى يعرف كل شىء فيها ، ولم يفت الأميرة ادراك ما دار بخلده فى تلك اللحظة ، فقالت له : « انك طلبت الأدلة التى تقنعك ، وسأزودك بها • على أنك ان لم تكن لديك الشجاعة الكافية لمواجهتها ، فأمامك فرصة للانسحاب ! »

فقال لها : « شكرا لك يا سيدتى ، أنا ما جئت الى هنا الا لكى أقف على الحقيقة كاملة ! »

فقالت الأميرة له : « اذن •• ادخل وأغلق الباب وراءك ! »

ولما فعل ، قالت له : « أحسبك تعرف أننا الآن فى غرفة الآنسة دى لافاليير »

ثم سارت بجانب السرير الموضوع هناك ، وانحنت على الارض حيث رفعت جانبا من البساط الذى يكسوها وقالت له : « انظر •• هنا باب سرى سترى الآن بنفسك الى أين يؤدى ! »

فقال متعجبا : « باب سرى ؟! »•وعاد الى ذاكرته ما سمعه من دارتانيان ثم نظر حواليه باحثا عن حلقة أو نحوها يرفع بها ذلك الباب ولكنه لم يجد ، فقالت له الأميرة : « هنا يا فيكونت •• هل ترى هذه العقدة التى فى اللوح الخشبى الرابع ؟• انها هى المحرك السرى ، وما عليك الا أن تضغطها بنفسك فيفتح الباب ! »

وبدا وجهه شاحبا كوجوه الموتى ، وضغط بأصبعه العقدة التى أشارت اليها ، فابتدأ المحرك عمله فورا ، وسرعان ما ارتفع الباب الخفى من تلقاء نفسه • فقالت الأميرة :

ـ انه اختراع يدل على براعة المهندس الذى صنع الباب ، ولعله كان يعلم أن يدا دقيقة ستستخدم هذا المحرك وقد رأيت كيف انفتح الباب بسهولة !

وأخذ راءول ينظر متعجبا الى السلم الذى بدا أمامه ، والى الحاجز الدقيق الذى صنع له ليحول دون سقوط من يهبطه · بينما واصلت الأميرة كلامها فقالت « هيا يا فيكونت ·· سأهبط هذا السلم فاتبعنى »

فقال لها : « قبل أن أتبعك يا سيدتى ، أتسمحين لى أن أسأل : الى أين يؤدى هذا السلم ؟ »

فقالت : « لعلك تعلم ان المسيو (دى سان اينيان) كان يسكن الجناح الملاصق لجناح الملك ؟ »

فقال : « أجل·أو ـ على الأقل ـ كان هذا ما أعلمه قبل سفرى ، وكثيرا ما زرته فى جناحه »

فاستطردت قائلة : « لقد حصل من الملك على اذن فى أن يبدل بجناحه المريح الجميل غرفتين يؤدى اليهما هذا السلم ، وهو يسكنهما الآن مع أنهما أضيق من جناحه السابق ، وأبعد من جناح الملك · والعجيب حقا أن هذا المسكن الجديد يقع مباشرة تحت غرف وصيفاتى ، ولاسيما غرفة الآنسة لافاليير ! »

فسألها راءول : « لكن ما الغرض من انشاء الباب السرى والسلم ؟ »

فأجابت بقولها : « هذا ما لا أستطيع أن أخبرك به ، وعلى كل حال سنهبط الى الغرفتين الآن ولعلنا نجد هناك ما يلقى الضوء على هذا اللغز ! »

ثم هبطت السلم مشيرة اليه أن يتبعها ، فتبعها وهو يتنهد · وخيل اليه أثناء ذلك أنه يشم رائحة كرائحة عطر لافاليير ، ثم ما لبث قليلا حتى رأى بعض الازهار التى تحبها ، والكتب التى تؤثرها ، كما رأى ذوقها الذى يعرفه مجسما فى كل قطعة من الاثاث ، وفى لون الستائر ، فاشتد كربه وواصل المشى خلف مرشدته وكأنه مجرم يتبع سجانه الموكل بتنفيذ الحكم باعدامه ، على حين أخذت الأميرة تثير كامن لواعجه بما تروى له من تفصيل ما يراه · فبدا وقد تملكه اليأس والقنوط ، وتخيل أنه يرى (لويز) مع حبيبها ، وقد اشتبكت يداهما والتصق خداهما ، وراحا يتبادلان القبلات

ثم أزاحت الاميرة ستارة من الحرير ، فأبصر وراءها صورة زيتية كبيرة تمثل لافاليير فى جمالها وشبابها ، وسعادتها وحيويتها ، كأبدع ما تكون فتاة منعمة مثلها فى الثامنة عشرة من العمر · وصاح قائلا :

ـ لويز ؟! اذن فالأمر صحيح !··

ونظرت الأميرة اليه ، وهى تكاد تحسد لويز على تألمه هذا فى سبيل حبها ، برغم أنها هى نفسها يحبها دى جيش مثل ذلك الحب أو أشد · ثم قال لها راءول :

ـ عفوا يا سيدتى · انى أعلم أنه ينبغى لى أن أتمالك شعورى فى حضرتك ، وأن أكون أكثر صبرا وجلدا · ولكنى أسأل الله لك أن يجنبك الشقاء الذى يفتت قلبى الآن ·· أجل سامحينى يا سيدتى ·· اننى رجل لا مركز له ولا مقام ، أما أنت فأميرة لا تعرف لسعادتها حدا ، ولا لسلطانها نهاية !

فقالت له : « يا مسيو دى براجلون ·· ان قلبا مثل قلبك لجدير بكل تقدير يمكن أن تهبه ملكة !· وانه ليسرنى حقا أن تعدنى صديقة لك ، وثق بأنى لن أترك حياتك تسممها خيانة أو سخرية !·· وهذا ما جعلنى أقدم على السعى فى سبيل عودتك من لندن ، اذ الواقع أنى أشجع من كل أصدقائك المزعومين ـ ما عدا دى جيش ـ ولهذا قدمت لك هذه البراهين المحزنة التى كان لابد منها لشفائك من غرامك ، هذا اذا كنت محبا شجاعا لا ضعيفا باكيا · على أنى لا أحب أن أسمع منك أى شكر على قيامى بهذا الواجب »

فابتسم راءول فى مرارة وقال : « سمعا وطاعة يا سيدتى ·· »

فقالت الأميرة : « ولا تنس أن حريتك ، بل حياتك نفسها فى خطر ! »

فنظر اليها نظرة ثابتة عميقة دلتها على أن عبارتها الاخيرة لم تكن ذات أثر فى نفسه ، وقالت له :

ـ على كل حال ، أرى أن تزن كل أعمالك بميزان العقل والحكمة ، وأن تلتزم جانب الحذر ما استطعت ، فالملوك لا يستهان بغضبهم كما تعلم · وليس الخطر مقصورا عليك وحدك ، بل هناك أسرتك وأصدقاؤك أيضا · وعلى هذا يجب أن تنحنى للعاصفة ، وان تلتمس شفاء نفسك قبل كل شىء!

فقال : « انى أقدر نصيحة سموك ، وسأحاول اتباعها · على أنى أرجو أن تتفضل سموك بأن تكشفى لى سر ذلك السلم والباب وكيف عرفتهما ؟!»

فقالت : « ان الأمر جد بسيط ، فقد أمرت ـ لكى أراقب وصيفاتى عن كثب ـ بعمل مفاتيح سرية لغرفهن أحتفظ بها عندى · وقد استغربت انتقال المسيو سان اينيان من جناحه ، كما استغربت مجىء الملك كل يوم لزيارته فى مسكنه الجديد ، وهذا عدا ما لاحظته من أمور غريبة كثيرة خلال غيابك حتى لقد تغير الكثير من العادات المرعية فى البلاط · ثم أنا لا أحب أن يستهين بى الملك ولا أن يتخذ منى ستارا لغرامياته ، وأعتقد أنه شغف حبا بلافاليير ، وقد يمل حبها لأنها دائمة العبوس ، وتروقه ـ مثلا ـ مونتاليه التى لا تبدو الا ضاحكة ، ثم تعجبه على هذا الأساس (توتاى شارنت) التى لا تفتأ تغنى طول يومها !·· ولعلى جرحت شعورك ، ولهذا أكرر اعتذارى لك ، فقد كان واجبى يقضى بأن أحذرك قرب هبوب العاصفة لتعمل على أن تقى نفسك منها ! »

فقال دى براجلون فى حزم : « لن أقف ساكتا حيال هذا العار الذى

الصق بى والخيانة التى ارتكبت معى ! »

فقالت : « افعل ما تشاء يا مسيو راءول ، ولكن حـــذار أن تكشف عن المصدر الذى وقفت منه على الحقيقة · هذا كل ما أطلبه اليك جزاء الخـدمة التى أديتها لك ! »

فابتسم راءول بمرارة وقال : « لا تخشى شيئا يا سيدتى »

وعادت الأميرة تقول : « لقد رشـوت الحداد الذى وثق به العاشقان · ولعلك كنت فى موقفى تفعل ذلك »

فقال : « أجل يا سيدتى !· والآن هل لدى سموك الملكى أى نصح آخر أو تحذير ؟ »

فقالت : « لا ·· ليس عندى غير ما قلته »

فقال : « اذن اسمحى لى يا صـاحبة السمو أن نبقى هنا قليلا ، ريثما أكتب خطابا الى أحد الناس ! »

فقالت : «تكتب خطابا ؟··أهذه نتيجة تحذيرى يا مسيو دى براجلون؟»

فقال : « لن يستطيع أحد أن يعلم أن سموك تفضلت بارشادى الى هذا المكان ، وسأوقع على الخطاب الذى أكتبه »

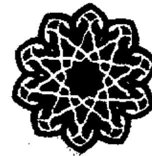
فقالت : « اذن افعل ما يحلو لك »

فأخرج راءول من حافظته قطعة ورق وكتب عليها الأسطر الآتية :

« سيدى الكونت ·· لا يدهشنك أن تجد هنا هذه الورقة التى وقعت عليها ، ان صديقى الذى سأرسله قريبـا اليك سيوضح لك سبب زيارتى هذه لك ··

الفيكونت راءول دى براجلون »

وطوى الورقة ودسها فى قفل باب الغرفة المعدة لخلوة العاشقين ، وجعل الورقة ظاهرة بحيث لا يسع (سان اينيان) الا أن يراها عند دخوله · ثم لحق بالأميرة وكانت قد وصلت الى أعلى السلم · وبعدئذ افترقا ، بعـد أن شكر لها صنيعها مرة أخرى ، وبعد أن تظاهرت هى بالاشفاق عليه·وقالت لنفسها وهو يخرج شـاحب الوجه وقد احمرت عينـاه : « لو كنت أعلم ذلك لأخفيت عليه الحقيقة ! »



من يدفع ثمن الجريمة ؟

لم يكن الشرف الذى أغدقه الملك على بورتوس بدعوته الى مائدته ، ليغير شيئا من عاداته وأخلاقه ، على أنه بدا بعد ذلك أرفع رأسا ، كما بدا شىء من الوقار فى مظهره ، وبقى أياما لا يفتأ يستعيد فى ذهنـه منظر المائدة الملكية الفخمة وصفوف الخدم الواقفين حولها · وقد رأى بورتوس أن يمنح خادمه موستون مركزا ممتازا بين بقية خـدمه ، وأن يخلق فى بيته نظاما عسكريا ، كما كان الشأن فى بيوت رجالات ذلك العصروالعصر الذى قبله، أمثال (دى تريفيل) و (شومبرج) و (ريشـيليو) و (كونديه) ·· وكل هـذا لأنه أصبح صديق الملك ، وصديق المسيو فوكيـه ، عدا أنه بارون ومهندس

وفيما هو يستعيد الى ذاكرته فخامة المأدبة الملكية ، بعد أن شرب بعض النبيذ الفاخر على الطعام وكاد يغلبه نعاس رقيق ، دخل عليه خادمه يقول : «ان المسيو دى براجلون جاء للزيارة » · فانتقل بورتوس الى غرفة مجاورة حيث لقى صديقه الشاب وصافحه مبديا دهشته من دلائل الجد فى ملامحه، ثم دعاه للجلوس ، فقال له راءول : «لقد جئت أطلب اليك خدمة تؤديها لى!»

فقال بورتوس : « هذا من دواعى سرورى · لقد تسلمت اليوم ثمانيـة آلاف (ليفر) من مزرعتى فى (بييرفون)·فاذا كنت فى حاجة الى مال ··· »

فقطع راءول كلامه قائلا : « ان الأمر لا يتعلق بالمال ! وأنا على يقين من أن لك من طيبة القلب مثـل ما لك من رجاحة العقل وسـلامة الحكم على الأمور ! »

فقال بورتوس : « انك تحسن الظن بى · وعـلى كل حال سـنتناول الغداء هنا ؟ »

فقال : « كلا !· ولك الشكر فلست جائعا »

فقال بورتوس متعجبا : « ألا تتناول طعام الغـداء ؟· ما أعجب بلاد الانجليز التى جعلتك تترك وجبـة الغداء !· لكنك لن ترفض أن نشرب شيئا · ان الانسان يشعر بالظمأ فى باريس ! »

وأمر باحضار زجاجة شمبانيا ، وملأ كأسا لراءول ، ثم كأسا لنفسـه تجرعها دفعة واحدة ، ثم قال :

– لقد كنت فى حاجة الى هذا لكى أصغى اليك بانتباه · والآن أنا فى

خدمتك ، ماذا تريد منى اذن يا راءول ؟

فقال : « أريد أن تدلى الى برأيك عن الخلافات عامة !.. انك دائما فى مرح وسرور ، ولكن اذا حدث سوء تفاهم بين أحد أصدقائك وبين رجل غريب عنك ، فماذا يكون موقفك فى هذه الحالة ؟ »

فقال بورتوس : « اذا أصبح أحد أصدقائى طرفا فى خلاف ، فانى أعمل دائما وفق مبدأ واحد ، هو ان الوقت الذى يضيع لا يمكن تعويضه ، وأن الانسان لا يستطيع أن يسوى مسألة الا اذا بلغ النزاع أشده ، وعلى هذا فأنا — متى بدأ الخلاف — أجمع الطرفين معا ، وبهذه الطريقة يصبح من الممكن أن يسوى النزاع ! »

فقال راءول : « أحسب أن أى نزاع يعالج بهذه الوسيلة ينتهى بالعكس الى ... »

فقطع بورتوس كلامه قائلا : « كلا !.. تصور أنى فى ماضى حياتى اشتركت فيما يقرب من مائتى مبارزة نظامية ، عدا المبارزات العاجلة والمشاجرات التى تأتى بها المصادفة ! »

فابتسم راءول على الرغم منه وقال : « هذا رقم محترم ! »

واستطرد بورتوس فقال : « انه ليس كثيرا ، لأنى وديع متسامح . أما دارتانيان فان مبارزاته أكثر عددا . والحقيقة انه حاد الطبع قليلا . وقد صارحته بذلك ! »

فقال له راءول : «على ذلك أنت ترتب مسائل الشرف التى يعهد الاصدقاء فيها اليك ؟ »

فقال : « نعم ، وليست هناك مسألة واحدة من هذا القبيل لم أرتبها كما يجب ، وبالطريقة التى تتفق مع الشرف ! »

فسأله راءول : « هل لك فى أن توضح لى هذه الطريقة ؟ »

فأجاب بقوله : « أجل !. انى أذهب الى الخصم وأقول له : (لا يمكن يا سيدى أن تكون غافلا عن مدى الاهانة التى ألحقتها بصديقى) ... »

فعبس راءول حين سمع هذه العبارة. بينما واصل بورتوس كلامه قائلا :

— وقد يحدث أحيانا ألا يكون صديقى قد لحقته أية اهانة ، بل تكون الاهانة صادرة منه ، ومن هذا ترى أنى أحسن اختيار عباراتى !

ثم ضحك بورتوس ، فقال راءول محدثا نفسه : « انى سيء الحظ حقا ، ان دى جيش يعاملنى بغير اكتراث ، ودارتانيان يعاملنى بسخرية ، وهذا هو بورتوس الوديع يبدو غير مستطيع أن يسوى المسألة بالطريقة التى أريدها ! »

ثم قال له بورتوس : « انى بعبارة واحدة أدع الخصم بلا عذر يعتذر به !»

فقال راءول شارد الذهن : « هذا على حسب الاحوال ؟ »

فقال : « كلا ! بل هو أمر مؤكد . انى لا أترك له عذرا . وعندئذ أبدى جانب الادب لكى أصل الى النتيجة السعيدة لمسعاى ، وسرعان ما أتقدم اليه وأمسك يده وأقول له بلطف : (الآن وقد أيقنت أنك أهنت صديقى ، فنحن على ثقة من الترضية . ولا مناص لكما فى المستقبل من أن تتبادلا مجاملات السلوك ، وبناء على ذلك فان مهمتى هى أن أطلعك على مدى طول سيف صديقى ! »

فقال راءول بدهشة : « ماذا تقول له ؟! »

فقال مستمرا : «أقول له : (ان سيف صديقى طوله كذا ، وجوادى ينتظر بالباب ليحملك الى البقعة التى ينتظرك فيها صديقى نافد الصبر ، ويمكننا أن نأخذ معنا من الطريق أى شاهد تختاره) . وهكذا أسوى المسألة ! »

فتساءل راءول متعجبا : « أية تسوية تعنى ؟.هل تصلح بين الاثنين ؟ »

فأجاب بقوله : « أصلح بينهما ؟!. لماذا ؟.. انهما بعد ذلك سرعان ما يلتقيان ، وجها لوجه، ثم يقتل صديقى خصمه ، وهكذا تنتهى المسألة !»

فصاح راءول : « يقتله ؟! »

واستطرد بورتوس فقال جادا : « نعم يقتله ، أم تحسبنى أرضى بأن يقتل ذلك الخصم صديقى ؟!..ان لى مائة وواحدا من الاصدقاء وفى طليعتهم أبوك ، وأراميس ، ودارتانيان وكلهم على قيد الحياة وفى صحة جيدة »

فنهض راءول وعانقه قائلا فى سرور : « آه يا عزيزى البارون ! »

وسأله بورتوس : « اذن .. أنت توافق على طريقتى ؟ »

فقال : « أجل !. كل الموافقة .. بل أنا سألجأ اليها اليوم ، وفى هذه الساعة فورا !.. انك أنت الرجل الذى كنت أبحث عنه ! »

فقال بورتوس : « حسنا !. ها أنذا . أظنك تريد أن تبارز أحدا ؟.. هذا أمر طبيعى يا عزيزى ، فمن ذلك الذى تريد مبارزته ؟ »

فقال راءول : « هو المسيو دى سان اينيان ! »

فهز بورتوس رأسه وقال : « اننى أعرفه . وهو رجل ظريف . وقد كان جم اللطف معى فى ذلك اليوم الذى تشرفت فيه بتناول الطعام على مائدة الملك . لابد أنه أساء اليك اساءة كبيرة ؟.. يا للشيطان !.. أين تحب أن تنتظره لتسوية هذه المسألة ؟ »

فقال راءول : « ان المسيو سان اينيان صديق حميم للملك كما تعلم ، فاذا أنا قتلته ... »

فقال بورتوس مقاطعا : « ستقتله بلا ريب ، لكن يجب أن تتخذ كل حيطة لتصل الى هذه النتيجة . وعلى كل حال لن تجد صعوبة تعترض سبيلك على نحو ما كان يحدث فى أيام شبابنا ... »

فقال له راءول : « يا صديقى العزيز .. انك لم تفهم تماما ما أرمى اليه،

ما دام المسيو سان اينيان صديق الملك ، فان معالجة الأمر ستكون عسيرة ، لأن الملك سيعلم بالأمر سلفا ! »

فقال بورتوس : « كلا !٠ ان هذا غير محتمل ٠٠ انك تعرف طريقتي٠٠ سأذهب اليه وأقول له : (سيدى ٠٠ لقد أسأت الى صديقي ٠ وجـــوادى واقف بالباب ٠ وسنأخذ شاهدك فى طريقنا الى حيث ينتظرك صـــديقى نافد الصبر !) ٠٠ »

فتكلف راءول الابتسام وقال : « أتحسبه يترك نفسه يحمل هكذا ؟ »

فقال بورتوس جادا : « على أى حال يمكننى أن أحمله حمــلا اذا اقتضى الأمر ذلك ! »

وأراد أن يضرب لراءول مثلا عمليا على استطاعته ذلك،فحمله مع الكرسى الذى يجلس عليه ، وطاف بهما أرجاء الغرفة ٠ فضحك راءول وقال :

ـ حسنا جدا !٠ ليس ينقصنا الآن الا أن نعين البقعة التى أبارز عليها المسيو سان اينيان !

فقال بورتوس : « أظن هذا قد تم !٠٠ ولست أجهل أن العرف السائد فى هذا العصر يقتضى ابداء سبب للمبارزة ، وهــذا يسبب متاعب لم يكن لها وجود فى أيامنا الحالية اذ كنا نتبارز لغرض المبارزة وحده ٠ ولكنك لن تعدم ذكر أى سبب للخلاف ! »

فتنهد راءول وقال : « انها قصة يطول شرحهــــا ، ولــكن ما دام الأمر يتطلب ابداء السبب ، فارجو أن تذهب للمسيو سان اينيان ، وتبلغه أنه أساء الى أولا بتغيير مسكنه ، ثم بعمل باب سرى لمسكنه الجديد ! »

فقال بورتوس : « فهمت ! باب سرى ؟٠ حقا ان هذا أمر خطير !٠ وفى الحق ماذا يقصد ذلك المخلوق بايجاد أبواب سرية دون أن يستشيرك أولا ؟ أبواب سرية ! يا للفظاعة ! أنا ليس عندى أى باب سرى الا فى الجب الذى فى بيتى بمزرعة براسيبيه ! »

واستطرد راءول فقال : « ثم تضيف الى ذلك أن هناك أمرا آخر أساء به الى ، وهو تعليق الصورة التى يعرفها حق المعرفة ! »

فقال بورتوس : « أهناك صورة أيضا ؟!٠ حقا يا صديقى العزيز : ان سببا واحدا من هذه الاسباب الثلاثة يكفى لأن يتبارز جميع الســادة فى فرنسا وأسبانيا وأن يقطع كل منهم عنق الآخر ! »

فقال راءول : « اذن ٠٠ لديك الآن كل المعلومات التى تحتاج اليها ؟ »

فأومأ برأسه موافقا وقال : « سآخذ معى جوادا ثانيـــا ٠ اختر بقعة الارض التى تريدها ، وفى أثناء انتظارك هناك يمكنك أن تتدرب على أحسن الطعنات ، لكى تجعل أعضاءك مرنة الى أقصى حد ! »

فقال له راءول : «شكرا لك ! سأنتظرك فى غابة فنسين المجاورة لمينيم»

فقال : « حسنا !٠ وأين أجد هذا المسيو دى سان اينيان ؟ »

قال : « تجده فى القصر الملكى »

فدق بورتوس جرس يد كبير الحجم ٠ ولما جاء الخادم قال له : « جهز لى بذلة البلاط ، وأعد جوادى وجوادا آخر »

ولما خرج الخادم التفت بورتوس الى راءول وقال له « أيعلم أبوك بذلك ؟»

فقال : « كلا ! وسأكتب اليه ! »

فسأله : « ودارتانيان ؟ » ٠ فقال : « انه شديد الحذركما تعهده ولو علم بالأمر لأرجعنى عن عزمى ! »

وقد عجب بورتوس كيف يلجأ اليـــه راءول ما دام دارتانيان فى عالم الوجود ، وذلك لشدة ثقته به ، ولكن راءول قال له :

ـ أرجو ألا تسألنى بعد ذلك يا عزيزى بورتوس ! لقـــد قلت لك كل ما عندى ٠ وأنتظر الآن عملا سريعا حازما تؤديه على طريقتك الخاصة !

فقال بورتوس : « اطمئن وسيرضيك ما أفعله ! »

ثم قال راءول : « لا تنس أيضا أنه ينبغى ألا يعلم أحد سوانا بسر هذه المبارزة »

فقال بورتوس : « ان الناس دائما يكشفون هــذه الأمور حين يعثرون على جثة بالغابة ٠ وعلى هذا أعدك يا صديقى بأى شىء عدا اخفاء الجثـــة ، لأنى لا أحب قط أن تدفن جثة مجرم أثيم ! »

فنهض راءول وصافح بورتوس قائلا : « اذن ٠٠ الى العمل يا صديقى العزيز » ٠

ثم خرج وهو يقول لنفسه : « أيها الملك الغادر ! انى لا أقدر أن أصــل اليك ، ولكن صديقك وشريكك فى الجرم ، ذلك الجبان الذى يمثلك ، سوف يدفع ثمن جريمتك ٠ وسأقتله ، ثم نفكر بعد ذلك فى لويز !٠ »

دعوة إلى المبارزة

كان سرور بورتوس عظيما وقد شعر بأنه عاد الى شبابه منذ أخذ على عاتقه مهمة دعوة الكونت سان اينيان الى مبارزة راءول !

وبلغ من فرط عنايته بالأمر أنه اقتصد نصف ساعة من الوقت الذى يمضيه عادة فى ارتداء بذلة البلاط . ثم رأى أن يثبت علمه بالتقاليد المتبعة عند أرقى الطبقات فأرسل خادمه ليسأل : هل الكونت دى سان اينيان فى مسكنه أم لا ، وما كاد يتلقى الجواب بأن الكونت عاد الى مسكنه منذ هنيهة بعد أن تشرف مع بقية رجال البلاط بمرافقة الملك الى سان جرمان ، حتى سارع الى مقابلته فى مسكنه

وكانت نزهة الملك سارة فى ذلك اليوم ، وقد شمل بعطفه كل مرافقيه ، وبدا متلطفا معهم الى أقصى حد ، وحرص سان اينيان على أن يمضى فترة النزهة كلها يؤلف الأشعار والأغانى فى وصف الملك ، ثم فى وصف الآنسة لافاليير . وكان الملك أيضا رائق المزاج فياض الشعور لفرط ما يخالجه من السعادة والهيام ، فوضع بيتين من الشعر عبر بهما عن عواطفه .. أما لافاليير فألفت أغنيتين .. وهكذا قضى الجميع يوما أشبه بالأيام الخالدة فى تاريخ أپولو (اله الشعر) عند الاغريق . وعاد سان اينيان الى باريس ، موقنا بأن أشعاره ستنتشر فى دوائر البلاط ، ولهذا أخذ يسترجعها فى ذهنه ، ويراجعها معنى ومبنى بعناية أشد مما أبداه حين صاغها أثناء النزهة ، وما كاد يشرع فى خلع ثيابه وحذائه حتى جاءه الخادم معلنا قدوم البارون دى فالون قائلا :

ـ انه ذلك السيد الذى كان له شرف تناول الطعام مع فخامتك على مائدة صاحب الجلالة فى فونتينبلو !

فأذن له فى احضاره ، وما كاد يراه حتى تذكر أنه السيد الريفى الذى استقبله الملك استقبالا طيبا فى فونتينبلو برغم الابتسامات الساخرة من بعض الحاضرين ، ومن ثم خف الى استقباله مرحبا مبديا دلائل التقدير ، وأمر خادمه بأن يقدم له كرسيا ، فجلس بورتوس متخذا سمت الجد وأخذ يسعل . وبعد تبادل عبارات المجاملة المعتادة قال له الكونت :

ـ هل لى يا سيدى البارون أن أسأل عن الظرف السعيد الذى منحنى جميل زيارتك ؟

فقال بورتوس : « هذا ما هممت بأن أنال شرف شرحه لك يا سيدى الكونت ... ولكن ... »

ولم يتم بورتوس عبارته ، لأن الكرسى الذى جلس عليه كان قد تحطم تحت ثقل جسمه الضخم ، فنهض معتذرا ، واخذ يبحث حوله حتى وجد مقعدا أمتن جلس عليه ، ثم استأنف كلامه فقال :

ـ أن قطع الأثاث الحديثة تصنع بطريقة فيها كثير من الاستخفاف . وفى أيام شبابى حين كنت أكثر نشاطا منى الآن ، لا أذكر أنى كسرت كرسيا قط ، الا فى الحانات بذراعى !

فابتسم سان اينيان ، بينما استطرد بورتوس يقول :

ـ على أن ذلك لا علاقة له مطلقا بزيارتى هذه يا سيدى ، فقد جئت لكى أقول لك : انك أهنت صديقا لى اهانة شديدة !

فتساءل سان اينيان متعجبا : « أنا يا سيدى أهنت صديقا لك ؟ !.. أتسمح بذكر اسمه ؟ »

فقال : « اسمه المسيو راؤول دى براجلون »

فصاح سان اينيان : « اننى لا أعرفه الا معرفة سطحية ، بل الواقع أنى لا اعرفه مطلقا ، ثم هو يقيم بانجلترا منذ وقت طويل ، فمن المحال أن أكون قد أهنته ! »

فقال بورتوس فى هدوء : « ان المسيو دى براجلون فى باريس يا سيدى ، وأنا أؤكد لك أنك أهنته ، ما دام هو نفسه قد أخبرنى بذلك. أجل يا سيدى لقد أهنته اهانة بالغة مميتة !. ولا يمكن أن تكون غير عالم بذلك ، لأن المسيو دى براجلون ذكر لى انه اخبرك به فى مذكرة تركها لك اليوم ! »

فقال سان اينيان : « اقسم لك بشرفى انى لم أتسلم اية مذكرة منه . وسأقنعك الآن بصحة ما أقول ! »

ثم دق الجرس يدعو الخادم فلما جاء هذا سأله : « كم عدد الخطابات والمذكرات التى وصلت الى اليوم أثناء غيابى ؟ »

فقال الخادم : « عددها ثلاثة يا سيدى الكونت : مذكرة المسيو دى فيسك ، وأخرى من مدام لافيرتيه ، وخطاب من المسيو دى لاس فوينيتيس »

فأشار له سان اينيان الى بورتوس وقال له :

ـ أريد يا باسك أن تذكر الحقيقة كاملة أمام هذا السيد . ولن يلومك أحد قط !

فقال باسك : « كانت هناك أيضا مذكرة من ... من الآنسة دى لا فاليير ... »

فقاطعه بورتوس قائلا لسان اينيان : « هذا يكفى !.. انى أصدقك يا سيدى الكونت »

فصرف سان اينيان الخادم وتبعه الى الباب لكى يوصده خلفه . ولما فعل

ذلك نظر امامه عفوا فرأى فى قفل الجناح المجاور تلك الورقة التى دسها براجلون فقال : « ما هذا ؟ مذكرة فى ثقب المفتاح ؟ ! »

وكان بورتوس جالسا وظهره الى الغرفة ، فاستدار ليرى ما هناك ، ثم قال : « لعلها المذكرة التى حدثتك عنها يا سيدى الكونت ؟ »

فنظر سان اينيان الى الورقة وصـاح قائلا : « مذكرة من المنسيو دى براجلون ؟ !. هذا أمر شائن !. كيف استطاع المجيء الى هنا ؟ »

ثم عاد فدق الجرس ، ولما جاء الخادم سأله غاضبا : « من الذى جاء الى هنا أثناء غيابى ؟ »

فقال الخادم : « لا يمكن ان يكون أحد قد دخل هنا يا سيدى لانى أحفظ المفاتيح فى جيبى »

فقال له : « لقد وجدت هذا الخطاب فى ثقب المفتـاح ، ولا بد ان أحدا وضعه فيه لأن الخطاب لا يستطيع ان يأتى وحده ! »

فبسط باسك كفيه دلالة على جهله كل شيء عن هذا الموضوع . وقال بورتوس :

ـ ربما كان المسيو دى براجلون نفسه هو الذى وضعه هنا

فقال الخادم بعناد : « كلا يا سيدى !.. لأنه ليس فى استطاعة أحد أن يدخل الى هنا والمفتاح فى جيبى ؟ »

فضغط سان اينيان على الخطاب فى يده بعد ان قرأه وتمتم قائلا :

ـ ان فى هذه المسألة سرا خفيا !

وتركه بورتوس يفكر قليلا ثم عاد الى المهمة التى جاء من اجلها فقال له بعد أن خرج الخادم :

ـ الا نعود لمسألتنا الصغيرة يا سيدى ؟

فقال سان اينيان : « احسبنى أستطيع فهمها من هـذه المذكرة التى وصلت الى هنا بطريقة خفية . لقد كتب فيها المسيو دى براجلون أن أحد أصدقائه سيزورنى لكى يطلبنى للمبارزة ، وهو يشكو من أننى أهنته ! »

فقال بورتوس : « اننى انا ذلك الصديق الذى أشار اليه ، وانا على يقين من انك أهنته ، واذا كان مسلكه خفيا كما تقول فان اللوم يقع عليك انت ! »

ثم نهض وانحنى أمام سان اينيان باحترام وقال :

ـ انك يا سيدى قد غيرت مسكنك ، وهذه أول اهانة منك للمسيو دى براجلون !

فقال سان اينيان : « كيف يكون فى تغيير مسكنى اساءة الى المسيو دى براجلون ؟. هل لك يا سيدى أن تتفضل بشرح ذلك لانى لم أفهم منـه شيئا ؟ »

فقال له بورتوس : « هـذا هو السر الاول الذى يشكو منه المسيو دى

براجلون . وما كان ليشكو منه لولا شعوره بأن فيه اهانة له ! »

فضرب سان اينيان بقدمه الارض فى غيظ وقال : « يبدو أن هناك سوء تفاهم !. وعلى كل حال .. هل هناك شيء آخر يشكو منـه المسيو دى براجلون ؟ »

فقال بورتوس : « يكفى يا سيدى انك لم تجد ما تبرر به الاهانة التى لحقت بالمسيو دى براجلون من جراء تغييرك مسكنك ! »

فصاح سان اينيان وقد نفد صبره : « اكان ينبغى لى ان أستشير المسيو دى براجلون قبل ان ابدل مسـكنى ؟ !. لا يمكن ان تكون جادا فى هـذا يا سيدى ! »

فقال بورتوس فى هدوء : « على اى حال ، انا موقن بأن صـديقى دى براجلون قد اهين بذلك التصرف .. وهناك اهانة اخرى لم نتحدث عنها بعد ، واعنى بها وجود الباب السرى ! »

وهنا شحب وجه سان اينيان ، ودفع كرسيه بغتة الى الوراء بحيث ادرك بورتوس ، على بساطته ، أن الرمية قد أصابت . ثم تمتم سان اينيان قائلا : « الباب السرى ؟ ! »

فقال بورتوس : « اجل يا سيدى !. فهل وضح الأمر الآن ؟ »

فطاطأ سان اينيان رأسه وتمتم قائلا : « لقد خاننى احد . لقد عرف كل شيء ! »

فقال بورتوس دون أن يفقه شيئا :

ـ ان ضميرك مثقل بالذنوب يا سيدى ، وموقفك صعب. واذا علم الناس كل شيء عن الموضوع ...

وكان بورتوس يقول ذلك عفوا ولكن سان اينيان ارتاع وقال له :

ـ كلا يا سيدى !.. ان مثل هذا السر لا يصح أن يعرفه أحد ، حتى ولا القس الذى يتلقى الاعتراف !. وما دام المسيو دى براجلون قد وقف على السر ، فلا ريب انه يدرك الخطر الذى تعرض له هو وغيره !

فقال بورتوس : « ان المسيو دى براجلون ليس معرضا لأى خطر ، وهو لا يهاب شيئا كما سترى بنفسك قريبا ! »

فقال سان اينيان لنفسـه : « ان هذا المخلوق مخبول العقل ولا شك فى ذلك »

ثم قال لبورتوس : « فلندفن هذا السر ! »

فقال بورتوس : « بقى أمر ثالث بعد تغيير المسكن والباب السرى ، وذلك هو امر الصورة المعلقة ... »

فحملق فيه سان اينيان فى دهشة وقال : « آه ؟ !.. صورة لافاليير . لقد تذكرت يا سيدى !.. ان المسيو دى براجلون كان قد خطبهـا أليس كذلك ؟ »

فاتخذ بورتوس هيئة الرزانة والوقار ، مع جهله بالموضوع كله ، وقال :

ــ لا يهمنى مطلقا ولا يهمك أنت أيضا ان كان قد خطبها أم لم يخطبها . بل انا فى دهشة من اشارتك الى ذلك ، فقد يسىء هذا الى موقفك !

فقال سان اينيان : «سيدى ، لقد تجسم فيك الذكاء والرقة والاخلاص.. لقد وضح الأمر لعينى الآن ، بعد أن بينتــه لى بطريقــة غاية فى الرقة والكياسة . فاقبل يا سيدى منى جزيل الشكر ! »

فسر بورتوس بهذا المديح الذى لا يستحقه ، بينما واصل سان اينيان كلامه فقال :

ــ والآن وقد وقفت على كل شىء ، اسمح لى أن أوضح ...

فهز بورتوس راسه دلالة على انه لا يريد أن يسمع ، واستطرد سان اينيان قائلا :

ــ انى فى دهشة حقا من كل ما وقع . ولكن .. لو انك كنت فى مكانى ، ماذا كنت تفعل ؟. تعال .. خبرنى فيما بيننا !

فقال له بورتوس : « ايها الشاب ، لا مجال للسؤال عما كنت افعله . انك الآن قد وقفت على الأسباب الثلاثة لشكاية صديقى منك »

فقال سان اينيان : « أما السبب الاول ، اعنى تغييـر مسكنى ، فليس يخفى على فطنتك اننى ما كنت أستطيع الا ان افعل ذلك تنفيذا لرغبة الشخصية العظيمة التى يجب أن تطاع »

وهم بورتوس بالرد ولكن سان اينيان لم يدعه يتكلم وقال :

ــ آه !. ان صراحتى قد اقنعتك .. انك تشعر بانى على صواب !

فلم يجب بورتوس واستمر سان اينيان فى كلامه فقال :

ــ انى امر من ذلك الباب السرى . ذلك الباب الذى هو اداة شقاء كثير ، والذى صنع لأجل ... انت تعرف طبعا ... افتحسب اذن انى أنا من تلقاء نفسى أمرت باقامة ذلك الباب ؟ كلا !. انك لا تصدق ذلك .. وهنا ايضا لا بد لك ان تقدر تأثير ارادة تلك الشخصية العظيمة ، بل تستطيع أن تتصور الوله بل العاطفة العمياء التى حفزت الى ذلك . ولا شك أن من حسن حظى انى أحدث رجلا مثلك أوتى عقلا راجحا وشعورا رقيقـا . ولولا ذلك لوقعت الفضيحة على تلك الفتاة البائسة وعلى تلك الشخصية العظيمة !

فشعر بورتوس بالحيرة والدهشة حيال هــذا البيان ، وحاول أن يصد تدفق الكلام من فم سان اينيان ، ولاسيما أنه لم يفهم كلمة منه ... ومكث منتصب القامة بلا حراك فى مقعده . ثم استطرد سان اينيان فقال بصوت متهدج من فرط التأثر :

ــ أما الصورة ، وأنا أعتقد أنهــا السبب الرئيسى للشــكوى ، فقل لى صراحة : هل انا الملوم ؟ أانا الذى أردت أن ترسم لها صورة ؟. أم أنا الذى شغفت بها حبا ؟. أو سعيت فى سبيل كسب محبتها ؟. كلا يا سيدى !.. وقد يكون المسيو دى براجلون فى حالة يأس بسبب نكبته القاسية . ولكنى أنا ايضا أتألم !.. ومع هذا لا مجال للمقاومة . وافرض أننا قاومنا ، سنكون موضع السخرية. وإذا أصر على مسلكه فانه ضالع لا محالة. والآن.. اتبين فى ملامحك الجادة أنك قد فهمتنى ، وانك قدرت الموقف الدقيق الذى نحن فيه . وعلى هذا أرجو أن تعود الى المسيو دى براجلون وتقدم له شكرى ، على ان اختار وسيطا له مثل كفايتك . وثق بأنى سأظل اذكر صنيع الرجل الذى عرف كيف يزيل بلباقته سوء التفاهم الذى قام بيننا . ولما كان سوء الطالع قد أبى الا أن يعرف السر أربعة أشخاص بدلا من ثلاثة ، فانه ليسرنى ان أشاركك فى هذا السر . ومنذ الآن أرجو أن تعدنى صديقــا لك ، وأن تضعنى فى خدمتك . وما عليك الا أن تتكلم لأؤدى لك أية خدمة تريدها !

فقال له بورتوس : « سيدى .. ان أمام الباب جوادا ينتظر ، وهو جواد أصيل تستطيع أن تركبه ... »

فقال سان اينيان : « أركبه ؟ ! ولماذا ؟ »

فقال : « لكى تصحبنى الى حيث ينتظرك المسيو دى براجلون ! »

فهز سان اينيان راسه دلالة على انه فهم وقال : « انه يريد أن يتحدث معى ليقف على التفاصيل ؟. لكن وا أسفاه يا سيدى !. .انها مسألة دقيقة ، ولست استطيع مغادرة القصر الآن لأن الملك ينتظرنى ! »

فقال بورتوس : « على الملك أن ينتظر اذن !. ان الأمر لن يســتغرق سوى ساعة واحدة ! »

فسأله سان اينيان : « أين ينتظرنى المسيو دى براجلون ؟ »

فقال بورتوس : « انه ينتظر فى غابة فنسين عند مينيم ! »

وسكت سان اينيان قليلا ثم قال : « أليست مينيم هى المكان الذى تقع فيه المبارزات ؟.. اذن .. ماذا نفعل هناك ؟ »

فاستل بورتوس سيفه وقال : « ان سيف صديقى طول هذا السيف ! »

فصاح سان اينيان قائلا : « ماذا تقول ؟.. لا شك انك جننت ! »

فاحمر وجه بورتوس من الغضب وقال له : « لولا أنى فى بيتك ، ولولا انى أمثل المسيو دى براجلون ، لقذفت بك من النافذة !.. والآن ماذا ترى : أتأتى معى الى مينيم طوعا .. أم تضطرنى الى أن أحملك حملا ؟ »

وهنا صاح سان اينيان يدعو (باسك) خادمه . ودخل هذا وقال له :

ــ سيدى .. ان الملك ينتظر فخامتك !

فنهض بورتوس وقال : « حسنا يا سيدى .. سأتركك الآن ريثما تفرغ من مقابلة الملك .. والى اللقاء مساء اليوم »

منافسة سياسية

عاد الملك لويس الرابع عشر من نزهته الشاعرية السعيدة الى القصر ، فعلم أن المسيو فوكيه ينتظر هناك ، كما أن المسيو كولبير ينتظر بالردهة

وكان كولبير من الساسة الذين لا يعجبون الا بالبراعة والدهاء ، ولا يرون فى الحياة غاية أحق بالعناية من الفوز بالمآرب . على أنه لم يكن رجلا حسودا حقودا فقط ، بل كان فى الواقع يهمه صالح الملك والدولة ، وكان على أقصى درجة من النزاهة فى كل ما يتعلق بالحسابات والأرقام ، وقد حدث نفسه بأنه انما يكره فوكيه ويسعى فى ابعاده تحقيقا لصالح الدولة ورعاية لكرامة التاج . ولم يفت فوكيه شىء مما يدور بخلد عدوه بل كان ينفذ بنظرة منه الى أعماق فؤاده ، ويتبين ما يكنه من الحقد له ومن الفرح بالظفر القريب ، لكنه جاهد لاخفاء عواطفه حتى لا يعرف خصمه ما فى قرارة نفسه ، وظل رابط الجأش ، لا تدل ملامحه على شىء ، بل يبتسم ابتسامته الرقيقة التى عرف بها

وكان كولبير جالسا فى حضرة الملك حين دخل عليه المسيو فوكيه ، فلم يكلف هـذا نفسه عناء النظر الى منافسه اللدود بل اتجه الى الملك بكل مشاعره فى اجلال ولباقة قائلا : « انى يسعدنى حقا أن أرى فى وجه مولاى صاحب الجلالة دلائل الرضا عن نزهة اليوم ! »

فقال الملك له : « حقا !. لقـد كانت نزهة طيبة يا جناب الوزير ، ولقد فاتك بتخلفك عنها خير كثير ! »

فقال فوكيه فى أسف واعتزاز : « كنت مشغولا بالعمل يا مولاى ! »

وواصل الملك كلامه فقال : « آه لو كنت معنا يا مسيو فوكيـه ! . ان جمال الريف لا يعدله اى جمال آخر . وددت لو أعيش دائما هناك حيث الهواء الطلق والأشجار الوارفة الظلال .. ان الجلوس على بساط العشب الأخضر الناعم لهو شىء مريح حقا ! »

فانتهز فوكيه هذه الفرصة وقال : « ان جلالتك اذ تقول ذلك انما تحقق امنية هى أعز أمانى ، وقد جئت اليوم معتزما رفع أمرها الى مقام مولاى ! »

فسأله الملك : « أية أمنية تعنى ؟ » . فأجاب بقوله : « لقـد تفضلت جلالتك يوما فوعدتنى وعدا ... »

واومأ الملك براسه دلالة على انه يذكر ذلك ، بينمـا تدخل كولبـير فى الحديث ليثبت وجوده ، وقال للملك :

ـ أظن يا مولاى أن ذلك الوعد كان فى شأن المهرجان التقليدى المشهور الذى يقام بمنطقة فو ؟

على أن فوكيه تجاهل عبارة كولبير ، بل تجاهل قائلها نفسه ومضى فى حديثه قائلا دون أن يعيره أى التفات :

ـ ان جلالة الملك يعلم انى اعددت مزرعتى فى (فو) كيما تليق لاقامة مهرجان فخم يشهده صاحب الجلالة ومن يختارهم من المقربين ، كما وعد جلالته بذلك

فابتسم لويس الرابع عشر وقال : «لقد وعدتك ، والملك لايخلف وعده ! »

فانحنى الوزير شاكرا وقال : « انى لعلى استعداد لتنفيذ كل التعليمات التى يتفضل بها صاحب الجلالة فى هذا الشأن »

فقال له الملك بعد ان وجه نظرة عجلى الى كولبير :

ـ هل يعدنا جناب الوزير بعجائب كثيرة فى المهرجان ؟

فبقى كولبير مطرقا ، وسارع فوكيه الى الاجابة عن السؤال الملكى فقال :

ـ ان مولاى يعلم انى لا أدعى الاتيان بالعجائب ، ولـكنى أبذل جهـد استطاعتى لأوفر لمولاى ما يدخل على قلبه السرور

فقال الملك مزهوا : « انك حقا جدير بأن تأتى بالعجائب . انك ساحر يا جناب الوزير ، ونحن جميعا نعرف مقدرتك ونعرف أنك تستطيع ان تجد الذهب حيث لا يلقى غيرك الا التراب . ألم تعلم بما يدور عن معجزاتك هذه على السنة الناس ؟ »

فشعر فوكيه بما وراء عبارة الملك من معان خفية ، وأيقن أن كولبير له نصيب كبير منها ، برغم استمراره فى التجاهل . ورأى أن يسـتمر هو ايضا فى تجاهل كولبير ، فابتسم وقال للملك :

ـ ان النـاس يعلمون تمام العلم من اى منجم احصـل على الذهب ، ومولاى يعلم ذلك قبلهم !. على انى مع هذا أؤكد لصاحب الجلالة أن الذهب لنفقات مهرجان (فو) لا يساوى الا قليلا من الجهود التى بذلت فى سبيل تدبيره !

فسكت الملك ، ولم يجد من اللائق به أن ينظر الى كولبير ليرى مدى تأثره برد فوكيه ، وهم كولبير بأن ينظر الى الملك ، ولكن فوكيه أسكته بنظرة كبرياء كنظرة النسر . ثم تمالك الملك أعصابه والتفت الى فوكيه قائلا :

ـ هل اعد نفسى الآن مدعوا الى المهرجان ؟.. فى أى يوم اعتزمت اقامته ؟

فقال فوكيه : « فى اى يوم تراه جلالتك مناسبا لذلك »

فقال له الملك : « انك تتكلم كساحر يستخدم الرقى ويجعل من اعجب التخيلات حقائق لا شك فيها ! »

فقال فوكيه : « ذلك بفضل رضا مولاى صاحب الجلالة ، وليس لخدم

جلالتكم الا ان يعملوا جاهدين لينالوا رضاكم الكريم ! »

وحاول كولبير ان ينظر الى فوكيه ، ولكن هذا لم يلتفت اليه ، وبقى ينظر الى الملك ، وقال هذا أخيرا :

ــ هل يمكن أن يقام المهرجان بعد اسبوع من اليوم ؟

فقال فوكيه : « أجل يا مولاى » . وعاد الملك يقول : « « نحن الآن فى يوم الثلاثاء ، وأمامك مهلة حتى يوم الأحد بعد القادم »

فبدا السرور واضحا على محيا فوكيه وقال : « ان المهلة التى تفضل بها صاحب الجلالة ستساعد كثيرا على انجاز الاعمال المختلفة التى يقوم بها المهندسون الآن »

فابتسم الملك بدوره وقال : « هل جناب الوزير كون فكرة عن المدعوين ؟ »

فقال فوكيه : « ان جلالة مولاى هو السيد الآمر فى كل مكان ، وانى لفى انتظار تفضل جلالته باصدار التعليمات لدعوة من شاء ، وسأكون فى خدمة جلالته وجميع مدعويه ! »

فتأثر الملك بلهجة النبل هذه وقال : « شكرا لك يا جناب الوزير »

ثم استأذن فوكيه فى الانصراف ، بعد أن استمع لبعض الارشادات الملكية فى شؤون عامة . وخيل اليه وهو ينصرف أن كولبير قد تنفس الصعداء ، ولا يلبث قليلا حتى يعود الى دسائسه ضده لدى الملك ، فرأى الا يمضى قبل أن يوجه اليه ضربة أخيرة قاسية ، والتفت الى الملك بعد أن بلغ الباب ، وقال له :

ــ عفوا يا صاحب الجلالة !.. لقد أتيت خطأ جسيما دون أن أنتبه اليه !

فقال الملك متعجبا : « أى خطأ ؟.. انك يا جناب الوزير لم تخطىء فى شىء ! »

فقال فوكيه : « كان على أن أخبر جلالتك بأمر قليل الأهمية خاص بى وقع أخيرا ... »

فارتعد كولبير ، اذ حسب أن فوكيه سيفضحه ويكشف للملك ما كان من مسلكه نحوه ، ثم اشتد روعه حين سمع فوكيه يقول للملك :

ــ اننى فى صباح هذا اليوم بعت أحد مناصبى الرسمية التى اشغلها !

فسأله الملك : « أى هذه المناصب تعنى ؟ »

فأجاب قائلا : « منصب النائب العام ! »

فبدت الدهشة على الملك ، والتفت على الرغم منه الى كولبير الذى كاد يغمى عليه . ثم قال لفوكيه : « لمن بعت هذا المنصب يا جناب الوزير ؟ »

فقال : « بعته الى مستشار بالبرلمان يدعى فانيل .. وهو صديق للمسيو كولبير ! »

وقد حرص فوكيه على أن ينطق بهذه العبارة الاخيرة وكأنه ينطق بها عفوا دون اهتمام . فزاد هذا فى قلق كولبير . وما كاد يطمئن قليلا بعد انصراف فوكيه حتى نظر الى الملك ، فسأله هذا :

ــ كيف يقع فوكيه فى مثل هذا الخطأ ؟

فلم يجب كولبير ، لكنه شعر بالارتياح لادراك الملك جسامة الخطأ الذى ارتكبه فوكيه ببيع ذلك المنصب ، وأيقن أن أول خطأ يرتكبه فوكيه سيعرضه للنكبة التى لا وقاء له منها

ودعا الملك كولبير الى مهرجان فو ، فانحنى شاكرا . وهم الملك بأن يكتب اسم الكونت دى سان اينيان فى قائمة المدعوين واذا بالحاجب قد جاء يعلن قدومه ، فاستأذن كولبير فى الانصراف ، وخرج قبل أن يدخل سان اينيان



لم يكن قد مضى اكثر من ساعتين على انصراف سان اينيان من حضرة الملك ، ولكنه كان يعلم أن الملك فى فورة حبه لافاليير ، يروقه أن يسمع منه أى حديث عنها ، ولا يكاد يستغنى عنه لهذا السبب

وقال له الملك حين رآه داخلا : « لقد جئت فى الوقت المناسب ، فأنت ولا شك ستكون من المدعوين الى المهرجان !»

فبدت الدهشة فى وجهه وقال : « أى مهرجان يا مولاى ؟ »

فقال الملك : « سنسافر جميعا الى (فو) .. حيث يقيم وزير المالية مهرجانا كبيرا يجمع فيه كل أسباب التسلية ! »

فقال سان اينيان : « هل وزير المالية يقيم هذا المهرجان تكريما لجلالتك فقط ؟ »

فقال الملك : « نعم ، ولكن الناس لا يكادون يعلمون بأن المسيو فوكيه سيستقبلنى هناك يوم الأحد القادم ، حتى يبذلوا قصارى جهدهم لكى يدعوا الى المهرجان !. اما انت فمدعو اليه طبعا منذ الآن ! »

فقال : « انى لأشكر مولاى كل الشكر على تكريمى بالدعوة الى هذه الرحلة السعيدة .. ولكنى أخشى الا أستطيع القيام بها ، لأن لدى رحلة أخرى قبل هذا الموعد ! »

فسأله الملك متعجبا : « وما هذه الرحلة الاخرى ؟ » . فأجاب : « رحلة أطول جدا ، لكنها أقل سرورا ، لأنها رحلة الى العالم الآخر ! »

فضحك لويس الرابع عشر ولكن سان اينيان استمر يقول :

ــ انى اتكلم بجد يا مولاى ، فقد دعيت الى رحلة من هذا القبيل . وقد تلقيت الدعوة بصورة لا أدرى معها ماذا أقول أو أفعل لكى ارفضها !

فقال الملك : « انى لا افهمك ! . وانا اعرف انك شاعر ، لكنى أرجو أن

تحاول ان تهبط قليلا من عالم الشعر الى عالم الحقيقة ! »

فقال : « اتعرف جلالتك البارون دى فالون ؟ »

قال : « أجل !. لقد كان من خدام أبى المخلصين ، وهو رفيق مسل على المائدة . الست تقصد ذلك السيد الذى تناول الطعام معنا فى فونتينبلو ؟ »

فقال : « أجل يا مولاى !. ولكن جلالتك لم تذكر ضمن مزاياه انه قاتل من أحسن أنواع القتلة ! »

فسأله الملك : « ماذا تقول ؟. هل المسيو دى فالون يريد ان يقتلك ؟ »

فقال : « أو يريد أن يرانى مقتولا ، والنتيجة واحدة على كل حال ! »

فضحك الملك ، ثم اخذ سان اينيان يشرح له الامر ، فلما انتهى من ذلك قال له الملك :

— اطمئن ، فسأدافع عنك ، اذا كان هو المخطىء !

فقال : « ان جلالتك ستكون الحكم . والواقع انى لم أفعل شيئا يغضبه ، ولكن يبدو ان أحد أصدقائه يحسبنى أسأت اليه !. وصديقه هذا ابن واحد من الفرسان المشهورين ، وهو يزعم أنى ساعدت غيره على أخذ حبيبته منه ! »

وهنا سأله الملك : « وهل هذا الأمر صحيح ؟ » . فقال : « نعم . أعترف بانه صحيح ! »

فقال الملك : « فى هذه الحالة تكون أنت المخطىء ، واذا قتلك فانه يكون على حق ! »

فقال سان اينيان : « انها طريقة سريعة على أى حال ! »

فقال الملك : « ان العدالة الطيبة سريعة الأداء . هذا ما كان يقوله جدى هنرى الرابع ! »

فقال : « فى هذه الحالة أرجو من جلالتك ان توقع أمرا بالعفو عن خصمى لانه ينتظر الآن فى مينيم لانهاء شقائى ! »

قال : « اذكر اسمه ، وائتنى بورقة »

فقال : « يوجد ورق على مكتب جلالتك . أما اسمه يا مولاى ، فهو الفيكونت دى براجلون »

فصاح الملك وقد تبدل سروره ذهولا : « الفيكونت دى براجلون الذى كان خطيب ... »

فقال سان اينيان : « اجل يا مولاى ! »

فقال : « ولكنه فى لندن ؟ » . قال : « أؤكد لك يا مولاى أنه لم يعد هناك الآن ! »

فسأله « هل هو فى باريس اذن ؟ »

— انه فى غابة مينيم يا مولاى ، فى انتظارى ، كما تشرفت باخبارك منذ لحظة

— أيعلم كل شىء ؟

— أجل ، وأشياء أخرى كثيرة ، فضلا عن ذلك . لعل جلالتك تحب أن تلقى نظرة على الخطاب الذى وصل الى منه

واخرج سان اينيان من جيبه خطاب راءول ثم قال :

— بعد أن تقرأ جلالتك هذا الخطاب سأخبرك كيف تسلمته

فقرأ الملك الخطاب وهو فى هياج ظاهر . ثم قال له سان اينيان :

— ان جلالتك تعرف قفلا معينا موضوعا فى باب معين من خشب الآبنوس يفصل بين جناح معين وبين محراب معين ذى لون أبيض وازرق

فسأله : « لعله مخدع لويز ؟ . . اليس كذلك ؟ »

فقال : « أجل يا مولاى . لقد وجدت هذا الخطاب فى ذلك القفل . . ولست أدرى من وضعه هناك : أهو المسيو دى براجلون أو الشيطان نفسه ؟. ولكن لما كان تفوح منه رائحة الكهرمان لا الكبريت فالأرجح أن براجلون هو الذى وضعه ! »

فاطرق الملك ، واستغرق فى تفكير حزين . وربما شعر فى تلك اللحظة بشىء من وخز الضمير . ثم قال : « لقد كشف السر اذن ؟ ! »

فقال : « سأبذل قصارى جهدى لكى يدفن ذلك السر فى صدر الرجل الذى يعرفه ! »

وتظاهر بالشجاعة ، ومضى صوب الباب ، فقال له الملك : « الى اين ؟ » . . فقال : « الى حيث ينتظرنى الفارس الصغير . . للمبارزة ! »

واومأ سان اينيان مؤكدا انه راغب فى المبارزة حريص عليها ، وبدا فى هذه اللحظة أشبه بطفل عنيد يصر على الانتحار أو يترك ليستمر فى اللعب بمدية فى يده . ولكن الملك استوقفه وسأله :

— من أين علمت بأن المسيو دى براجلون دخل تلك الغرفة ؟

فقال : « علمت ذلك من الخطاب الذى وجدته فى ثقب المفتاح !. صحيح ان أحدا لم يذكر لى أن دى براجلون هو الذى وضعه هناك بنفسه ، ولكن . . من ذا الذى يجرؤ على ذلك غيره ؟ ! »

فعاد الملك يسأله : « لكن كيف استطاع الدخول الى غرفك ؟ »

فقال سان اينيان : « هذا أمر خطير حقا يا مولاى !. ان جميع الأبواب كانت مغلقة ، والمفاتيح كانت فى جيب (باسك) خادمى »

فسأله : « أليس من الجائز أن يكون خادمك اخذ رشوة ؟ ! »

فأجاب قائلا : « هذا محال يا مولاى . لانه لو قبل الرشوة لحرص الذين

رشـوه على كتمان امره للانتفـاع به فى خدمات أخرى مماثلة بدل أن يكشفوه ! »

فأومأ الملك برأسه موافقا وقال : « اذن .. لم يبق الا أن يكون أحد قد تمكن من الدخول بوساطة السلم ؟ »

فقال سان اينيان : « هذا ما أرجحه يا مولاى ، وارى أن أحدا قد باع سر الباب الخفى أو تبرع بافشائه ، فهناك أشخاص معينون هم فوق ثمن الخيانة ، وهم لذلك يعطون ولا يبيعون ! »

فبدت الدهشة فى وجه الملك ، ثم أطرق هنيهة مفكرا ، وقال أخيرا :

ـ ان كنت تقصد المدام ، فأنت على صـواب !. وأحسـبها قد ثارت شكوكها من تغيير مسكنك ؟

فقال سان اينيان : « ان لدى المدام مفاتيح لغرف وصيفاتها ، ولها من السلطان ما يمكنها من كشف أى سر تشاء »

وقال الملك : « اذن .. أنت تحسب ان زوجة أخى تحالفت مع براجلون واخبرته بتفاصيل المسألة ؟ »

فقال : « نعم يا مولاى ، ولعلها زادت على ذلك فصحبته الى حيث أراد الوصول ، وقد تعلم جلالتك أن للمدام خبرة بالروائح العطرية ، ولاسيما عطر (اللويزا) الذى تؤثره على غيره »

فسكت الملك وأخذ يفكر ، ثم قال بعد هنيهة : « ولكن لماذا تنتصر المدام لبراجلون ضدى ؟ »

ونظر الى سان اينيان ليتبين اهو على علم بسر مغازلته لزوجة أخيه ؟. ولكن سان اينيان كان أحصف من أن يجـازف بكشف مثل ذلك السر ، فأجاب قائلا :

ـ ان جلالتـك تنسى على ما أظن أن دى جيش هو الصـديق الحميم للفيكونت دى براجلون !

فقال الملك : « لست أجهل هـذه العلاقة ، ولكن ما صلتها بمسألتنا هذه ؟ »

فقال سان اينيان : « عفوا يا مولاى !.. أليس الكونت دى جيش من أصدقاء المدام ؟ »

فقال الملك : « اذن .. جاءت الضربة من هذه الناحية ، ولا بد من أن نضرب من جانبنا ضربة قوية ، ولكن على ألا تكون من نوع الضربات التى تتبادل فى غابة فنسين ! »

فقال سان اينيان : « لكنك تعلم يا مولاى أنى طلبت للمبارزة ، وهناك من ينتظرنى فى مينيم منذ ساعة . وسأفقد شرفى اذا لم أذهب الى هناك ! »

فقال الملك : « انك لست المقصود بذلك التحدى ، وأول واجب عليك

ان تطيع مليكك قبل كل شيء . وها أنذا آمرك بألا تذهب . كما أنى أريد الوقوف على كل صغيرة وكبيرة فى هذه المسألة لأعرف من المسـئول عن الاستخفاف بى والتجسس على محراب عواطفى بمثل تلك الوقاحة .. أن الاعتداء وقع على شرفى يا مسيو سان اينيان ، وهذا أدعى الى أن تنزل بالمعتدين أقصى ما تستطيع من عقاب ! »

فقال سان اينيان : « انى أتوسل الى جلالتك الا تمعن فى غضبك على المسيو دى براجلون .. ان ولاءه لا تشوبه شائبـة برغم ما بدا من قلة تبصره ! »

فأشار اليه الملك أن يسكت قائلا له : « كفى !. سأعرف كيف أفرق بين العدل والظلم مهما يشتد بى الغضب . ولكن حذار أن تصل كلمة من كل ذلك الى المدام ! »

فقال سان اينيان : « ولكن ماذا أصنع ازاء المسيو دى براجلون ؟ انه سيبحث عنى فى كل مكان و ... »

فقطع الملك كلامه قائلا : « لن ينتهى هذا المساء حتى أكون قد كلمته أو بعثت اليه من يكلمه ! »

وحاول سان اينيان أن يعود الى استعطاف الملك ليكون رحيما بالمسيو دى براجلون ، ولكن الملك أسكته وقال وهو مقطب الجبين :

ـ لقد كنت رحيما أكثر مما ينبغى يا كونت . وقد حان الوقت لأن أبين لبعض الناس أنى سيد قصرى !

وهنا ظهر حاجب بالباب وقال للملك :

ـ مولاى .. ان الكونت دى لافير ينتظر الاذن له فى المثـول بين يدى جلالتك !

فتبادل الملك وسان اينيـان نظـرة تدل على القلق أكثر مما تدل على الدهشـة ، ثم قال له الملك بعد هنيهة :

ـ اذهب الآن الى لويز ، واخبرها بالدسيسة التى حيكت ضـدنا . وصارحها بأن المدام ستعود الى اضطهادها ، وبأنها بدأت تستخدم فى ذلك أناسا كان خيرا لهم لو بقوا على الحيـاد ! . ولا تنس أن تطمئنهـا قدر استطاعتك . وأن تؤكد لها أن حب الملك لها كفيل بأن يقيها كل سوء. واذا كانت كما أتوقع قد تعرضت لهجوم من أى أحد فلا تنس أن تؤكد لها أننى فى هذه الحالة لن اكتفى بأن أدافع عنها ، بل سأنتقم لها انتقاما رهيبا يردع كل انسان فى المستقبل عن أن يرفع بصره اليها !

فتناول سان اينيان يد الملك وقبلها ، ثم غادر الغرفة والدنيـا لا تكاد تسعه لفرط شعوره بالسعادة !

السيف المكسور

استعاد الملك رباطة جأشه بأسرع ما يستطيع ، حتى لا يبدو مضطربا أمام الكونت دى لافير ٠ وقد أدرك أنه ليس من المصادفة أن يزوره الكونت فى ذلك الظرف ، بل لابد لهذه الزيارة من أسباب مهمة ٠ ودخل الكونت بعد قليل مرتديا ثيابه الرسمية ، وعلى صـدره من الأوسمة مجموعة لم يتح مثلها لغيره من رجال البلاط ٠ وكانت هيئته تنطق بما رجح ظن الملك، فخطا خطوة نحوه وهو يبتسم ، ومد اليه يده ليصافحه ، فانحنى الكونت فى اجلال عميق ، بينما قال الملك :

— أى حظ حسن جاء الينا اليوم بالكونت دى لافير ؟

فانحنى الكونت مرة أخرى وقال : « ان أكبر أمنيـة لى أن أنعم دائما بالقرب من صاحب الجلالة ! »

وأدرك الملك ما يرمى اليه دى لافير فقال له متكلفا الابتسام : « يلوح لى أن لديك ما ترغب فى التحدث عنه،وانه ليسرنى حقا أن أحقق أية رغبةلك!»

ثم جلس ، وتطلع الى الكونت مرهفا سمعه لما سيقوله ، فقال هـذا فى تأثر ملحوظ : « انى لعلى يقين من أن صاحب الجلالة سيمنحنى شرف النظر بعين العدل والعطف فيما أعرضه على مسامعه ٠ ولعل صاحب الجلالة يذكر ما أولانيه من العطف الكريم حين تشرفت بمقابلته بعد سفر دوق بكنجهام؟»

فأومأ الملك برأسه موافقا وقال : « نعم ، اننى أذكر تلك المقابلة ، غير أنى نسيت موضوع الحديث »

فقال الكونت : « كان الحديث عن التماسى من جلالتكم الموافقة على زواج المسيو دى براجلون بالآنسة دى لافاليير ! »

فقال الملك لنفسه : « ها هو ذا قد دخل فى الموضـوع »٠ ثم قال للكونت :

— نعم ، لقد تذكرت ذلك الآن٠كما تذكرت أنك صرحت لى بأنك قدمت ذلك الطلب على غير رغبة منك

فجاهد الكونت نفسه ليحتفظ بهدوئه وقال : « لقد وعت ذاكرتى كل كلمة سمعتها من صاحب الجلالة حينذاك ، وقد وضح لى مدى العناية الكبيرة التى يختص بها مولاى مسيو دى براجلون ، من المبادرة برفض الموافقة على ذلك الزواج »

فقال الملك : « هذا صحيح »

واستطرد الكونت فقال : « وكانت حجة صاحب الجلالة أن تلك الآنسة ليس لها مركز فى المجتمع ،كما أنها ضئيلة الثروة ، وليست عالية المنبت، وهذا عدا ضآلة نصيبها من الجمال ! »

وأصاب هذا السهم الاخير قلب الملك واستقر فيه ، حتى صـار كأنه مربوط بمقعده ولكنه تمالك نفسه وقال : « ان ذاكرتك قوية يا كونت ٠ ولهذا أحسب أنك لم تنس ما عقبت به على اضطرارك الى تقديم ذلك الطلب، من أنك تشك فى أن الآنسة دى لافاليير تحب المسيو دى براجلون ! »

ولا شك فى أن الملك نجح فى تسديد هـذه الرمية ، ولكن الكونت لم يتراجع ومضى يقول : « أهم ما فى الأمر أن صاحب الجلالة أبدى رغبته فى ارجاء ذلك الزواج مراعاة لصالح المسيو دى براجلون ، ولكن هذا نفسه لا يطيق صبرا على تأجيل الزواج ، ولذلك يرجو أن يجد لدى جلالتكم حلا عاجلا لهذه المسألة ! »

فامتقع وجه الملك وقال فى تردد : « وأى حل يريده ؟ »

فقال الكونت وهو ينظر الى الملك فى هدوء : « يريد الموافقة على الزواج»

فظل الملك صامتا ، واستطرد آتوس فقال :

— ان العوائق التى حالت دون ذلك الزواج فى الماضى قد أزيلت الآن ، والآنسة دى لافاليير العـاطلة من الثروة والجمال والنسب هى برغم ذلك الزوجة المناسبة الوحيدة للمسيو دى براجلون ، لأنه يحبها !

وسكت الملك مترددا ، ثم قال بعد هنيهة : « انى أرفض الموافقة على هذا كل الرفض ! »

فقال الكونت فى هدوء : « لقد كان لى شرف الادلاء الى مولاى بأن المسيو دى براجلون قد وطد عزمه على الزواج بالآنسة دى لافاليير ، وعلى هذا لم تبق هناك أية عقبة »

فقال الملك مغضبا : « هناك ارادتى ألا يتم هذا الزواج ، أليست هـذه عقبة يا كونت ؟! »

فقال الكونت : « هذه أشد العقبات يا مولاى ، ولهذا أستميح العفو اذ أستوضح السبب الذى حدا بجلالتك الى هذا الرفض ؟ »

فصاح الملك حانقا : « السبب ؟!٠٠ أتسألنى السبب يا كونت ؟!٠٠انك تنسى كل التقاليد المرعية فى البلاط حيث لا يجرؤ أحد على سؤال الملك ! »

فاحتفظ الكونت بهدوئه وقال : «لكن مولاى يعلم ولا شك٠أن ثمة مسائل ان لم يتفضل جلالته بالقاء الضوء عليها ، فان هذا يكون مدعاة الى انتشار الأقاويل والاشاعات ، وفى ذلك ما يوهن من ثقة الرعية بالملك وولائها ! »

فاشـتد الغضب بالملك رغم حرصه على تمالك أعصابه وقال : « انك



« وكسر الكونت سيفه على ركبته ، ثم ألقى بشطريه على الأرض ، وغادر الغرفة »

تنسى نفسك وتتعدى حدود الواجبات والتقاليد ! »

ثم نهض من مقعده ، وقال باللهجة نفسها : « والآن أيها الكونت٠٠لقد منحتك من وقتي أكثر مما كنت أريد ! »

وكان ذلك أمرا بالانصراف ، ولكن الكونت تجاهل وقال :

ـ عفوا يا مولاى !٠٠ انى لم أجد بعد الوقت الكافي لكى أدلى الى جلالتك بما جئت لأجله٠وقد عشت طول حياتي وأنا أعتقد أن الملوك فوق البشر ، لا بحكم مركزهم وسلطانهم فقط ، بل كذلك بحكم النبل المنبعث من قلوبهم والشرف الأصيل الكامن فى نفوسهم ٠ ومن هنا لا أستطيع أن أقنع نفسى بأن مليكى له قصد خفى من وراء رفض ذلك الزواج !

فسأله الملك : « ماذا تعنى ؟٠ وأى قصد خفى تشير اليه ؟ »

فقال الكونت فى برود : « سأوضح ما أعنيه ٠٠ آن النـاس يتحدثون فى كل مكان بأن صاحب الجلالة اذ يرفض زواج الآنسة دى لافاليير بالمسيو دى براجلون ، لا يرمى الى سعادة هذا ، بقدر ما يرمى الى ازاحته من طريق جلالته ، لأن جلالته يحب الآنسة دى لافاليير ٠٠! »

وهنا مزق الملك قفازه من الغيظ وصاح قائلا :

ـ الويل لمن يتدخل فى شئونى الخاصة !٠ لقد صممت على أن أتخـذ سبيلا معينا ، وسأحطم كل عائق فى سبيلى !٠٠ نعم أنا أحب الآنسـة دى لافاليير !٠وهى لا تحب المسيو دى براجلون ، وأنت نفسك أكدت هذا!!

فقال الكونت : « على كل حال يا مولاى ٠٠ لا شك فى أن موافقة جلالتك على زواجها بالمسيو دى براجلون تعد تضحية جديرة بملك عظيم مثلك من أجل رجل أدى لجلالتك أعظم الخدمات ٠ هذا الى ما فى هـذه التضحية من دليل على الكرم والعرفان بالجميل وحسن السياسة فى آن واحد ! »

فقال الملك بخشونة : « قلت لك : الآنسة دى لافاليير لا تحب المسيو دى براجلون ! »

فسكت الكونت قليلا ، ثم قال : « فى هـذه الحالة لا أفهم لماذا بعثت جلالتك بالمسيو دى براجلون الى لندن ؟٠٠ ان هذا النفى كان مثار الدهشة عند كل انسان يقدر شرف جلالتك باخلاص ! »

فصاح الملك قائلا : « من ذا الذى يجرؤ على التحدث عن شرفى يا مسيو دى لافير ؟ »

فقال : « ان شرف الملك يا مولاى من شرف نبلائه جميعا ٠ فاذا سلب الملك أحـدهم ذرة من شرفه ، فلا شك أن جلالته يسىء بذلك الى نفسه !٠ وهذا ما يدعونى الى الاصرار على البقاء فى حضرة مولاى حتى تسوى هـذه المسألة ، وليس يسع جلالتك الا الاستماع الى ٠ فأنا الآن شيخ لا يعنينى الا المحافظة على عظمة المملكة وقوتها ، ولقد طالما بذلت دمى فى سبيل أبيك وفى سبيلك دون انتظار أى جزاء ٠ وقد يزعج جلالتك أن أسألك حسابا

عما لحق بشرف ولدى وسبب شقاءه ، وقد تســـائل نفسك عن وســيلة تعاقبني بها على صراحتى هذه ، ولكن هذا كله لن يغير من الحق شيئا ! »

وكان الملك يسمع ذلك وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وقد وضع يديه فى صدر سترته ، وانبعث من عينيه شرر الغضب • ثم وقف فجأة وقال :

ـ لو اننى عاملتك كما ينبغى لأنزلت بك أشــد العقاب ، ولكنى أوثر التسامح معك • وعليك أن تعلم أن الملك ليس الا انســانا له الحق فى أن يحب !

فقال الكونت : « لو أن جلالتك أردت أن تستمتع بهذا الحق كانســـان لا ملك ، لكنت صارحت المسيو دى براجلون بذلك بدلا من نفيه ! »

فقال الملك بكبرياء : « لقد تســامحت كثيرا معك ، ولكنك تنسى أنك تخاطب ملكا !••وهذه جريمة لا يمكن أن أقرها ، ولهذا آمرك بمغادرة هذا المكان فورا •! »

فقال : « لا تنس يا مولاى أنك تحطم حياة رجلين بريئين !•• ولن أبرح مكاني هذا حتى أصارحك بأنك بهذا التصرف الغادر قد بدأت حكمك بداية سيئة ، وقد أصبحت وأسرتى بعد ذلك فى حل من كل محبة واحترام لك ، وليس لنا الآن من سيد غير الله ؟! »

فنظر اليه الملك فى كبرياء وقال : « أتهددنى ؟ »

فقال الكونت : « كلا !• ان نفسى تكره التفاخر بالشجاعة بقدر ما تكره الخوف • وقد علم الله أنى فى سبيل الدفاع عن تاجك وشرفه لا أتوانى عن بذل آخر نقطة من دمى ، بيد أنى قاتلت فى هذا السبيل عشرين سنة داخل البلاد وخارجها••فأنا لا أهددك بوصفك ملكا ولا بوصفك انسانا ، ولكنى أقول لك يا مولاى : أنك تفقد خادمين مخلصين ، لأنك قد حطمت الايمان بك فى قلب الأب ، والحب لك فى قلب الابن ، فأحدهما لا يصـــدق بعد اليوم كلمة الملك ، والثانى لا يثق بعد اليوم باخلاص الرجـــل ولا بطهارة المرأة • أحدهما قد مات فى نفسه كل شعور بالاحترام ، والآخر قد قضى فى نفسه على كل طاعة ! »

ثم كسر سيفه على ركبته ، وألقى بشطريه بتؤدة عـلى الارض ، وغادر الغرفة !

وجلس الملك الى المنضدة مهموما مشتت الذهن ، ثم ما لبث قليلا حتى نهض ودق الجرس بعنف ، فلما جاء الحجاب مرتاعين قال لهم :

ـ نادوا المسيو دارتانيان !

بعد العاصفة

غادر بورتوس القصر الملــكى مرتاحا الى تأدية مهمته كمنظم مبارزات ، وهناك فى (مينيم) لحق براءول وقص عليه تفصيل ما دار بينه وبين سان اينيان ، الى أن قال له :

ـ والآن •• لن تمضى ساعة أو ساعتان حتى يأتى الى هنا بعد انتهائه من مقابلة الملك !

فقال راءول : « انه وقد ذهب لمقابلة الملك ، لابد أن يروى له نبأ دعوته للمبارزة ، وسيمنعه الملك من قبول هذه الدعوة•وعلى ذلك لا أحسبه يأتى الينا ، وعليك أن تنتظره ساعة أخرى ، فاذا جاء ـ وهذا ما لا أرجحه ـ فأرسل فى طلبى حيث أكون فى مسكنى بعد أن أقابل أبى »

وكان الكونت آتوس ـ أبو راءول ـ قد جاء الى باريس منذ يومين ، اذ تلقى خطابا من دارتانيان أخبره فيه بما حدث • فلما دخل عليـــه راءول استقبله فى عطف وحنان وأشار اليه لكى يجلس ، ثم قال له :

ـ انى أعرف يا فيكونت أنك أتيت الى كما يأتى الرجل الى صديق ليبثه آلامه ؟!

فانحنى راءول اجلالا ، وأخذ يقص على أبيه كل ما حدث ، وهو يجاهد حتى لا تخنقه عبراته • فلما انتهى من حديثه ، قال له أبوه :

ـ انى أعتقد يا راءول أنه لا صحة مطلقا لما نمى اليك من شـــائعات ولا أنكر أنى سمعت ذلك من ثقات ، لكنى فى قرارة قلبى لا أحسب الملك يوجه مثل هذه الاساءة الى نبيل مخلص مثلك•وعلى كل حال سأجيئك بالبرهان القاطع عما قريب !

فانحنى راءول وقال لأبيه : « سأنتظر عودتك يا سيدى الكونت »

ثم جلس مخفيا وجهه فى راحتيه ، بينما ارتدى أبوه ثيـــابه على عجل ، ثم خرج الى حيث قابل الملك فى قصره • وحين عاد بعد ذلك الى بيته وجد راءول فى انتظاره بادى اليأس كما تركه ، فأعطى قبعته ومعطفه للخادم ثم صرفه وجلس قريبا من ولده • فقال له هذا :

ـ والآن يا سيدى هل استوثقت من الأمر ؟

ـ أجــل يا راءول ، ان الملك مغرم بالآنسة دى لافاليير ! وقد اعترف بذلك ، وذكر أنها تحبه أيضا !

فقال راءول وعليه دلائل اليأس · « أرأيت يا سيدى ؟ »

قال : « لقد قلت للملك كل ما كنت تريد ، بل فوق ما كنت تريد ! · وصرحت له بأن كل شيء قد انتهى بينه وبيننا ، وأنك لن تخدمه بعد اليوم ، كما أني سأعتزله أيضا ! ·· ولم يبق الآن الا أن أستوثق مما أعتزمته أنت فى شأن حبك للآنسة دى لافاليير ، وفى شأن خطتك للانتقام ! · هل طلبت مبارزة سان اينيان ؟ »

قال : « لقد بعثت اليه متحديا ، فاذا قبل التحدى فانى أبارزه »

فنظر اليه أبوه فى حزن واشفاق ، وهز رأسه أسفا دون أن يجد ما يقوله · وفيما هما مطرقان ساهمان دخل الخادم معلنا قدوم المسيو دارتانيان ، ثم دخل هذا عليهما الغرفة وعلى ثغره ابتسامة غامضة ، وبعد أن صافحهما أبقى يد راءول فى يده وقال لأبيه :

ـ ايه يا صديقى ؟! أما زلت تحاول أن تبعث العزاء فى قلب هذا الشاب المسكين ؟!

فقال له الكونت آتوس : « ها أنت ذا جئت فى الوقت المناسب لتعاوننى على أداء هذه المهمة »

وضغط دارتانيان يد راءول ، ثم قال وهو يفتل شاربه بيده الاخرى : « أجل لقد جئت أنا أيضا »

وقال راءول وهو يحاول أن يبتسم : « لقد وجدت العزاء فعلا ، وقد كان والدى منذ هنيهة يهم بأن يروى لى تفصيل الحديث الذى جرى بينه وبين الملك »

فقال دارتانيان متظاهرا بالدهشة : « حديث بينه وبين الملك ؟ · متى كان هذا ؟! »

وابتسم الكونت آتوس ، بينما تنهد راءول وقال للمسيو دارتانيان : « اذن ·· لم تكن تعلم يا سيدى أن الكونت قابل الملك ؟ · حمدا لله ! ·· ان لى أن أطمئن الآن ، فقد كان أشد ما أخشاه أن تكون صلتك الوثيقة بأبى قد دفعتك الى مصارحة الملك بألمى واستيائى ، وأن تكون زيارتك هذه ليست شخصية لكنها بوصفك قائد حرس الملك ! »

فضحك دارتانيان وقال له : « انك يا بنى العزيز لفى حاجة شديدة الى الراحة ، وأنا أنصح لك ، بعد أن قمت برحلتك الطويلة من انجلترا الى هنا ، وبعد أن زرت دى جيش والمدام وبورتوس ، وبعد ذهابك الى فنسين ·· أنصح لك بأن تذهب الى مسكنك الآن لتنام اثنتى عشرة ساعة على الاقل »

ثم جذبه اليه وعانقه كما لو كان ولده · وكذلك عانقه أبوه ثم قال له :

ـ حسنا ! · ما دمت ذاهبا الى مسكنك الآن فسنلقاك هناك !

وقال له دارتانيان وهو يدفعه الى الباب : « أجل يا بنى العزيز ، هناك شيء جديد سنعزيك به · فاطمئن وكن شجاعا كما عهدناك دائما ! »

زائرة غير منتظرة

ما كاد راءول يأخذ طريقه الى مسكنه حتى ألفى نفسه وحده وجها لوجه مع همومه وأحزانه ، ولما استرجع فى ذاكرته اقرار الملك بحبه الآنسة دى لافاليير وبمبادلتها اياه هذا الحب، شعر بأن قلبه قد تحطم وقال يحدث نفسه : « لقد انتهى كل شيء ! ·· ولم يبق فى العالم ما أرجوه ! ؛ حقا إن هذه الحياة ليست سوى أحلام وأوهام · فهذا هو المستقبل الذى قضيت عشر سنين فى تشييد صروحه قد انهار كله ، وذلك الرباط الذى حسبته يربط قلبى بقلبها لم يكن الا وهما من الاوهام ، ما كان أحمقنى اذ جعلت أصدقائى يحزنون لى وأعدائى يشمتون بى ! »

ولم يسعه خلال ثورته النفسية هذه الا أن يلفظ بعض كلمات الوعيد قائلا : « آه لو أن لى قوة دارتانيان ! · اذن لضحكت ازاء غدر تلك الفتاة التى شرفتها بحبى لها ، ولسارعت الى اقتفاء أثر الاوغاد الذين يتزلفون الى الملك الآن بالسخرية منى ، لأسحق ثلاثة أو أربعة منهم تحت قدمى · أجل ! · ان هذا هو المسلك الجدير بى، والكونت دى لافير نفسه لا يعارضه، فهو قد مر فى شبابه بمثل التجربة التى أمر بها الآن ، وقص على مرارا ، أنه لجأ الى الخمر والمتعة بالغيد بعد فشله فى الحب ! · انه تألم فى شبابه كما أتألم الآن ، ولكن ··· ما هى آلام الناس جميعا بجانب ما أقاسيه الآن ؟ · ومتى كان جرح القلب تخفف من ألمه جروح القلوب الاخرى ؟!·· كلا ! · ان كل انسان يتحمل نصيبه من الألم والعذاب والحزن والدموع ، ولقد كانت حياتى حتى اليوم حياة قاحلة مجدبة ، قاتلت فيها فى سبيل الآخرين لا من أجل نفسى · أحيانا فى سبيل الملك ، وأحيانا من أجل امرأة · وها أنذا قد خاننى الملك ، وتخلت عنى المرأة التى أحببتها · وهذا هو أبى يؤكد لى أن الشرف هو احترام المرء نفسه أولا ثم احترام الآخرين · ولكن دى جيش ومانيكامب وسان اينيان لا يرون الشرف الا الاستسلام لنزعات الملك ومسراته لكى أبقى على مركزى فى البلاط ، ولأكون قائد فرقة ، وقد أكون بذلك دوقا أو أميرا ! ·· وهكذا أكون أعظم ألف مرة من الآنسة دى لافاليير خليلة الملك لانها ستبقى خليلة له ولن يتزوجها ، وكلما أعلن أنها خليلته زاد عارها واحتقار الناس لها ! »

ومضى راءول دى براجلون يحدث نفسه على هذا النحو حتى وصل الى باب مسكنه ، وقد قطع الطريق اليه دون أن يلحظ الشوارع التى مر بها ،

ودون أن يدرى كيف جاء . ثم دفع الباب وصعد السلالم المظلمة شأن معظم البيوت فى ذلك العصر ، وكان مسكنه بالطابق الاول فوقف ليدق الجرس، وظهر خادمه أوليفان فأخذ منه سيفه ورداءه ، ومر راءول بالردهة ومنها الى غرفة الجلوس الفاخرة الاثاث ، وقد وضع بها أوليفان كثيرا من الازهار التى يحبها سيده ، كما كانت هناك صـــورة معلقة للافاليير رسمتها لنفسها بنفسها ، وقد علقهـا راءول وسط اطار من حرير دمشق الداكن اللون . فاتجه الى هذه الصورة كعادته كلما دخل الغرفة وأخـــذ يمعن النظر اليها وارتسمت على شفتيه ابتسامة مرة . ثم تمتم قائلا : « آه ما أشقانى ! » وقد شبك ذراعيه فوق صـــدره ورفع رأسه واغرورقت عينـاه بالدموع

ولم يكد ينطق بهذه الكلمة حتى سمع خلفه صـوت تأوه خافت ، فلما التفت متعجبا رأى فى ركن الغرفة امرأة مقنعة كانت مختبئة وراء البـاب فلم يلحظها حين دخل. وسرعان ما أزاحت القناع عن وجهها فبانت ملامحها الحزينة على محيـــاها الشاحب . ولم يسع راءول الا أن تراجع خطوة الى الوراء كأنما رأى شبحا أمامه ، ثم صاح قائلا : « لويز ؟! »

وكانت نبرات صوته تدل على الدهشة والحزن واليأس معا ، اذ لم يكن يتصور أن يجد نفسه هكذا وجها لوجه ، أمام الآنسة دى لافاليير !

وتقدمت هى بضع خطوات نحوه ثم قالت له : « أجل أنا لويز ! »

وكان هو قد استعاد رباطة جأشه فقال لها : « أنت يا آنســـة ؟. أنت هنا ؟ »

فقالت : « أجل يا راءول ، وقد طلبت الى أوليفان ألا يخبرك بقدومى ! »

وساد بينهما السكوت ، ثم عادت هى فقالت :

ـ كان لابد لى أن أراك وحدك . وقد أقدمت على هذه الخطوة التى يجب كتمان أمرها ، لانه لا أحد غيرك يا مسيو دى براجلون يقدر أن يفهم حافزى الى الحضور !

فتلعثم راءول وقال بصوت يبدو فيه أثر العاطفة :

ـ حقا يا آنسة.. اننى فيما يتعلق بى وبرغم حسن ظنك بى ، أقر ...

فقطعت كلامه قائلة بصوتها الناعم : «ألا تجلس أولا وتستمع لما أقوله ؟»

فنظر راءول حوله ثم هز رأسه فى أسف وجلس على كرسى بينما نظرت هى أيضا حـولها وكأنها تخشى أن يعلم أحد بحضورها اليه ، فقام وفتح الباب وصاح بالخادم قائلا :

ـ يا أوليفان .. اذا سأل عنى أى انسان فلا تذكر له أنى هنا !

ثم التفت اليها وقال : « أليس هذا ما تريدين ؟ »

وقد أثرت فيها هـــذه الكلمات القليلة أيما تأثير ، عـــلى أنها سرعان ما استجمعت شجاعتها وقالت بعد أن كفكفت بمنديلها دمعة كادت تنحدر من عينيها :

ـ يا راءول .. لا تحول نظرتك الشفيقة عنى . انك لست أحد أولئك الرجال الذين يحتقرون امرأة لأنها منحت رجلا آخر قلبها ، وان جر ذلك عليه الشقاء أو جرح كبرياءه !

فلم يجب راءول واسترسلت هى قائلة :

ـ وا أسفاه. حقا ان قضيتى خاسرة ولست أدرى كيف ابتدىء. خير لى أن أقص عليك بالصراحـة كل ما حـــدث لى . ولما كنت لن أقول الا الحق الصراح ، فسأجد الطريق أمامى واضحا وسط الغموض والتردد والعوائق التى ينبغى لى أن أكافحها ، لأزيح حملا ثقيلا من فوق صدرى ، وأضعه عند قدميك !

وظل راءول صامتا ، ونظرت اليه دى لافاليير نظرة كأنها تقول له بها : « شجعنى ولو بكلمة ! » . ولكنه بقى مطبقا شفتيه ، فاضطرت الى مواصلة كلامها قائلة :

ـ منذ برهة وجيزة جاءنى المسيو سان اينيان بتوجيه من الملك !

وأرخت عينيها وهى تقول ذلك ، فأدار راءول وجهه جانبـــا ، ثم عادت تقول : « قد أخبرنى المسيو سان اينيان بأنك تعلم كل شىء ! »

وحاولت أن تنظر الى عينيه بعد أن أحدثت به هذا الجرح الجديد ، ولكنه لم يبادلها النظر ، فاستمرت فى حديثها وقالت :

ـ وقد أخبرنى انك حانق على ، وانى أقر أن الحق فى جانبك

ولم يزد على أن نظر اليها وهو يبتسم ابتسامة مملوءة بالاستياء فمضت تقول :

ـ آه !. أرجو ألا تذكر أنك تشعر نحوى بشعور غير الغضب وحده . انتظر يا راءول حتى أفرغ من قول كل ما جئت لأصارحك به !

فاستعان راءول بقوة ارادته حتى عاد اليه مظهر الهدوء وزالت ابتسامة الاستياء من ثغره بينما ركعت الآنسة دى لافاليير بين يديه وقالت له :

ـ هذه يداى ممدودتين توسلا اليك ، وهذا جبينى منكسا الى الارض.. على أننى أطمع أن تغفر لى فأنت أكرم الناس قلبا وأنبلهم نفسا . واذا كنت قد تركتك على جهل بما يختلج فى قلبى من عواطف فانى على الأقل لم أكن لأخدعك قط !. نعم اننى أتوسل اليك يا راءول وأنا راكعة على ركبتى ، راجية أن تجيبنى ولو بكلمة تسىء بها الى . انى أوثر كلمة أذى من شفتيك على سوء ظنك بى فى قرارة قلبك !

وهنا قال لها راءول وهو يجاهد ليبدو محتفظا بهدوئه :

ـ انى أقدر كياستك فى التعبير يا آنسة. وانه لاخلاص منك أن تخدعينى غير متعمدة هذا الخداع !

فقالت : « سيدى.. لقد مكثت زمانا طويلا وأنا أحسب أنى أحبك أكثر

من أى شىء فى العالم • وطال بى هذا الاعتقاد حتى صارحتك بأنى أحبك ، بل كنت لا أتردد لحظة فى أن أقسم على ذلك • ولكن جاء يوم انكشف عن عينى الغطاء ••• »

وسكتت فقال راءول :« حسنا يا آنسة !• لكن أماكان ينبغى لك وأنت تعرفين أنى ما زلت أحبك ، أن تصارحينى بأنك لم تعودى تحبيننى ؟! »

فقالت له : « فى ذلك اليوم الذى نظرت فيه الىقرارة قلبى وتبين لى أنك لم تعد تملأ فراغه ، وأن أمامى مستقبلا آخر غير أن أكون صديقتك ، فى ذلك اليوم لم تكن الى جانبى لأصارحك بذلك ! »

فابتسم ساخرا وقال : « لكنك كنت تعرفين أين أنا ، وكان يمكنك أن تكتبى الى ! »

فقالت : « لم أجرؤ على ذلك يا راءول • لقد كنت ضعيفة جبانة • وكنت أعرفك حق المعرفة ، وأعلم أنك تحبنى حبا صادقا حتى لقد ارتعدت من التفكير فى الحزن الذى تسببه لك مصارحتى اياك بالحقيقة • انى يا راءول حتى هذه اللحظة التى أكلمك فيها ، وأنا راكعة أمامك ، وقد سحق قلبى بين جنبى ، واختنق صوتى من الألم ، وامتلأت عيناى بالدموع ، فى هذه اللحظة لا أجد لى ما أدافع به عن نفسى سوى صراحتى ، ولا ألقى حزنا أشد مما أتبينه فى عينيك ! »

وحاول راءول أن يبتسم ، فقالت له : « كلا !• أرجو ألا تخفى الآن عواطفك عنى • لقد كنت تحبنى وكنت واثقا من حبك لى • انك لم يخدعك قلبك ولم يكذبك القول • أما أنا ••• »

وهنا شحب وجهها ووضعت يديها على رأسها بيأس ، فقال لها راءول :

ـ أما أنت فقد قلت لى انك تحبيننى على حين أنك أحببت رجلا آخر !

فقالت : « أجل وا أسفاه !• انى أحب رجلا آخر • بالله دعنى أقل ذلك فانه هو عذرى الوحيد • انى أحب ذلك الآخر أكثر مما أحب حياتى !•• اغفر لى هذا الذنب أو عاقبنى على هذه الخيانة •• انى لم آت الى هنا لكى أدافع عن نفسى ، وانما جئت لكى أقول لك أنت الذى تعرف ما هو الحب : (لقد صرت متيمة بحب ذلك الآخر ، وانى لن أتوانى عن منحه حياتى وروحى • ولئن كف عن حبى فانى أموت حزنا وكمدا ، الا اذا أعاننى الله على الصبر • نعم يا راءول •• لقد جئت هنا لكى أخضع لمشيئتك ، فأموت اذا أردت لى الموت !•• اقتلنى اذن يا راءول اذا كنت تشعر فى قلبك بأنى أستحق أن أموت !) • »

فقال : « حسنا يا آنسة !• لقد قلت لى فى الواقع كل ما كان لديك ، وكل ما كنت أود أن أعرفه • والآن أرى من واجبى أنا أن أطلب اليك الصفح ، لأننى أنا الذى كدت أكون عقبة فى سبيل حياتك • وأنا الذى أخطأت لأنى اذ خدعت نفسى ساعدتك على أن تخدعى نفسك ! »

فقالت دى لافاليير : « كلا يا راءول ، انى لا أطلب اليك مثل هذا ! »

فقال : « اننى أنا وحدى الملوم ، فقد كان جديرا بى أن التمس جوابا من قرارة قلبك ، لا أن أطلب جوابا من شفتيك • ولهذا أرجو منك مرة أخرى أن تغفرى لى ! »

فقالت له : « هذا محال !• انك تسخر منى يا راءول ! »

فسألها فى هدوء : « وكيف يكون محالا ؟ »

فأجابت بقولها : « أجل !• من المحال أن يكون الانسان بهذا النبل وهذا الكمال ! »

فقال راءول وهو يبتسم بمرارة : « مرة أخرى •• حاذرى يا آنسة »

فقالت : « انك تحبنى كما يحب الأخ أخته • فليبق ما بيننا هكذا يا راءول »

فقال لها متعجبا : « كما يحب الأخ أخته ؟!• كلا يا لويز !•• لقد أحببتك حب العاشق ، حب الزوج ، أحببتك أصدق الحب وأعمقه !• نعم أحببتك حبا ملك على قلبى ووجدانى حتى انى ما كنت لأتردد فى سفك دمى لأجلك قطرة قطرة ، ولا فى ترك جسمى يقطع اربا • لقد أحببتك الى حد أنى الآن أشعر أن قلبى قد سحق ومات بين جنبى ، حتى فقدت كل أمل فى هذا العالم ، وفى العالم الذى يليه ! »

فهتفت به قائلة فى توسل : « راءول ! أشفق على !• لم أكن أعلم أنك تحبنى الى هذا الحد ! »

فهز رأسه أسفا وقال : « لقد فات الوقت يا لويز !• انك تحبين غيرى الآن ، وأنت سعيدة فى حبك هذا ، نعم وآنى لأرى سعادتك من خلال دموعك التى يغريها اخلاصك الطبيعى بأن تنهمل !• لقد جعلتنى أشقى مخلوق فى الوجود ، فاتركينى أتوسل اليك • وداعا • وداعا ! »

وأرادت أن تقول شيئا فوضع يده على ثغرها لكيلا تتكلم ، فأهوت بشفتيها على يده وقبلتها ، وفى اللحظة نفسها سقطت على الارض مغمى عليها • فصاح راءول مناديا خادمه أوليفان ، فلما حضر قال له :

ـ خذ هذه السيدة واحملها الى العربة التى تنتظرها أمام الباب

ولما رفعها أوليفان من الارض تقدم راءول نحوها ، يود لو يقبلها لآخر مرة ، ولكنه وقف فجأة وقال لنفسه : «كلا انها ليست لى ! انى لست لصا مثل ملك فرنسا ! »

إلى الباستيل

لم يكد راءول ينصرف الى مسكنه تاركا أباه وصديقه دارتانيان وحدهما حتى استعاد الأول سمت الجد الذى بدا عليه عند قدوم صديقه ، وقال له : « والآن ماذا جئت لانبائى به أيها الصديق ؟ • لعل الملك حانق ساخط ؟ »

فقال دارتانيان : « الحق أنه ليس مسرورا ، بل هو غاضب ناقم ! • »

فقال الكونت آتوس : « اذن •• فقد جئت لكى تقبض علىَّ ؟ • هـــذا ما كنت أنتظره • وأنا على استعداد تام للذهاب معك »

فقال دارتانيان : « لا داعى الى العجلة ، فان عندى فسحة من الوقت ! • ألا تحب أن تسمع كيف جرت الأمور بين الملك وبينى ؟ • لقـد كان الحوار الذى جرى بيننا عجيبا حقا ، وما كدت ألبى دعوته عقب خروجك من لدنه مباشرة حتى راعنى منظر وجهه الذى بدا قرمزيا لفرط غضبه ، ولم يكن لى علم بما حدث ، لكنى وجدت على الارض سيفا مشطورا • وصاح بى الملك حين رآني : (يا كابتن دارتانيان •• لقد خرج الكونت آتوس دى لافير من عندى الآن ، انه رجل وقح !) • فقلت بدهشة : (رجل وقح ؟!) •فقال وهو يضغط أسنانه : (يا كابتن دارتانيان••استمع لما أقول !) • فقلت : (هذا واجبى يا مولاى)•فقال : (لقد أردت اكرام الكونت آتوس لما أحفظ له من ذكريات طيبة ، فلذلك لم آمر بالقبض عليه هنا فى القصر • فعليك أن تأخذ عربة كى تلحق به وتقبض عليه •• واذا كنت لا تستطيع القيـام بهذه المهمة ، فابعث الى الآن بقائد الحرس) • فقلت له : (لا حاجة الى قائد الحرس يا مولاى ما دمت أنا فى الخدمة) • وهنا زايلته حدة غضبه وقال لى متلطفا : (انك أخلصت لى الخدمة دائما يا كابتن دارتانيان ، ولهذا لا أريد أن أزعجك بتكليفك القبض على الكونت وهو صديق لك) • فقلت له : (لو أنه كان أبى يا مولاى لقبضت عليه أداء لواجبى) •فنظر الى متعجبا متفرسا، واذ رأى أن وجهى لم يهتز به عصب ، مضى فقال : (حسنا••اذن ستقبض على الكونت آتوس دى لافير ؟) • فقلت له : (نعم يا مولاى اذا أعطيتنى أمرا بذلك) •• »

وهنا ارتسمت على شفتى الكونت ابتسامة خفيفة لم يخف معناها عـلى صديقه القديم ، لكنه استمر فى سرد روايته قائلا فى هدوء :

ــ فلما سمع الملك منى ذلك قال لى : « حسنا •• انى آمرك بالقبض على الكونت » • فانحنيت وقلت : « أين هو الآن يا مولاى ؟ »•فقال : « ابحث

عنه » • فسألته : « أأقبض عليه حيث أجده ؟ » • فقال : « أجل •• ولكن اجتهد أن يكون ذلك فى بيته•واذا كان قد سافر الى مزرعته فغادر باريس توا واقبض عليه فى الطريق » • فانحنيت ، ولكنى بقيت واقفا لا أتحرك ولا أتهيأ للانصراف • وسرعان ما سألنى فى دهشة عما أنتظر فقلت له : « أنتظر أمرا بالقبض على الكونت موقعا عليه من مولاى ! »

ومرة أخرى ، عاد الكونت آتوس الى ابتسامته الهادئة الهازئة ، على حين مضى المسيو دارتانيان فى حديثه قائلا :

ــ ان الملك يا صديقى كان يباشر ضربا جديدا من ضروب سلطته•ولهذا بدا عليه الضيق ، لكنه حاول اخفاءه وتناول قلما كتب به على ورقة صغيرة: «أمر صادر الى الفارس دارتانيان بالقبض على الكونت دى لافير حيث يجده»• ثم التفت الى ووقـع على الورقة بسرعة ثم مد بهـا يده الى قائلا : « اذهب الآن » • وها أنذا أيها الصديق قد أطعت الأمر !

وهنا نهض الكونت ومد يده فتناول بها يد صديقه وقال : « اذن••هيا بنا الآن ! » •

فقال له دارتانيان : « ولم العجلة يا صديقى ؟•• أليست لديك شئون تحب أن ترتبها قبل أن تغادر منزلك هكذا ؟! »

فابتسم الكونت وقال : «أية شئون يا صديقى ؟! انك لتعلم يا دارتانيان أنى لست سوى رحالة بسيط على هذه الارض ، ولقد كنت ولا أزال عـلى استعداد لمغادرة الدنيا كلها ، اذا دعانى الله اليه ، وماذا عسى يحتاج اليه رجل مثلى دائم الأهبة هكذا ؟• انه لا يحتاج الى أكثر من معطف أو كفن • ولهذا تجدنى الآن مستعدا كماكنت دائما يا صديقى العزيز ، ويمكننى أن أصحبك فى الحال ! »

فنظر اليه دارتانيان مليا ، ثم قال له : « وبراجلون •• ألا تريد منـه شيئا ؟ »

فقال : « لقد ربيته على المبادىء التى استرشدت بها فى حياتى •ولعلك لحظت انه لم يكد يراك حتى فطن الى الغرض من زيارتك • ولقـد خدعناه لحظة ، ولكن لا تقلق فانى مستعد للنكبة التى تنزل بى ، وما أحسب أنهـا ستفاجئه أو تزعجه • هيا بنا يا صديقى • وأظننى فى غنى عن تسليمك سيفى لأنى كسرته على ركبتى أمام الملك ورميت شطريه عند قدميه ! »

فقال دارتانيان فى هدوء وهو يهم بالنهوض : « أنت عـلى حق ، وماذا كنت أفعله بسيفك ؟ »

ولما تهيآ للانصراف سأله الكونت آتوس ضاحكا : « أأسير خلفك أم أمامك ؟ »

فتأبط ذراعه قائلا : « بل نسير هكذا وذراعك فى ذراعى ! »

ثم هبطا الدرج حتى وصلا الى الردهة • وهناك نظر « جريمو » اليهما

في شيء من القلق ، كأنما دلته خبرته بالأمور على أن هناك شيئا غيرمألوف، ولكن الكونت قال له في هدوء :

ـ أهذا أنت يا جريمو ؟٠٠ اننا ذاهبان ٠٠٠

وأكمل دارتانيان عبارة الكونت فقال : « ذاهبان للقيـــام بنزهة في عربتي ! »

فسكت جريمو وصحبهما الى الباب ٠ ثم ركب الكونت العربة أولا وتبعه دارتانيان ، وانطلقت بهما العـربة في هدوء ، دون أن يلفت رحيلهما نظر أحد من الجيران

ولما وصلت العربة الى أرصفة الميناء قال الكونت آتوس : « انك ذاهب بي الى الباستيل كما أرى ؟ »

فقال دارتانيان : « أنا آخذك الى الباستيل ؟!٠٠ أتحسبني جننت ؟! »

فدهش الكونت وسأله : « ماذا تعني ؟ »

فقال : « انني يا صـــديقي ما قبلت أداء هذه المهمة الا لكي انفذها على الوجه الذي تحبه ٠ ولولا هذا لتركت قائد الحرس يتولى هـذه المهمة بدلا مني ! »

فقال الكونت : « اذن أين تذهب بي ؟ »

فرد عليه قائلا : « سنذهب الآن الى حيث تريد أنت ! »

فلم يتمالك الكونت عواطفه وقبله قائلا : « هيه يا صديقي العزيز ٠٠ ان هذه شيمتك دائما ! »

وقال دارتانيان : « ان الأمر جد بسيط !٠ سيأخذك الحوذي الى الحدود عند (كور ـ لا ـ رين) وهناك تجد جوادا أمرت باعداده لك ٠ وبهـــذا الجواد تستطيع أن تقطع ثلاث مراحل بريد دون توقف ٠ أما أنا فسأحرص على ألا أعود الى الملك لأخبره بذهابك ، الا بعـد أن أطمئن الى أن أحـــدا لا يستطيع ادراكك ٠ وفي خلال ذلك تكون أنت قد وصلت الى (الهافر) فتعبر (المانش) منها الى انجلترا حيث تجد القصر البـــديع الذي أهداه الى المسيو مونك ، ولن يقصر الملك تشارلس في اكرامك ! »

وسكت دارتانيان ونظر الى الكونت ليرى وقع هذا المشروع لديه ، وشد ما كانت دهشته اذ هز الكونت رأسه وابتسم قائلا له : «كلا يا صديقي٠٠ بل خذني الى الباستيل ! »

على أنه كان يعلم أن صديقه الكونت صعب المراس شديد العناد ، فلم يزد على أن قال له : « فلتفكر في الأمر قليلا يا صديقي ، انك الآن لست شابا في العشرين ، واني أؤكد لك عن خبرة وتجربة ان الاقامة بالباستيل هي بمثابة الموت لمن كانوا في مثل عمرنا ٠ ولهذا لن أرضى قط بأن تختم حياتك بسرعة هكذا ، بل ان تفكيري في ذلك كفيل وحـــده بأن يصيبني الدوار ! »

فقال الكونت دون أن يزايله شيء من هدوئه : « يا عزيزي دارتانيان٠٠ ان الله قد أنعم علي بجســم يماثل عقلي في قوة تحمله ٠ ولك أن تطمئن الى أني سأحتفظ بقوتي حتى آخر نسمة من حياتي ! »

فقال دارتانيان : «ليس الأمر أمر قوة جسمك ، ففكر في العاقبة جيدا»

فقال له : « هذه نهاية التفكير السليم ٠ ولن أرضى قط أن أبحث معك هذه الخطة ٠ ولو كان الفرار يخطر ببالي لقبلت منك هذا العرض ٠٠ هل نسيت ما كلفك الملك أن تقوم به ؟ »

فقال دارتانيان :« هذا لا يهمني قط ، وسأقول له ببساطة : (مولاي٠٠ اسجن وانف واقتل كل انسان في فرنسا وأوربا ٠ ومرني بأن أقبض على من تشاء وبأن أطعنه ، حتى ولو كان الأمير أخاك ٠ ولكن لا تلمس شعرة من رأس أحد الفرسان الأربعة ، والا فالويل والثبور) ٠٠ »

فقال له الكونت آتوس في هدوء : « يا صديقي العزيز ٠٠ اني أحب أن أقنعك بشيء واحد هو اني أريد أن يقبض علي »

وهز دارتانيان كتفيه أسفا وحزنا ، بينما استطرد الكونت آتوس قائلا:

ـ أؤكد لك أنك لو مهدت لي سبيل الفرار ، فاني أعود من تلقاء نفسي الى السجن الذي أراده لي الملك !٠ اني أريد أن أبرهن لذلك الشـاب الذي بهره بريق السلطان والفخامة ، أنه يستطيع أن يعاقبني وأن يسجنني وأن يعذبني ، ولكنه يسيء التصرف في الفرص التي أمامه ، وأنا أود لو يعرف تأنيب الضمير !

فقال دارتانيان : « حسنا ٠ اني أعرف حق المعرفة أنك لا ترجع عن أمر اعتزمته ، فهل تريد الآن أن تذهب الى الباستيل ؟ »

فقال : « أجل يا صديقي ، هذا ما أريده حقا فهيا بنا الى الباستيل ! »

وهنا صاح دارتانيان بالحوذي قائلا : « الى الباستيل » ٠ ثم ارتمى الى خلف العربة وأخذ يعض على طرفي شاربه بحنق ، وســاد الصمت بينهما والعربة تسير بهما ، ثم تناول آتوس يده وقال له : « لعلك لست غاضـبا علي يا دارتانيان ؟ »

فقال : « ان ما تفعله أنت بحافز البطولة كنت أفعله أنا بدافع العناد ! »

فسكت قليلا ثم سأله : « ألا تعتقد ان الله سينتقم لي ؟ »

فقال دارتانيان : « وأعتقد أيضا أن بعض الناس سيمدون يد المساعدة في هذا الانتقام ! »



وصلت العربة الى الباب الخارجي للباستيل ، ووقفها جندي كان في دور الحراسة ولكن كلمة واحـــدة من دارتانيان كانت كافية لأن يدعها تمر ،

فمضت العربة دون عقبة أخرى • وبينما كانت تمر تحت الممر ذي السقف المؤدى الى فناء بيت محافظ السجن ، نظر دارتانيان بعينه التي تشبه عين النسر والتي يكاد يرى بها كل شيء حتى ما وراء الجدران ، ثم صاح بغتة : « ما هذا الذى هناك فى الفناء ؟ »

فنظر آتوس الى الجهة التى أشار اليها صديقه ثم قال فى هدوء : « هناك عربة لعلها تحمل سجينا مثلى ! »

وفى تلك اللحظة وقف ديدبان آخر عربة دارتانيان ، وبينما كانت المراسم تؤدى ، رأى آتوس على بعد نحو مائة خطوة رجلا يهبط من العربة الاخرى أمام بيت محافظ السجن ، وسأله دارتانيان : « أرأيته ؟ »•فأجابه قائلا : « انه يرتدى بذلة رمادية اللون ، ولا أدرى من أمره أكثر من هذا ! »

فقال دارتانيان : « انه أراميس ولا شك ! »

فسأله آتوس فى هدوء : « أراميس مقبوضا عليه ؟ هذا مستحيل ! »

فقال : « لم أقل انه مقبوض عليه ، وما دمنا نراه وحده فى عربته فلعله جاء لزيارة محافظ السجن • وهكذا نكون قد وصلنا فى الوقت المناسب ! »

فقال آتوس : « انى آسف لهذا اللقاء أسفا شديدا ، لان أراميس سينزعج ولا شك ! »

فقال دارتانيان : « اذا شئت ألا ينزعج أراميس لرؤيتك فدعنى أنا أقص عليه الأمر على طريقتى • انى أعلم أنك لا تستطيع أن تكذب • ولكن هذا سهل على رجل جاسكونى مثلى ! »

فابتسم آتوس ، وكانت العربة قد وصلت الى حيث وقفت العربة الاخرى عند باب بيت المحافظ فوقفت هناك ، وقال دارتانيان لصديقه بصوت خافت : « لقد اتفقنا اذن ؟ » •• فأومأ آتوس دليلا على الموافقة ، وشرعا يصعدان الدرج • وبعد بضع دقائق كانا فى غرفة الطعام ببيت المحافظ ، وكان أول ما استرعى التفات دارتانيان أن رأى أراميس بجانب بيزمو ينتظر اعداد طعام شهى فاحت رائحته فى البيت كله ، فتظاهر دارتانيان بالدهشة للقائه • أما أراميس فكان عجبه شديدا حقا حين رأى صديقيه وكان تأثره ظاهرا • وأثنى عليه آتوس ودارتانيان كالمعتاد ، وأما بيزمو فقد بهت اذ رأى ضيوفه الثلاثة وأخذ يحييهم ويرحب بهم قائلا : «أى ظرف سعيد•••»
فقطع دارتانيان كلامه قائلا : « لقد كنا سنسألك ••• »

فقال أراميس ضاحكا : « أترانا سنسلم أنفسنا لك سجناء ؟ »

ورد دارتانيان قائلا : « صحيح ان الجدران تبدو كجدران سجن • انك تعلم يا مسيو بيزمو أنك دعوتنى الى تناول العشاء عندك حين قابلتنى منذ أيام ؟ »

فصاح بيزمو قائلا : « أنا ؟! »

فقال دارتانيان : « نعم أنت ، لقد دعوتنى وان كنت الآن تبدو عليك الدهشة ، ألا تذكر ؟ »

فشحب وجه بيزمو ثم علته حمرة ، ونظر الى أراميس فنظر هذا اليه ، وأخيرا قال بتلعثم :

ـ حقا •• هذا يسرنى • ولكن أقسم بشرفى ليست عندى أية فكرة••• آه ان ذاكرتى ضعيفة جدا •!

فقال دارتانيان فى شيء من الغضب : « اذن •• أنا الذى أخطأت لأنى تذكرت دعوتك ؟ »

فسارع بيزمو اليه وقال له مسترضيا : « يا عزيزى الكابتن••دعك من الكلفة • ان ذاكرتى هى أضعف ذاكرة فى العالم ! »

فقال دارتانيان بجرأة : « على أى حال أنت تذكر الأمر الآن !• لقد كان ذلك حين أتيت الى القصر لترانى،وقد قصصت على شيئا عن حساباتك مع المسيو دى لوفيير والمسيو ترمبلاى »

فأومأ بيزمو موافقا ، بينما واصل دارتانيان كلامه فقال : « كما حدثتنى عن عطف المسيو دربلاى عليك »

وهنا بدت الدهشة فى وجه أراميس ، ونظر الى المحافظ المسكين قائلا له : « ومع هذا كنت تقول منذ لحظة انك ضعيف الذاكرة ؟! »

فلم يجبه بيزمو ، بل ظل ناظرا الى دارتانيان وقال :

ـ أجل !• انك على حق يا كابتن ، ولست أدرى كيف نسيت ؟!• انى أذكر ذلك الآن ، وأطلب اليك الصفح • وثق يا عزيزى انك هنا فى بيتك سواء أدعيت أم لم تدع ، أنت والمسيو دربلاى صديقك • (وهنا التفت الى أراميس) • وهذا السيد كذلك (وانحنى لآتوس)

فقال دارتانيان : « لقد كنت واثقا من ذلك ، ولهذا لما وجدت نفسى الليلة بلا عمل فى القصر الملكى رأيت أن أزورك هنا لأرى بنفسى كيف تعيش • وفى الطريق قابلت الكونت دى لافير عند خروجه من حضرة الملك، فسلمنى أمرا يتطلب التنفيذ العاجل ، ولما كنا على مقربة من هنا فقد رأيت أن أزورك•ولو لم يكن لى غرض سوى أن أصافحك وأن أقدم اليك الكونت الذى أثنيت أنت عليه ثناء كبيرا فى القصر حين ••• »

وهنا أومأ بيزمو موافقا ، وانحنى للكونت دى لافير ، بينما استطرد دارتانيان فقال : « انى لعلى يقين من أن الكونت سيلقى منك كل ترحيب• وسيتناول العشاء معكما الآن ، أما أنا فان سوء حظى يضطرنى الى الذهاب لأداء بعض واجبات العمل ! »

وهنا سأله أراميس وبيزمو معا : « أذاهب أنت ؟ »

فقال : « نعم ، وسأترك لكما بدلا منى ضيفا نبيلا ممتازا ! »

ثم ربت بيده كتف آتوس متلطفا ، ولم يسع هذا الا أن يبدى شيئا من دهشته ، ولكن لم يلحظ ذلك سوى أراميس ، أما المسيو بيزمو فانه لم يكن ندا للأصدقاء الثلاثة فى ذكائهم . ومن هنا عاد يسأل دارتانيان : « أتتركنا حقا ؟ »

فأجابه هـذا بقوله : « لن أغيب سوى ساعة أو ساعة ونصف ساعة ، وسأعود فى الوقت الذى تتناولون فيه الحلوى ! »

فقال بيزمو : « اذن ننتظرك » . فقال دارتانيـان : « كلا . كلا ! » . وسأله آتوس : « أواثق أنت من أنك ستعود ؟ » . فقال له : « نعم .. بلا شك ! » . ثم نهض وضغط يد صديقه وهمس اليه قائلا : « انتظرنى وكن بادى السرور قدر امكانك ، وفوق كل شىء لا تشر أية اشـارة الى شئون السياسة »

وقاد بيزمو دارتانيان حتى الباب الخارجى ، على حين جلس أراميس مع آتوس بادى السرور يحاول أن يغريه بقول الحقيقة ، ولكن آتوس لم ينبس ببنت شفة

وبعد عشر دقائق من ذهاب دارتانيان ، جلس السادة الثلاثة الى المائدة وكان عليها من ألوان الطعام ما يرضى كل نهم ، وكانت تقدم لونا بعد آخر، وكلها على نفقة الملك ، ولعل المسيو كولبير كان يوفر ثلثيها على الأقل دون أن يضار بذلك أحد من نزلاء السجن .. وكان بيزمو هو الوحيد بين الثلاثة الذى أقبل على الطعام والشراب . أما أراميس فكان يتذوق من كل ما يقدم له . وأما آتوس فانه بعد الحساء والمشهيات لم يأكل شيئا مطلقا . وبقى أراميس طول الوقت يسائل نفسه عن المصادفة العجيبة التى جعلت آتوس يبقى مع بيزمو بينما انصرف دارتانيان ، أما آتوس فكان يخبر غور أفكار أراميس الذى عاش وسط الحيل والدسائس والمراوغات ، وكان يدرسـه عن كثب حتى أيقن انه بسبيل أمر هام . ثم بدأ يفكر فى أمر نفسـه ، ويتساءل لماذا تركه دارتانيان فجأة هكذا فى الباستيل !



أدى المسيو سان اينيان المهمة التى كلفه بها الملك فيما يتعلق بلافاليير ، على أنه لم يستطع أن يقنع الفتاة بأن الملك كفيل بحمايتها فى جميع الظروف والاحوال ، وبأنها ليست بحاجة الى أحد فى العالم ما دام الملك الى جانبها . والواقع ان رجل البلاط لم يكد يذكر لها ان السر الرهيب بات معروفا حتى انهمل الدمع من عينيها مدرارا وغلبها يأس شـديد ما كان يسر الملك لو شهد دلائله . وقد شعر سان اينيان ، وهو السفير فى هذه المهمة ، بالاستياء الشديد ، وعاد الى الملك ينبئه بما رأى وما سمع . فقال له الملك : « ولكن ألا أراها على الأقل قبل العشاء ؟ . وهل تأتى الى أم أضطر أنا الى الذهاب الى غرفتها ؟ »

فقال سان اينيان : « أعتقد يا مولاى انك اذا شئت رؤيتها فلن يكون عليك أن تخطو الخطوة الاولى فحسب بل ان تقطع الطريق كله ! »

فقال الملك : « لا أبالى ذلك . أتحسبها لا تزال متعلقة ببراجلون ؟ »

فقال : « لا يا مولاى . ان هذا مستحيل ، لأنى موقن أنها لا تحب سواك، وانها تحبك من كل قلبها . ولكنك تعلم ان دى براجلون من قوم ذوى كبرياء يحبون أن يمثلوا دور الأبطال الرومانيين ! »

فابتسم الملك ابتسامة خفيفة ، اذ كان يعرف مدى صدق هذه العبارة .. ثم قال سان اينيان : « أما الآنسـة دى لافاليير فقد ربيت فى كنف الملكة الوالدة أى وسط الجد والوقار ورعاية المراسم . وقد تبادلت مع ذلك الشاب أيمانهما الصغيرة تحت ضوء القمر والنجوم ، والآن يشعران بأسى شديد لاضطرارهما الى الحنث بتلك الايمان ! »

وحسب سان اينيان انه بذلك يضحك الملك ، ولكن الملك عـلى العكس ترك الابتسام وبانت عليه هيئة الجد . لقد بدأ يشعر بوخز الضـمير الذى تنبأ آتوس لدارتانيان بأنه لابد ملاحقه . وفكر فى أن لافاليير وبراجلون كانا متحابين وأقسم كل منهما لصاحبه يمين الاخلاص ، وقد وفى براجلون بعهده أما هى فان ضميرها يعذبها لحنثها بذلك القسم . وقد صحب تأنيب الضمير عند الملك شعور بالغيرة القاسية . ولم يلفظ بكلمة ولكنه بدل أن يذهب الى أمه أو الى الملكة أو الى المدام (زوجة أخيه) لكى يتسـلى قليلا ، ارتمى فى الكرسى الكبير الذى كان والده العظيم لويس الثالث عشر يجلس عليه . ورأى سان اينيان أنه ليس مستعدا للتسلية فى تلك اللحظة، فعمد الى آخر وسيلة عنده وقال للملك : « ماذا تعتزم أن تفعله الليلة يا صاحب الجلالة ؟ . أتأمر باخبار الآنسة دى لافاليير بعزمك على رؤيتها ؟ »

فقال الملك : « يبدو أنها تعلم ذلك ، ولـكن ... أرى أن ننتظر قليـلا فلعلها تتنازل فتبعث الينا ببعض أخبارها ! »

فقال سان اينيان : « آه يا مولاى ! أيمكن أن تسىء فهم قلبها المفعم بالحب والاخلاص لك ؟ »

ثم نهض الملك وقد احمر وجهه من الغيظ والكدر ، اذ صار فريسـة للغيرة ولتأنيب الضمير معا . وفيما سان اينيان يشعر بصعوبة موقفه ، اذا بالستار الذى على الباب يزاح ، فاسـتدار الملك وحسب أول وهلة ان رسولا قد جاء من قبل لويز بخطاب له ، ولكنه بدل أن يلقى خطاب غرام رأى أمامه قائد الفرسان واقفا بالباب معتدل القامة صامتا بادى الجد فصاح به قائلا : « المسيو دارتانيان ؟ .. حسنا ! . ما وراءك ؟ »

فنظر دارتانيان الى سان اينيان ، وأدرك هذا معنى النظرة فانحنى للملك وخرج ، وهنا قال الملك لدارتانيان : « هل نفذ الأمر ؟ »

فقال دارتانيان : « نعم يا مولاى ! »

ولم يستطع الملك أن يقول كلمة أخرى ، غير أنه رأى أن عليه أن يبرهن على صواب الاجراء الذى اتخذه ، فسأل دارتانيان بعد قليل : « ماذا قال الكونت ؟ »

فقال دارتانيان : « لم يقل شيئا مطلقا يا مولاى ! »

ـ لا شك انه لم يدع نفسه يقبض عليه دون أن يقول شيئا ؟

ـ لقد قال انه كان ينتظر القبض عليه يا مولاى !

فرفع الملك رأسه بكبرياء وقال : « لعل الكونت دى لافير لم يواصل تمثيل دور الثائر العنيد ؟ »

وهنا قال دارتانيان « ماذا يعنى مولاى ؟ · ان ذلك الثائر فى نظر جلالتك هو الرجل الذى لم يكتف بأن يدع نفسه يزج فى السجن ، بل عارض كذلك كل محاولة فى سبيل ألا يدخله ! »

فصاح به الملك : « ماذا تعنى ؟ ·· من الذى حاول ألا يدخله السجن ؟ · هل جننت يا كابتن ؟ »

فقال دارتانيان هادئا : « لا أحسب ذلك يا مولاى ! »

وعاد الملك يقول له : «انك أشرت الى محاولة لعدم ادخال الكونت آتوس السجن ، فمن ذا الذى حاول ذلك ؟ »

فقال : « هو الذى عهدت اليه جلالتك فى القبض عليه ! »

فبدا العجب والغضب فى وجه الملك وقال له : « أنت يا كابتن ؟! ·· أنت الذى حاولت مخالفة أوامرى فيما يختص بالرجل الذى أهاننى ؟! »

فقال : « أجل يا مولاى · كانت تلك نيتى · بل لقد عرضت على الكونت أن يركب جوادا أعددته له عند حدود (لاكونفرانس) لكى يركبه الى الهافر ومن ثم يفر الى انجلترا · لكنه رفض ! »

فصاح به الملك : « لقد خنتنى اذن ؟ »

وقال دارتانيان فى هدوء : « هذا صحيح يا مولاى ! »

فلم يجد الملك ما يقوله ازاء هذا الاعتراف الصريح ، وقد تولته الدهشة من عناد دارتانيان وخروجه الصريح على طاعته · ثم قال بعد لحظة بكبرياء : « على الأقل كان هناك سبب لمسلكك هذا ؟ »

فقال دارتانيان : « ان عندى سببا لكل شىء يا مولاى ! »

فقال الملك : « ان السبب لا يمكن أن يكون صداقتك للكونت ، وهو السبب الوحيد الذى ربما اتخذ ذريعة لمسلكك ، لأنى كنت قد عرضت عليك اعفاءك من هذه المهمة ! »

فقال دارتانيان : « نعم يا مولاى ، ولكنك صرحت لى بأنى اذا لم أقبض عليه فسيقبض عليه قائد الحرس ! »

فسكت الملك هنيهة ثم سأله : « ألم أراع عواطفك فلم أرغمك على أداء هذه المهمة ؟ »

فأجاب بقوله : « أجل يا مولاى ، لقد كنت شفيقا بى ولكنك لم تكن شفيقا على صديقى ، لأنه كان سيقبض عليه على أى حال ، اما بيدى واما بيد قائد الحرس ! »

فقال الملك : «أهذا مدى اخلاصك لى ؟! انك لست جنديا ! · وماذا جئت لتقوله لى اذن ؟ »

فقال : « جئت لأقول لجلالتك : ان الكونت آتوس دى لافير هو الآن فى سجن الباستيل ! فما دام قد أصبح هناك فمن واجبى أن أخبر جلالتك بذلك ! »

فقال الملك غاضبا : « يا مسيو دارتانيان : انك تتحدى ملكك ! · وانى أنذرك بأنك تستنفد صبرى ! »

فقال دارتانيان : « لقد جئت لكى تأمر بالقبض على أيضا يا مولاى · فلا شك فى أن صديقى ستضجره الاقامة وحده بالباستيل ، ولذا جئت أعرض على جلالتك أن تسمح لى بمؤانسته · واذا شئت جلالتك فانى أقبض على نفسى ، ولن أحتاج الى قائد الحرس لهذا الغرض ! »

وهنا تقدم الملك صوب المنضدة وأمسك بقلم ليكتب أمرا بسجن دارتانيان ، فقال هذا بلهجة وعيد : «راع يا مولاى أن يكون سجنى مؤبدا · لأنك متى أمرت بذلك فلن تقدر أن تنظر الى وجهى مرة أخرى ! »

فرمى الملك القلم بعنف وصاح به قائلا : « اخرج من هنا ! »

فقال : «لقد جئت لأكلم جلالتك برفق واعتدال ، ولكنك تملكك الغضب ، وهذا من سوء حظى »

فصاح به الملك : « قدم استقالتك ! »

فقال : « أنت تعلم يا مولاى أنى قدمت استقالتى يوم رفضت اعطاء الملك تشارلس المليون الذى أعطاه اياه الكونت دى لافير · أما الآن فلا محل لاستقالتى ، وقد أمسكت جلالتك القلم منذ هنيهة لتكتب أمر ادخالى الباستيل فلماذا غيرت رأيك ؟ »

فقال الملك : « اعلم يا دارتانيان أنك مهما تكن جاسكونيا عنيدا ، فانى أنا الملك لا أنت ! »

فقال دارتانيان : « نعم يا مولاى ، من سوء الحظ أنك أنت الملك لا أنا والا لكنت أقول لقائد الفرسان ، وأنا أنظر اليه فى هدوء : (لقد نسيت ياكابتن انى الملك ، لأنى هبطت من عرشى لأهين سيدا !) ·· »

فقال له الملك : « أتظن أنك تلتمس عذرا لصديقك بالتفوق عليه فى الوقاحة ؟ »

فقال دارتانيان : « مولاى ·· انى قد أذهب الى أبعد مما ذهب اليه

بمراحل ، وسيكون ذلك خطأك أنت . وكنت أقول لك ما لم يقله لك هو لرقته ووداعته · انك ضحيت ابنه ، فلما دافع عنه ضحيته كذلك · لقد خاطبك باسم الشرف والدين والفضيلة ، فثرت وطردته وسجنته · ولهذا صار عليك أن تختار : أتريد أصدقاء أم خدما ؟· جنودا أم عبيدا ؟· رجالا عظماء يخدمونك أم أناسا ينحنون ويركعون لك ؟!· واذا كنت تؤثر الضعة والدسيسة والجبن ، فقل ذلك توا يا مولاى فنتركك نحن البقية الباقية من رجال الايام الخالية ، نحن الذين أدينا واجبنا ، وربما فقنا بشجاعتنا وكفايتنا العظماء الذين خلدت عظمتهم على مدى القرون · اختر يا مولاى ، ولا تبطىء فى الاختيار · ان من بقوا لديك من النبلاء والعظماء يجب أن تعض عليهم بالنواجذ ، ولن يعوزك العدد الذى تريده من رجال البلاط·· هيا يا مولاى مر بارسالى الى الباستيل مع صديقى ، لأنك لم تعرف كيف تصغى الى الكونت دى لافير وهو يتحدث عن الشرف ، ولا تعرف كيف تستمع الى دارتانيان وهو يتحدث عن الاخلاص ، واذن ·· فلست الا ملكا رديئا ، وغدا ستكون ملكا طريدا بائسا ! »

فارتمى الملك فى مقعده بارد الجسم بلا حس ولا حراك وكأنه جثمان ميت !· ان صوت دارتانيان نفذ الى قلبه كحد السيف·ولقد قال دارتانيان كل ما عنده ، ولما أدرك غضب الملك اقترب منه باحترام ووضع سيفه على المنضدة أمامه · ولكن الملك أزاح السيف جانبا بحنق فوقع على الارض وانحدر تحت قدمى دارتانيان · ورغم رباطة جأش دارتانيان وتمالكه أعصابه ، شحب وجهه هو أيضا وارتعش من الغضب وقال :

ـ ان الملك قد ينكب جنديا ، وقد ينفيه من بلاده ، بل قد يحكم عليه بالموت ، ولكن اذا كان ملكا مائة مرة فليس له أن يهينه باهانة سيفه ! مولاى : ان ملك فرنسا لم يزح قط بازدراء سيفا كسيفى !· أما وقد أصبح هذا السيف مكللا بالعار فانه لن يكون له غمد بعد الآن سوى قلبك أو قلبى ، وأنا أختار قلبى يا مولاى ، ولك أن تحمد الله وتحمد حلمى اذ أختار قلبى دون قلبك ! »

ثم اختطف سيفه قائلا : « ليكن دمى على يديك » · وبحركة سريعة وضع مقبض السيف على الارض ووجه طرفه نحو صدره ، غير أن الملك بحركة أسرع من حركة دارتانيان ، أحاط عنق الفارس بذراعه اليمنى ، وأمسك بيده اليسرى بالسيف من وسطه ، وأعاده فى صمت الى غمده

وبقى دارتانيان واقفا يرتعش · وتغلبت على لويس عواطفه الرقيقة ، فعاد الى المنضدة ، وتناول قلما ، وكتب بضعة أسطر وقع عليها ثم أعطاها الى دارتانيان وقال له : « هذا أمر الى المسيو دارتانيان بالافراج عن الكونت دى لافير فورا ! »

فتناول دارتانيان يد الملك وطبع قبلة عليها · ثم طوى الورقة ووضعها فى حزامه وغادر الغرفة · ولم ينطق الملك ولا الكابتن ببنت شفة !

الافراج عن سجين

بر دارتانيان بما وعد به المسيو بيزمو ، فعاد اليه وقت تناول الحلوى . وكان آتوس وأراميس قد تكلما كثيرا عن الباستيل ، وعن الرحلة الاخيرة الى فونتينبلو ، وعن المهرجان الذى اعتزم المسيو فوكيه أن يقيمه فى (فو) . وتكلما فى موضوعات كثيرة أخرى ، ولكن دون أن يشير أحدهما الى مسألة شخصية . ووصل دارتانيان وهما وسط الحديث ، وكان لا يزال شاحب الوجه كثير الاضطراب لتأثره بما دار بينه وبين الملك ، فأسرع بيزمو وقدم له كرسيا ، وطلب دارتانيان كأسا من النبيذ فشربه حتى الثمالة ، ولحظ آتوس وأراميس اضطرابه ، أما بيزمو فلم يلحظ شيئا ومضى فى الترحيب بقائد الفرسان ، على أن آتوس أدرك أن عودة دارتانيان والاضطراب البادى عليه ، وهو الهادىء الأعصاب دائما ، انما يعنيان شيئا واحدا هو أنه طلب الى الملك شيئا فرفض طلبه . وعلى هذا ابتسم آتوس وقام من مكانه مشيرا الى دارتانيان ، ففهم هذا مراده توا ، وأجابه باشارة أخرى ، بينما راقب أراميس وبيزمو هذا الحوار الصامت ، ونظر كل منهما الى الآخر نظرة تساؤل . ثم قال آتوس :

ـ الحقيقة أيها الأصدقاء أن المسيو أراميس قد تناول العشاء مع سجين دولة ، وأن المسيو دى بيزمو قد آكل سجينه !

فصاح بيزمو صيحة دهشة تكاد تنم عن سروره بزيادة عدد سجنائه ، وبان الاهتمام على أراميس وقال : « اذن سامحنى يا عزيزى آتوس ، ولكنى أحسب الأمر متعلقا براءول ولافالير ؟ »

فقال بيزمو : « وا أسفاه ! » . ثم استطرد أراميس قائلا : « انت النبيل الرفيع القوى قد نسيت ولا ريب أن هناك رجال بلاط الآن ، فذهبت على ما أعتقد الى الملك وصارحته برأيك فى مسلكه ؟ »

فقال آتوس : « لقد أصبت التقدير »

وقال بيزمو وهو يرتعش من فكرة مجاملة رجل كسب غضب الملك : « وعلى ذلك فان جناب الكونت . . . »

فقال له آتوس مقاطعا : « أجل يا عزيزى المحافظ ، ان صديقى دارتانيان سيخبرك بمضمون الورقة التى أراها تطل من حزامه ، وهى على ما اعتقد ليست سوى الامر باعتقالى »

فمد بيزمو يده فى لهفة لتسلم الورقة ، بينما جذب دارتانيان من حزامه

ورقتين سلم احداهما الى المحافظ ، ففضها وأخذ يقرؤها بصوت خافت وهو ينظر الى آتوس من فوقها : « أمر باعتقال جناب الكونت دى لافالير فى قلعة الباستيل » . ثم قال : « حقا يا سيدى ان هذه لحظة محزنة ! »

فقال آتوس بصوته الهادىء الرقيق : « ستجد منى يا سيدى سجينا صبورا »

وقال أراميس : « وهو أيضا سجين لن يتم الشهر فى سجنه يا محافظى العزيز ! »

وكان بيزمو لا يزال ممسكا بالأمر فى يده ، فدونه فى سجل السجن . وهنا قال دارتانيان :

ـ بل لن يمكث يوما واحدا ولا ليلة واحدة !

ثم أبرز الأمر الآخر الصادر من الملك وقال للمسيو بيزمو : « والآن يا عزيزى المسيو بيزمو ، ستدون فى سجل السجن هذا الأمر الثانى الذى يقضى بالافراج فورا عن الكونت ! »

فقال أراميس : « آه ، لقد حرمتنى أداء هذه المهمة يا دارتانيان ! »

ثم مد يده فضغط بها يدى دارتانيان وآتوس فى وقت واحد . بينما قال الأخير متعجبا : « ماذا تقول ؟ الملك أمر بالافراج عنى ؟ ! »

فناوله دارتانيان الورقة الاخرى وهو يقول له : « اقرأ يا صديقى العزيز »

فتناول آتوس الورقة وقرأها ثم قال : « هذا صحيح »

فسأله دارتانيان : « أيحزنك هذا ؟ » فقال : « كلا !. بل أنا على العكس ارجو أن يعدل الملك عن ظلم أى انسان ، فالظلم مرتعه وخيم . ولكن لاريب أن مهمتك كانت شاقة . أليس كذلك ؟ »

فضحك دارتانيان وقال « كلا !. ان الملك لا يحجم عن تحقيق أية رغبة لى ! »

فنظر أراميس الى دارتانيان نظرة فاحصة ، وأدرك أنه لا يقول الحق . ولكن بيزمو كان ينظر الى دارتانيان نظرة اعجاب بحظوته عند الملك ثم قال أراميس : « هل الملك سينفى آتوس ؟ » . فأجاب دارتانيان قائلا : « كلا !. ان الملك لم يوضح ما يعتزمه ، ولكنى أحسب أن خير ما يفعله الكونت أن يقدم شكره للملك »

فقال آتوس وهو يبتسم : « ليس هذا وقته يا صديقى »

فاستطرد دارتانيان قائلا : « اذن يا عزيزى تعود الى قصرك الآن ، الا اذا كنت تؤثر مكانا آخر »

فقال آتوس : « لا شىء أحب الى يا صديقى من أن أعود الى عزلتى تحت شجرى الأصيل على شاطىء اللوار »

ثم التفت الى بيزمو وقال : « والآن يا سيدى أحسبنى طليقا ؟ »

فقال محافظ السجن وهو يقلب الورقتين فى يده : « أحسب ذلك يا سيدى الكونت . على الأقل آمل ذلك . الا اذا كان لدى المسيو دارتانيان أمر ثالث سيبرزه ! »

ثم التفت الكونت الى دارتانيان وقال له : « هيا بنا نذهب يا صديقى بصحبتك وهى أكبر مسرة لى فى الحياة ! »

فقال له دارتانيان : « سأصحبك الى باب المدينة فقط ، وبعد ذلك أخبرك بما قلته للملك . أما الآن فانى فى الخدمة رسميا »

ثم قال آتوس لأراميس : « ألا تصحبنا ؟ ان مزرعة لافير فى طريق مدينة فان »

فقال أراميس : « شكرا لك يا صديقى العزيز ، ان عندى الليلة موعدا فى باريس لانجاز بعض المصالح ذات الأهمية »

فقال آتوس : « فى هذه الحالة ارانى مضطرا لأن أودعك الآن »

ثم التفت الى بيزمو وقال له : « انى مدين لك بالشكر الجزيل على لطفك معى ، وعلى نموذج الطعام المعتاد فى الباستيل ! »

ثم قبل أراميس وصافح بيزمو وتلقى منهما أحسن أمانيهما لرحلة سعيدة ، وخرج مع دارتانيان



كان جريمو قد أدرك حين شهد سيده يركب العربة مع دارتانيان أن وراء مظهرهما الهادىء شيئا خطيرا . فلما انطلقت بهما العربة وسمع سيده يقول له : « وداعا » ، عاد الى ذاكرته ما مر من الظروف والملابسات ، واشتد به الحزن والقلق . وسرعان ما انتقل ذهنه الى التفكير فيما لحظه من الاهتمام الذى بدا فى وجه سيده وهو يقرأ خطاب دارتانيان اليه ، ثم فكر أيضا فيما تلا ذلك من زيارة راءول لأبيه ، وكيف دعاه هذا على أثرها وأمره أن يعد لأجله بذلة التشريفة وأوسمته كلها ، ثم كيف عاد من مقابلته للملك مهموما ، وبعد أن تحدث مع راءول خرج هذا من عنده بادى الأسف ، واخيرا وصل دارتانيان وهو يعض على طرف شاربه كعادته كلما غضب ، ثم صحب سيده فى عربته

ونهض جريمو بعد ذلك فبحث فى جيوب سيده عن خطاب دارتانيان ، فوجده وقرأ فيه ما يلى :

« صديقى العزيز .. لقد زارنى راءول وسألنى تفصيل بعض الأمور الخاصة بمسلك الآنسة دى لافالير أثناء اقامته بلندن . وأنا لست الا قائدا للفرسان ، وقد كدت أموت اشمئزازا من سماع الكلام عن الفضائح كل يوم فى الثكنات ، ولو أننى أخبرت راءول بكل ما أحسبنى أعرفه فان المسكين

كان يموت كمدا . ولكنى فى خدمة الملك ولا أستطيع أن أحكى كل ما أسمعه عن شؤون الملك . فاذا حدثك قلبك بالمجىء فافعل دون ابطاء ، فان الأمر يتعلق بك أكثر منى ، ويهمك بقدر ما يهم راءول »

وشد جريمو شعر رأسه من الغيظ ، ثم قال يحدث نفسه : « أجل هذا مفتاح اللغز . ان الفتاة كانت تلعب ألاعيبها . ولا شك الآن فى صحة ما يقوله الناس عنها وعن الملك ، ثم لا شك أيضا فى أن الكونت قد ذهب الى الملك وابدى له جانبا من رايه . وعلى هذا أرسل الملك المسيو دارتانيان الى سيدى الكونت . وقد تذكرت الآن فقط أنه عاد من عند الملك وسيفه ليس معه ! »

وتصبب العرق البارد من وجهه ، ولم يشأ أن يضيع دقيقة واحدة فوضع قبعته على رأسه وانطلق يعدو الى مسكنه ببيت راءول . وكان هذا بعد أن تركته لويز قد تغلب على حزنه وان لم يتغلب على حبه . ونظر الى الطريق الخطر الذى يدفعه اليه التهور والتمرد ، كما أدرك أن والده معرض لغضب الملك ، ثم تذكر زيارة دارتانيان لأبيه . وأدرك أنها لا بد زيارة رسمية موعز بها من الملك ، وشعر بمرارة الندم على أنه فى غمرة ثورته الغرامية نسى أباه فى وقت ينبغى له فيه أن يدفع عنه الخطر الداهم . ولم يلبث حتى شد سيفه الى نطاقه وجرى قاصدا الى بيت أبيه. وفيما هو فى الطريق قابل جريمو قادما من الجهة الاخرى للطريق فقال له :

ـ جريمو .. هل الكونت بخير ؟ أين هو الآن ؟

فقال جريمو : « لقد خرج مع المسيو دارتانيان فى عربته بعد عشر دقائق من خروجك ، ولا أدرى أين ذهبا ؟ »

فسأله : « هل أخذ أبى نقودا معه ؟ وهل كان معه سيفه ؟ »

فلما أجاب جريمو بالنفى ، عض راءول على شفتيه وقال : « اذن لقد جاء دارتانيان لكى يقبض على الكونت ، وأظن أن العربة ذهبت بهما الى الباستيل !. هيا يا جريمو ، يجب الا نضيع لحظة واحدة ، ولكن الى أين نذهب ؟. ان المسيو دارتانيان لن يخبرنا بشىء ، ولكن المسيو دى فالون لا يزال ينتظرنى فى مينيم بغابة فنسين ! »

فقال جريمو : « اذن .. فالطريق واحد الى الباستيل والغابة ، وسأمضى الآن لأعد جوادين ونذهب توا »



كان بورتوس المخلص الأمين على قواعد الفروسية القديمة ، قد اعتزم البقاء حتى الغروب انتظارا للمسيو سان اينيان . فلما لم يأت هذا ، ولم يتصل به راءول مل الانتظار ، وطلب طعاما ونبيذا ليتسلى بهما . وما كاد ينتهى من تناول طعامه وشرابه حتى وصل راءول وجريمو على جواديهما ،

فحسب لأول وهلة أنهما سان اينيان وظهيره ، وقام من مجلسه فوق العشب واخذ يحرك ساقيه وذراعيه ويقول لنفسه : « حسنا فعلت اذ بقيت هنا ولم أذهب ! »

غير أنه فوجىء بأن راءول هو القادم لا سان اينيان ، وكانت دهشته اشد حين قال له راءول : « سامحنى أيها الصديق العزيز . وأرجو الا تبقى غاضبا على ، فما انسانى موعدك الا أننى فى أتعس حال !. آه لو علمت يا صديقى .. انى أؤكد لك أنى أشعر الآن بأن رأسى ليس فى جسمى ! »

فهتف بورتوس سائلا : « انك قتلته اذن ؟.. قتلت سان اينيان !. أليس كذلك ؟ »

فقال له راءول بعد أن تنهد : « كلا يا صديقى !. المسألة ان الكونت دى لافير قبض عليه الآن ! »

فصاح بورتوس فى دهشة : « قبض على الكونت ؟. ومن الذى قبض عليه ؟ ! »

فغمغم راءول قائلا : « دارتانيان » . وهنا اشتد ذهول بورتوس ، وأخذ يدير عينيه فى راءول وجريمو مرددا قوله : « كلا !. هذا محال ! »

وقال راءول : « هذه هى الحقيقة ! » . وأومأ جريمو برأسه موافقا فى حزن ملحوظ ، ثم عاد بورتوس يسأل متعجبا : « الى أين آخذه ؟ »

فقال راءول : « الى الباستيل على الأرجح ، وقد سألنا فى طريقنا بعض الناس فعلمنا منهم ان العربة التى تقلهما دخلت الباستيل »

فتمتم بورتوس قائلا : « هذا خطير .. اننى لن أدع الكونت يبقى ليلة واحدة فى الباستيل ! »

وهنا اقترب منه راءول وقال هامسا : « انك لم تعلم بعد أن القبض عليه كان بأمر الملك ! »

فنظر اليه بورتوس معاتبا كأنه يقول له : « وماذا يعنينى من ذلك ؟ ! »
وأدرك راءول معنى نظرته فلم يسأله سؤالا آخر بل سارع الى امتطاء جواده ، فركب بورتوس جواده كذلك بمساعدة جريمو . ومضى الثلاثة حتى جاوزوا الغابة صامتين . ثم تنهد راءول من أعماق صدره وقال :

ـ ان موقفنا يدعو الى اليأس ، وليس فى استطاعتنا وحدنا أن نقتحم الباستيل !

فقال بورتوس : « كان الموقف يتغير لو ان دارتانيان معنا ! »

فنظر اليه راءول معجبا بهذه الثقة التامة التى تمثل البطولة فى بساطتها ، ثم قال بورتوس : « لقد نبهتنى الى فكرة .. يجب حقا أن نرى المسيو دارتانيان ! »

فأومأ موافقا وقال : « لا بد انه عاد الى بيته بعد أن صحب أبى الى الباستيل . هيا بنا نذهب الى بيته »

وتكلم جريمو لاول مرة فقال : « تسأل أولا فى الباستيل » . فوافقا على اقتراحه فورا ، وحثوا جيادهم قاصدين الى الباستيل ، فلما اقتربوا منه لمح جريمو عربة دارتانيان داخلة الى السجن بعد عودته من مقابلة الملك . وعبثا حاول الثلاثة أن يلحقوا بها ليروا من فيها ، اذ وصلت الجياد الى الجانب الآخر من الباب الكبير بعد أن أغلق من جديد ، وتصدى أحد الديدبانات لجواد راءول وضربه بمؤخرة بندقيته ليحول دون تقدمه ، ففهم راءول من هذا أن العربة لا بد تقل صيدا سمينا ، وكذلك فهم جريمو فلم يسعه الا أن هتف قائلا : « انه هو .. ثم التفت راءول الى بورتوس وقال له :

— ألا ننتظر قليلا ؟.. ألا ترى أنه سيخرج ثانية ؟

فقال بورتوس : « الا اذا أصبح دارتانيان أيضا سجينا ، وفى هذه الحالة نفقد كل شىء ! »

فلم يجب راءول لأن كل فرض كان ممكنا ، وأمر جريمو بأن يقود الجياد الثلاثة الى شارع جان بوزير الصغير حتى لا تثير الشبهات ، ووقف هو يرقب خروج دارتانيان أو العربة . ولم تمض عشرون دقيقة حتى فتح الباب من جديد وظهرت العربة ثانية غير أنه لم يستطع معرفة الاشخاص الذين بها

وقال جريمو : « ان العربة بها شخصان أحدهما سيدى الكونت »

وظل بورتوس يردد بصره بين راءول وجريمو لعله يعرف ما يعتزمان . ثم قال جريمو : « ما دام الكونت فى العربة فاما أن يكون قد أطلق سراحه ، واما انهم يأخذونه الى سجن آخر » . فقال بورتوس : « سنرى أى طريق تسلكه العربة »

فقال جريمو : « اذا كان مطلق السراح فستذهب به العربة الى منزله »

وأومأ بورتوس موافقا ، بينما صاح راءول قائلا : « ان العربة لا تسير فى طريق المنزل »

والواقع أن العربة كانت قد بدأت تختفى فى ضاحية (سان انتوان) . ولم تمض ثلاث دقائق حتى أدرك الفرسان الثلاثة العربة وتبعوها عن قرب حتى صارت أنفاس جيادهم تبلل مؤخرتها . وسمع دارتانيان وقع حوافر الجياد المطاردة للعربة ، وكان راءول قد طلب الى بورتوس أن يسبق العربة ليرى من فى داخلها وهو يمر عليها ، ولكن ستائر العربة كانت تغطى نافذتيها فلم ير بورتوس أحدا ممن فيها ، فاشتد غضب راءول اذ لحظ ذلك ، وهمز جواده حتى سار فى محاذاة العربة وقد اعتزم معرفة من فيها بأى ثمن . وفى هذه اللحظة كان دارتانيان قد لمح بورتوس وراءول من خلال ستائر النافذة وأخبر الكونت بأمرهما . ثم اتفق كلاهما على أن ينتظرا ليريا ما يكون ، وسرعان ما شهر راءول مسدسه فى وجه الحوذى آمرا اياه بالوقوف ، ثم

أمسكه بورتوس وانتزعه من مقعده ، بينما وضع جريمو يده على مقبض باب العربة وأداره بعنف ففتح الباب وظهر الكونت ودارتانيان

وهتف الكونت بابنه قائلا : « أهذا أنت يا راءول ؟ » . وكان دارتانيان يضحك ملء شدقيه ، ثم عانقه كلاهما وقبلاه ، وصاح الكونت مناديا بورتوس قائلا :

— بورتوس الشجاع ! أحسن الأصدقاء ! انك لا تتغير أبدا !

وقال دارتانيان : « انه لا يزال فى العشرين من عمره ... بورتوس الجسور ! »

فبان ارتباك الخجل على بورتوس من هذا المديح وقال : « لقد حسبناك مقبوضا عليك »

وأضاف آتوس قائلا : « بينما الأمر لا يعدو القيام بنزهة فى عربة المسيو دارتانيان »

فقال راءول بلهجة الشك : « ولكنا تبعناك من الباستيل الى هنا »

فقال الكونت : « كنا نتناول العشاء مع صديقنا الطبيب المسيو بيزمو . ألا تذكر بيزمو يا بورتوس ؟ »

فقال بورتوس : « أذكره جيدا ! » . وواصل الكونت كلامه فقال : « وهناك وجدنا أراميس أيضا ! » . ثم نظر الى جريمو وكافأه على همته واخلاصه بابتسامة عذبة سأله هذا على أثرها : « الى أين يذهب سيدى الكونت ؟ »

فقال : « كنا ذاهبين الى (بلوا) . على أن أكتب من هناك الى راءول ليبعث الى بمتاعى أو يجيئنى به عند عودتى اليها ! »

وهنا قال دارتانيان للكونت : « اذا لم يكن لديه عمل يشغله فى باريس ، فانه يحسن صنعا اذا اتبعك يا آتوس »

ونظر الى راءول نظرة نافذة كالصلب ، مؤلمة كحد السيف (لأنها فتحت جراح الشاب المسكين)

فقال راءول : « لم يبق شىء يربطنى بباريس ! »

وهنا قال أبوه : « اذن نذهب معا »

وقال المسيو دارتانيان : « سنصحبكما أنا وبورتوس حتى الحدود ، أما عزيزنا جريمو فيعود الى باريس فى هدوء »

فقال راءول لأبيه محاولا أن يغريه بالكلام : « متى تعود الى باريس ؟ »

فقال له أبوه : « أظن أنه سيمضى وقت طويل قبل أن نعود الى باريس . ان اقامتنا الأخيرة بها لا تشجعنا على العودة اليها ! »

فأطرق راءول وسكت . ثم هبط آتوس من العربة وركب الجواد الذى كان بورتوس يركبه ، وقد بدا على الجواد أنه سر لتغيير حمله ... ثم

تعانقوا وتصافحوا وتعاهدوا على المودة الى الأبد . ووعد بورتوس بأن يمضي شهرا مع آتوس فى أول فرصة تسنح . وتعهد دارتانيان بأن يسافر اليه فى أول اجازة يحصل عليها ، ثم قبل راءول قائلا له : « وسأكتب اليك يا بنى » . ولما كان دارتانيان قليل الكتابة فان هذا الوعد أثر فى نفس راءول حتى اغرورقت عيناه بالدموع

وبعد أن ذهب آتوس وراءول ، لحق دارتانيان ببورتوس فى العربة وقال له : « لا شك أنك متعب »

فقال بورتوس : « الى حد ما . وسآوى الليلة الى فراشي مبكرا لكى أكون مستعدا غدا »

فسأله متعجبا : « لأى شيء تستعد ؟ »

فقال : « أستعد لكى أتم ما بدأته ! »

فنظر اليه دارتانيان مليا وقال له : « انك تجعلنى أرتعد ، اذ تبدو غاضبا هكذا !.. ترى ماذا بدأته يا صديقى ولم ينته بعد ؟ »

فقال بورتوس : « ان راءول لم يقاتل ، ولكنى أنا لا بد أن أقاتل ! »

فسأله دارتانيان : « تقاتل من يا صديقى ؟.. تقاتل الملك ؟ ! »

فدهش بورتوس وقال : « الملك ؟ ! » . فقال دارتانيان : « أجل الملك ! أرايت أيها الطفل الكبير ؟ ! »

فقال بورتوس : « لكنى انما أعنى المسيو سان اينيان ؟ »

فقال : « نعم ، ولكنك اذا جردت سيفك لتبارز هذا الرجل فانما تقاتل الملك »

فبدت الدهشة فى وجه بورتوس ونظر الى المسيو دارتانيان قائلا : « أواثق أنت من ذلك ؟. وماذا نفعل اذن ؟ »

فقال دارتانيان : « خير ما نفعل أن نتناول عشاء جيدا . ان مائدة قائد الفرسان لا بأس بها . وهناك ستجد سان اينيان الوسيم وتشرب نخبه ! »

ثم ابتسم حين اشتدت دهشة بورتوس ، وهتف به قائلا : « ماذا ؟.. أترفض أن تشرب نخب الملك ؟ »

فقال بورتوس : « انى لا أتكلم عن الملك مطلقا ! »

فقال دارتانيان : « أكرر لك القول بأن الأمر سواء ! »

ولما رآه يومىء برأسه موافقا قال له : « حسنا !.. ها أنت ذا قد فهمت »

فغمغم بورتوس قائلا : « لم أفهم شيئا .. الا أن الأمر سواء كما تقول ! »



بقى بيزمو بعد انصراف دارتانيان والكونت دى لافير من الباستيل ، يتحدث الى أراميس ، وقد أطلق لسانه ما شرب من الخمر بعد العشاء .

ولم يفطن الى أن جليسه الأسقف لا يزهد شيئا زهده للكلام بعد تناول الحلوى... وهكذا استمر الحديث بينهما من طرف واحد هو المسيو بيزمو.. وكان محور حديثه ذلك الحادث الفريد الذى وقع منذ برهة ، وهو اعتقال آتوس والافراج عنه فورا ، ولم يفته أن الأمرين المتناقضين المتتاليين كانا بتوقيع الملك نفسه . غير أنه رأى أن الملك ما كان ليكتب مثل هذين الأمرين الا تحت ضغط ظروف خاصة

وكان هذا كله شائقا ومحيرا للمسيو بيزمو ، لكنه كان عكس ذلك واضحا كل الوضوح لأراميس ، فانه لم يعط لهذا الحادث كل الأهمية التى أضفاها عليه محافظ السجن الهمام !. ومن هنا لم يلبث قليلا حتى قطع كلامه قائلا :

ــ خبرنى يا عزيزى المسيو بيزمو .. ألم يقع لك من ضروب التسلية فى الباستيل غير ما شهدته فى المرتين أو المرات الثلاث التى زرتك فيها ؟

فقال بيزمو : « ان لدى أنواعا كثيرة حاضرة من التسلية ، يا صاحب الفخامة »

فسأله أراميس : « عن الزيارات التى تتم هنا طبعا ؟ »

فقال : « لا .. ليست عن زيارات .. ان الزيارات ليست كثيرة هنا ! »

فقال له : « وهل الزيارات نادرة هنا حتى من جانب مجتمعك ؟ »

فبدت الدهشة فى وجه محافظ السجن وسأله : « ماذا تعنى ؟. أتقصد السجناء ؟ »

فقال : « كلا ! . انى أعرف حق المعرفة أنك أنت الذى تزور السجناء وليسوا هم الذين يزورونك . ولكنى أعنى بمجتمعك ، المجتمع الذى أنت عضو فيه ! »

فنظر بيزمو الى أراميس نظرة فاحصة ، ودارت بخلده فكرة ولكنه وجدها مستحيلة فقال :

ــ أوه ، لا أرى الا قليلا من المجتمع فى الوقت الحاضر . والواقع يا عزيزى دربلاى ان الاقامة بالباستيل تبعث الملل والكرب فى نفس الشخص الميال الى المرح . ثم أن السيدات لا يصلن الى هنا الا فى خوف وفزع وهذا يسبب لى متاعب جمة ، وفى الحق كيف لا يرتعدن فرقا حين يرين هذه الجدران الكئيبة ويذكرن أن فى داخلها رجالا ...

وسكت اذ تلعثم لسانه تأثرا بنظرة أراميس الفاحصة فلم يتم جملته . ثم قال له أراميس :

ــ يا عزيزى بيزمو . انك لم تفهم ما أقصده . انى لم أرد أن أتحدث عن المجتمع بوجه عام ، بل أردت أن أتكلم عن مجتمع معين ، عن الجمعية التى أنت عضو فيها !

فكادت الكأس تسقط من يد بيزمو حين سمع هذه الكلمة الاخيرة وصاح قائلا : « جمعية ؟ عضو ؟ ! »

فقال أراميس هادئا : « أجل . ألست عضوا فى جمعية سرية يا عزيزى بيزمو ؟. ان هذه هى الحقيقة التى أعرفها كما أعرفك .. ولا داعى لأن تنكر. ولعلك تحسن اذ تتجرع كأسك أولا لأنك – الى حد ما – تبدو خائفا .. اشرب كأسك يا عزيزى لكى نتفاهم ! »

وتجرع بيزمو كأسه ، بينما قال أراميس : « ليس يعنينى قط أن تكون أو لا تكون عضوا فى جمعية سرية أو خفيــة ، ولكنك ان لم تكن عضوا فى جمعية أعنيها بالذات فانك لن تفهم شيئا مما سأقوله . هــذا كل ما فى الأمر ! »

فقال بيزمو : « صدقنى .. أنا لم أفهم شيئا مما تعنيه ، وما أحسب أنى سأفهم ! »

فقال أراميس : « لا داعى لليأس !. ألست تعلم مثلا أن الانسان لا يمكنه أن يكون عضوا فى جمعية ويستمتع بمزايا عضويتها الا اذا ارتبط ببعض خدمات صغيرة يؤديها لها ؟ »

فقال بيزمو متلعثما : « هذا واضح ! »

فقال أراميس : « حسنا !. هناك فى الجمعية التى أعنيها ، تعهد يرتبط به جميع المنضمين اليها من محافظى السجون ورؤساء حراسها »

وهنا امتقع وجه بيزمو ، بينما واصل أراميس كلامه فقال :

– ان ذلك التعهد يقضى على محافظ السجن أو رئيس حراسه بأن يسمح لأى قسيس تابع للجمعية بزيارة أى سجين ليتلقى اعترافه عند الحاجة سواء أطلب السجين هذا أم لم يطلبه

وسكت أراميس هنيهة متفرسا فى وجه بيزمو الذى كان يرتعد فرقا . ثم عاد يسأله : « أليس هذا هو نص التعهد ؟ »

فغمغم بيزمو قائلا : « يا صاحب الفخامة ؟! » . وابتسم أراميس قائلا له : « حسنا . لقد بدأت تفهم على ما أظن ! »

ثم استجمع بيزمو شتات ذهنه وقال : « يا صاحب الفخامة ، لا تلعب بعقلى المسكين . انى أجد نفسى لا شىء فى يدك ، فلا تحاول أن تستل منى الأسرار الصغيرة لادارة السجن ! »

فقال له : « لاتخدع نفسك يا مسيو بيزمو ، اننى لا أعنى الأسرار الصغيرة لادارة السجن ، ولكنى أعنى أسرار ضميرك ! »

فقال بيزمو : « أرجو الا تكون قد نسيت أن المركز الذى أنا فيــه ليس مركزا عاديا ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « يا عزيزى .. انه حقا لا يكون مركزا عاديا اذا كنت عضوا فى تلك الجمعية ، أما اذا لم تكن عضوا فيها فان مركزك يكون طبيعيا ، اذ تكون حرا غير مقيــد بتعهــد ، ولست مسئولا الا أمام الملك وحده ! »

فتنهد مسيو بيزمو وقال : « حسنا يا سيدى !. انى أطيع الملك ، والا فمن غيره يدين له نبيل فرنسى بالطاعة ؟ »

فلم يتراجع أراميس قيد أنملة ولكنه قال بصوته الفضى الهادىء : « انه لشىء سار أن يسمع نبيل أو أسقف مثلى رجلا فى مركزك يعبر عن ولائه هــذا التعبــير يا عزيزى المسيو دى بيزمو ، ويسرنى الا أعتقد أكثر مما تعتقده ! »

فسأله بيزمو : « أأنت فى شك من صدق كلامى يا سيدى ؟ »

فأجاب قائلا : « أنا لا أشك فى أن رجلا مثلك لا يخلص الخدمة للسادة الذين اختارهم لنفسه ! »

فصاح بيزمو قائلا : « سادة ؟!.. لا شك أنك لا تزال تمزح . أليس كذلك ؟ »

فقال أراميس جادا : « من الصعب أن يكون للانسان سادة عديدون لا سيد واحد . غير أن هذه الحيرة ناشئة منك يا عزيزى بيزمو ولست أنا السبب فيها ! وعلى كل حال أظن أنه يستحسن أن أذهب الآن ؟ »

فقال المحافظ وقد زاد ارتباكه : « أتغادر المائدة ؟. لماذا بالله ؟.. ان مسلــكك معى عجيب يا صاحب الفخــامة .. هل آليت على نفسك أن تعذبنى ؟ »

فقال أراميس وهو يتهيأ للنهوض : « لم يبق لى ما أفعله هنا ، وعنــدى واجبات عاجلة فى جهات أخرى ! »

فتساءل بيزمو فى دهشة : « واجبات فى مثل هذه الساعة ؟ »

فقال أراميس : « أجل يا عزيزى بيزمو .. ولقد قالوا لى فى المكان الذى جئت اليك منه : ان محافظ السجن سيسمح بدخول قسيس من أتبــاع الجمعية ليتلقى اعتراف السجين بناء على طلبه . وعلى ذلك جئت . ولكنك لا تدرى ما أعنيه ولذا سأعود اليهم لأصــارحهم بأنهم على خطأ ويجب أن يبعثوا بى الى مكان آخر ! »

فنظر بيزمو الى اراميس نظرة خــوف وقال له : « انك يا صــاحب السيادة ... »

فقطع أراميس كلامه قائلا : « أنا قسيس تابع للجمعيــة التى حدثتك عنها . ولكن لا فائدة من الكلام فى هذا ، لأنك طبعا غير مقيد باجابة طلب الجمعية ما دمت غير عضو فيها كما فهمت الآن ! »

فقال له بيزمو : « يا صاحب السيادة .. أرجو أن تصغى الى .. انى لم أقل بألا صلة لى بالجمعية ، ولم أقل : انى أرفض أن ألبى طلبها !. وكل ما هناك أنى أردت أن أستوثق . وأنا فى جميع الظروف والأحوال تحت أمر سادتى »

فقال أراميس : « حسنا !· انى أفضل أن تكون هكذا يا سيدى ، فما الذى تريد أن تستوثق منه ؟ »

فقال متلعثما : «لا شيء ! أعنى أننى لم أتلق أى نبأ ، ولم أتوقع قط···»

فقطع كلامه قائلا : « أليس شعار الجماعة : (كل ما أريده ستريده أنت كذلك) ··؟ »

فقال بيزمو : « لكن يا صاحب السيادة ليس فى الباستيل الآن أى سجين مريض حتى يطلب الاعتراف ! »

فهز أراميس كتفيه ثم استدار فى مقعده وأشار الى الباب قائلا : « يا مسيو بيزمو ، ان خادمك يريد أن يكلمك ! »

فقال الخادم : « سيدى ·· انهم أحضروا تقرير الطبيب ! »

فنظر أراميس الى بيزمو مبتسما ، وقال هذا للخادم : « دع الرسول يدخل »

ودخل الرسول فحيى وقدم تقريرا لبيزمو فقرأه هذا وقال : « ان السجين بالغرفة ١٢ مريض ! »

فنظر اليه أراميس وقال : « أرأيت اذن أنه ليس كل من فى السجن فى صحة جيدة ؟! »

فأشار المحافظ الى الرسول لكى يخرج ، فلما خرج قال لأراميس وهو يرتعش : « ان نظام الجماعة يشترط أن يطلب السجين قسيسا يتلقى منه الاعتراف »

فأومأ أراميس موافقا ، ثم أشار مرة أخرى الى الباب قائلا : « هذا جاويش بالباب · ترى ماذا يريد هو الآخر ؟ »

والتفت بيزمو ، فلما رأى الجاويش بالباب صاح به قائلا : «ماذا تريد؟· ألا يمكن أن تتركونى فى هدوء عشر دقائق ؟! »

فقال الجاويش : « ان السجين الذى بالغرفة رقم ١٢ قد طلب الى أحد السجانين أن يرجو منك ارسال قسيس اليه ليعترف له ! »

فكاد بيزمو يسقط على الارض ، ولكن أراميس لم يرد أن يطمئنه كما لم يرد من قبل أن يزعجه فالتزم الصمت الى أن سأله بيزمو : « بماذا أجيب ؟ » · فقال له : « اننى لست محافظ السجن ! »

فتنهد بيزمو وقال للجاويش : « أبلغ السجين أن طلبه أجيب ! »

ولما ذهب الجاويش قال بيزمو لأراميس : « آه يا صاحب السيادة !·· أكان باستطاعتى أن أتوقع ذلك ؟ »

فأجابه أراميس فى ازدراء : « من الذى طلب اليك أن تتوقع أو تتنبأ ؟· ان الجماعة هى التى تتوقع وتتنبأ · ألا يكفى هذا ؟ »

فسأله بيزمو : « بماذا تأمر ؟ »·فأجاب قائلا : « أنا ؟· لا شيء مطلقا !· أننى لست الا قسيسا مسكينا يتلقى الاعترافات · أتأمرنى بأن أذهب الى المريض ؟ »

فقال له : « اوه يا صاحب السيادة ·· انى لا آمرك بل أرجو منك أن تذهب اليه ! »

فنهض أراميس وهو يقول : « حسنا !· هيا اذن قدنى اليه ! »



تغيرت معاملة بيزمو لأراميس منذ علم بأنه قسيس للجماعة يتلقى الاعترافات من السجناء ، وبعد أن كان ينظر اليه على أنه قسيس صديق حميم ، بدأ يشعر بضعفه حياله،وبأنه أحد السادة الذين عليه أن يطيعهم · وعلى هذا أشعل بنفسه مصباحا ثم نادى حارسا والتفت الى أراميس قائلا : « انى رهن أمرك يا مولاى » · فلم يزد أراميس على أن أومأ برأسه وأشار اليه بيده ليريه الطريق ، فسار بيزمو أمامه ومن ورائهما الحارس حتى دخلوا السجن وقد اختلط وقع أقدامهم فيه بصليل مفاتيح الحراس المعلقة بأحزمتهم · وكان السجان الذى وراءهما هو نفسه الذى استقبل أراميس حين جاء ، بالسؤال والفضول ، أما الآن فقد مشى مطأطىء الرأس جامد الملامح · ولما وصلوا الى غرفة السجين المريض بدا من بيزمو أنه راغب فى الدخول ، ولكن أراميس وقفه عند الباب قائلا : « ان القواعد لا تسمح لمحافظ السجن أن يستمع لاعترافات السجين ! »

فانحنى بيزمو وأفسح الطريق لأراميس ، فأخذ هذا المصباح ودخل ، ثم أشار الى المحافظ والسجان لكى يذهبا ، ووقف لحظة ليستوثق من ذهابهما ، حتى اذا اطمأن الى ذلك من وقع أقدامهما ، وضع المصباح على منضدة بغرفة السجين ، وأخذ يجيل بصره فى أرجاء الغرفة فى هدوء· وكان بالغرفة شاب راقد على سرير مغطى بصوف خشن أخضر ، لا يمتاز عن السرر الاخرى بشيء سوى أنه حديث،وطبقا لأنظمة السجن كانت المصابيح التى بغرف السجناء تطفأ كلها حينما يأتى المساء ، ولكن مصباح غرفة هذا السجين كان باقيا مضيئا الى تلك الساعة مما يدل على امتيازه · وكانت تعلو السرير ستائر نصف مفتوحة ، وعلى مقربة منه كرسى كبير مغطى بالجلد ، ومنضدة ليس عليها كتب ولا أقلام حبر ، ولكن عليها عدة أطباق مملوءة بالطعام مما يدل على أن السجين لم يتذوق شيئا من عشائه ·ورأى أراميس ذلك الشاب ممددا على سريره وقد غطى نصف وجهه بذراعيه ، ولم يتحرك عند دخوله · فاقترب منه فى شيء من الفضول والاحترام ، وعندئذ رفع الشاب رأسه وقال له : « ماذا تريد ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « لقد طلبت قسيسا تعترف له ، هل أنت مريض جدا ؟ »

فصعد الشاب بصره فى أراميس وقال له : « شكرا لك ! »

وبعد أن سكت لحظة قال له : « لقد رأيتك من قبل .

فأومأ أراميس برأسه موافقا ، وبدا على السجين أنه لم يطمئن كثيرا الى ما يبدو على أسقف « فان » من صرامة وجمود ، فقال : « ان صحتى قد تحسنت ! » . فسأله أراميس : « وإذن ؟ »

فأجاب الشاب قائلا : « ما دامت صحتى قد تحسنت فأحسبنى لست الآن فى حاجة الى قسيس أعترف له ! »

فقال له أراميس بتؤدة : « حتى على الرغم من رقعة الورق التى دست فى خبزك وفيها أن أحد رجال الكنيسة سيفضى إليك بحديث ذى شأن ؟ »

فبدا الشاب يجاهد كى يحافظ على هدوئه ، ثم قال : « اذا كان الأمر كذلك فانى مصغ اليك »

وعاد فوضع رأسه على الوسادة ، وأمعن أراميس فيه النظر فراعه جلال البساطة فى ملامحه وهو شيء لا يكتسب ولكن يودعه الله فى قلب من يشاء أو يمزجه بدمه . ثم قال له السجين : « إجلس ! »

فانحنى أراميس وأطاعه ثم سأله : « أأنت مرتاح هنا فى الباستيل ؟ . أعنى : ألا تتألم لشيء أو تأسف على شيء كحريتك مثلا ؟ »

فقال الشاب : « كلا ! . لست أشعر بألم أو أسف ، ولكن ماذا تقصد بالحرية يا سيدى ؟ »

فقال : «أعنى الهواء والضوء والازهار والنجوم ومسرة الذهاب الى حيث توجهك أعضاء سن العشرين ! »

فابتسم الشاب وقال : « انظر .. ان عندى فى هذه الزهرية اليابانية وردتين قطفتا مساء أمس من حديقة المحافظ . واليوم صباحا تفتحت أكمامهما وأنا أرقبهما بعينى . وها هى ذى الغرفة مفعمة بأريجهما العطر ، انظر اليهما . انهما تعدان جميلتين بين الورد ، وهو نفسه أجمل الازهار . فلماذا اذن تريدنى على أن أطلب أزهارا أخرى مع أن عندى أجمل الازهار طرا ؟! »

فنظر أراميس اليه مندهشا ، بينما استطرد الشاب قائلا : « اذا كانت الازهار عنصرا من عناصر الحرية فأنا اذن حر ! »

فقال أراميس : « والهواء ؟.. أليس ضروريا للحياة ؟! »

فقال : « نعم يا سيدى .. وفى استطاعتك من النافذة المفتوحة هنا أن ترى الهواء يتخلل الفضاء بين السماء والارض ، وها أنذا أشعر بنسماته فوق خدى . وأحيانا أقف على هذا الكرسى فأمسك بقضبان النافذة بيدى وأتخيل أنى أسبح فى الفضاء الفسيح الذى أمامى ! »

فقطب أراميس جبينه واستمر الشاب يقول : « أما الضوء فعندى ما هو خير منه ، أعنى الشمس التى تزورنى كل يوم دون اذن من المحافظ أو السجان . انها تأتى الى عند النافذة وتعكس صورتها على هيئة مربع ذى

قضبان ، باعثة أشعتها على أغطية سريرى حتى الارض ، ثم يزيد حجم هذا المربع المضيء بين الساعة العاشرة والظهر وبعدئذ يتلاشى فى بطء من الساعة الاولى حتى الثالثة ، وأكون قد استمتعت بالشمس أربع ساعات . ألا يكفينى هذا ؟ . ان هناك مخلوقات شقية تحفر فى المحاجر ، وأخرى تشتغل فى المناجم ولا ترى الشمس مطلقا ! »

فأطرق أراميس وقد شعر بقوة فلسفة الشاب الحزينة ، ثم قال هذا : « هذا عن الازهار والهواء والضوء والنجوم .. ولم يبق الا تحريك أعضائى .. وأنا أسير طول النهار فى حديقة المحافظ اذا كان الجو صحوا ، أو أمشى فى غرفتى اذا كان الجو ممطرا . ألا ترى اذن ياسيدى انى أنعم هنا بكل ما يتمناه الانسان أو يحبه ؟ »

فقال له أراميس : « هذا من فضل الله يا سيدى ، ولكن لنعد الى النقطة التى بدأنا منها . اننى القسيس الذى طلبت أن تعترف له ! . فماذا لديك من حقائق تخبرنى بها بحسبانك نادما تائبا ؟ »

فقال السجين : « ان ضميرى لا يتهمنى باقتراف أية جريمة ! »

فقال أراميس : « حسنا ! . لكننا كثيرا ما نكون مجرمين فى نظر العظماء لا لأننا ارتكبنا جرائم بل لأننا نعلم أن جرائم قد ارتكبت ! »

فأبدى السجين اهتماما بالغا وقال : « أجل انى أفهم ذلك ، وانك لعلى صواب يا سيدى ، فمن المحتمل أن أكون مجرما بهذا المعنى »

فقال أراميس فى هدوء : « ألا يذكر سيدى أنه رأى منذ خمس عشرة أو ثمانى عشرة سنة فى قرية (نوازى ــ له ــ سيك) فارسا كانت معه سيدة مرتدية ثيابا حريرية سوداء وبشعرها أشرطة حمراء ؟ »

فقال : « أجل ! . وقد أدهشنى يومئذ أن الفارس قسيس يدعى الأب دربلاى ، ثم زالت دهشتى اذ علمت أنه كان من فرسان لويس الثالث عشر »

فقال أراميس : « حسنا ! . ان ذلك الفارس القس صار بعد ذلك أسقف فان ، وهو نفس القس الماثل بين يديك الآن ليتلقى اعترافك ! »

فهز الشاب رأسه دلالة على أنه تذكر ذلك ، بينما واصل أراميس كلامه فقال : « أما وقد علمت ذلك يا صاحب الفخامة ، فاعلم أيضا أنه لو علم الملك بأن هذا القس جاء اليك الليلة مجازفا بكل شيء ، فانه لن يحجم عن الأمر باعدامه بعد أن يزج فى غرفة من السجن أظلم من غرفتك هذه ! »

وهنا استوى الشاب جالسا فى سريره ، وأخذ ينظر اليه باهتمام ، وكأنما أحس الثقة به !

فقال أراميس : « سأقول لك فى ايجاز ما حدث فى فرنسا خلال السنين الثلاث والعشرين أو الأربع والعشرين الاخيرة التى انقضت منذ ميلادك » . ثم أخذ يسرد على مسمعه أسماء ملوك فرنسا الاخيرين فألفاه يعرف أكثرها من العملة ، ثم حدثه عن لويس الثالث عشر فقال : « انه كان يتوق لأن



« وأخذ السجين يتأمل وجهه فى المرآة ، ثم قال : أنتشابه إلى هذا الحد ؟! »

يكون له ولد يرث العرش من بعده · وقد مكث سنوات طويلة يائسا · ثم اذا بالملكة آن النمسوية تضع وريثا للعرش فى يوم ٥ سبتمبر سنة ١٦٣٨»

ومرة أخرى لحظ أراميس ارتعاش الشاب ، وخيل اليه أن وجهه قد امتقع ، فقال له : « ستسمع الآن شيئا لا يعلمه الا قليلون ، لانه سر يحسبونه قد قبر مع الذين كانوا يعرفونه · على أنى فى الواقع لست أدرى ما الفائدة من ذلك ما دمت غير راغب فى مغادرة الباستيل ؟ »

ولم يزد الشاب على أن كرر قوله : « استمر ·· انى مصغ اليك »

فقال أراميس : « وفيماكان البلاط يعلن ابتهاجه بذلك الحادث السعيد، والملك يرى الأمير الوليد للنبلاء والشعب ، ثم يجلس الى المائدة ليحتفل بذلك ، وضعت الملكة وليدا ذكرا آخر !· وأبلغ النبأ الى الملك وهو جالس فى المأدبة ، لكنه فى هذه المرة لم ترتسم على ملامحه دلائل السرور ، بل بدا أقرب الى القلق والجزع · ولا عجب فنظام الملك يقضى بأن يرث العرش أكبر أبناء الملك كما تعلم ، والأطباء ورجال القانون لا يقطعون برأى فى تحديد أى التوأمين أكبر ! »

وهنا ازداد امتقاع وجه السجين حتى صار أشد بياضا من غطاء سريره، ثم قال أراميس : « والآن تدرك كيف أن الملك تولاه اليأس والحزن لخوفه من أن يتنازع ولداه التوأمان على العرش ، وقد تشب من أجل ذلك نار حرب داخلية تقضى على الأسرة المالكة كلها ! »

فتمتم الشاب قائلا : « استمر ·· استمر انى أفهم ما تقول »

ثم قال أراميس : « وحدث بعد ذلك أن حكم على أحد التوأمين بأن يختفى فى الظلمات ، وهكذا اختفى الوليد الثانى،دون أن يعلم أحد أين هو ما عدا والدته ! والسيدة التى كانت مرتدية ثيابا سوداء ··· »

فسارع الشاب الى اتمام عبارته قائلا : « وما عداك أيضا·أليس كذلك؟· لقد أتيت الآن لتقص على كل هذا ، ولتثير فى نفسى الفضول والبغضاء والطموح ، وربما أيضا الرغبة فى الانتقام !· واذا كنت أنت الرجل الذى أرتقبه والذى تنطبق عليه المذكرة التى تلقيتها ، فيجب أن تكون معك الآن صورة الملك لويس الرابع عشر الذى يجلس الآن على عرش فرنسا ؟»

وهنا مد أراميس يده الى جيبه وأخرج صورة تمثل لويس الرابع عشر بوجهه الوسيم وملامحه النبيلة ، فنظر اليها السجين وهو يكاد يلتهمها بعينيه · ثم قال له أراميس : « والآن يا صاحب الفخامة ·· اليك مرآة أيضا » · ثم ناوله مرآة صغيرة أحضرها معه ، فأخذ السجين يتأمل وجهه فيها ، ويقارن بينه وبين وجه الملك لويس الرابع عشر فى الصورة وهو يتمتم قائلا : « أنتشابه الى هذا الحد ؟! »

فابتسم أراميس وقال : « والآن ما رأيك يا صاحب السمو الملكى ؟ »

فحدجه الشاب بنظرة قاسية قائلا : « لا تخاطبنى هكذا يا سيدى ،

لا تدعنى أفكر فى شىء عدا جدران السجن هذه التى تضمنى بينها ، دعنى أعد الى حب الأسر والظلمة أو الى الاستسلام لهما على الأقل ! »

فقال أراميس : « يا صاحب السمو ٠٠ انك اذ تلفظ كلمات اليأس هذه بعد أن أطلعتك على برهان ميلادك الرفيع ، واذ تريد أن تبقى خامل الجسم والروح ، فاننى لا يسعنى الا أن أتخلى كارها عما جئت لعرضه طائعا من المعاونة والتضحية ! »

فقال الشاب : « يجدر بك أن تفكر فى أن ما أخبرتنى به قد حطم قلبى الى الأبد !٠ لقد حدثتنى عن السلطة والعظمة بل الملك ٠ أفيصلح السجن مكانا لذلك ؟٠ انك تريدنى على أن أفكر فى العظمة علـى حين نجلس هنا مختبئين فى الظلام ٠ انك تلوح لى بالمجد بينما نحن نهمس بحديثنا وراء الستائر المسدلة فوق هذا السرير الحقير ، وتلمح لى بالسلطان المطلق بينما نحن نرتعد لسماع وقع خطى السجان فى ممر السجن !٠ كلا يا سيدى !٠ اذا أردت أن أصدق ما تقول فدعنى أولا أخرج من الباستيل »

فانحنى أراميس مرة أخرى وقال : « يا صاحب السمو ٠٠ اصبر حتى ترى النتيجة وعندئذ تحكم لى أو على ! »

واستطرد الأمير فقال : « حسنا يا سيدى !٠ واذا كنت بفضلك سأحيا فى التاريخ ، وسأخلد لسلالتى الفخر بأعمال البسالة وبنفع الشـعب ، واذا كنت سأرتفع بيدك الكريمة من أعماق السجن والحزن الى قمة الشرف والمجد ، فانى لن أحجم عن منحك شطرا من سلطانى ومجدى ، ولن أوفيك مع ذلك حقك ، لأنى لن أسـتطيع أن أقاسمك السعادة التى أكون قد تلقيتها من يديك ! »

فقال أراميس وقد تأثر من حماسة الأمير : « يا صاحب السمو ٠٠ ان نبل شعورك يملأ قلبى فرحا واعجابا ٠ لن تكون أنت المدين لى بالشـكر ولكن الأمة التى ستكفل لها السعادة »

فمد الأمير يده الى أراميس ، وسارع هذا الى تقبيلها راكعا وقال : «هذه أول ظاهرة ولاء لملكنا المقبل ٠٠ وحين أراك فى المرة القادمة سأحييك كما ينبغى أن يحيى جلالة الملك العظيم ! »

ثم قرع باب الغرفة فجاء السجان مع بيزمو ، وكان الأخير قد بدأ يقلق ويخاف ، فأخذ يتسمع عند الباب لكنه لم يسمع شيئا لحسن الحظ

ولما وصل أراميس الى الجناح الذى يسكنه المحافظ قال له : « اليك الآن هذا الايصال الخاص بمبلغ المائة وخمسين ألف ليفر ، لقد كلفتنى الجمعية أن أرده اليك »

الافراج عن السجين

كان جان برسرآن خياط الملك، يشغل بيتا كبيرا فى شارع سان أونوريه، وكان رجلا ذا ذوق رفيع ، قد ورث خياطة الثياب للملك أبا عن جد ، منذ عهد شارل التاسع ٠ ومع أن برسران الجد فى ذلك العهد كان بروتستانتى المذهب ، فان ملكة نافار ، أو مارجوت الحسناء كما كانوا يسمونها ، بسطت عليه حمايتها لانه وحده الخياط الذى أعجبت باتقانه حياكة ملابس الركوب الخاصة بها بحيث تخفى عيوب جسمها !٠ وكان برسران بعيد النظر فلم يلبث قليلا حتى غير مذهبـه ، وعاد هو وأسرته الى الكاثوليكية ، فلم يبق ثمة حائل دون أن يصبح حائك الملك، وتوارث ابنه وأحفاده هذا المركز بعده

والى محل هذا الحائك العظيم ذهب دارتانيان بصديقه بورتوس ، وقال الاخير فى الطريق لصاحبه : « حذار أن يسىء هذا الحائك بوقاحته الى ،والا فانى سأعاقبه أشد العقاب اذا لم ألق منه الاحترام الواجب ! »

ولما وقفت بهما العربة عند باب البيت عجب بورتوس من كثرة العملاء المنتظرين هناك ، وكانوا جميعا من الطبقة الرفيعة ، وقد جلسوا فى صمت ووقور ٠ وبعد قليل جاء خادم يعتذر لهم جميعا بأن المسيو برسران مشغول ولا يستطيع استقبال أحد ٠ وأسر الى بعضهم بأن سيده يعد خمس بذلات للملك ، وانه مستغرق فى التفكير لاختيار ألوانها ، وأشكالها والزينة التى يضعها عليها ٠ فاقتنع بذلك أكثر الحاضرين وانصرفوا صامتين ، بينما أصر بعضهم على الانتظار لصلتهم الوثيقة بالمسيو برسران

وكان خدم الدار قد هموا بأن يحولوا دون دخول دارتانيان وبورتوس، ولكن الاول صاح بهم قائلا : « بأمر الملك » ٠ فكانت هذه الكلمة كافيـة للسماح له وصاحبه بالدخول حيث جلسا يرقبان مساعدى الحائك العظيم وقد انهمكوا فى أعمالهم محاولين جهدهم أن يرضوا العملاء فى غيـابه ٠ وما لبث دارتانيان قليلا حتى نظر فى دهشة الى رجل فى نحو الاربعين من عمره كان جالسا على كرسى أمام حاجز يكاد يخفى وجهه ، وقد أسند ذقنه الى يده ، وراح يتأمل الحاضرين ٠ ثم هتف دارتانيان بذلك الرجل قائلا : « هل أصبحت مساعد حائك يا مسيو موليير ؟ » (*)

فأجابه هذا قائلا : « صه !٠٠ لا تدع الناس يعرفونى !٠ فالحقيقة أنى مشغول بمراقبة الناس ومعرفة بعض النماذج منهم ! »

(*) موليير الشاعر الفرنسى المشهور

فأومأ دارتانيان موافقا وقال : « حسنا يا موليير . على شرط أن تقول لى أين المسيو برسران ! »

فقال موليير : « انه فى غرفته الخاصة ، ولكنه لا يمكن أن يقابل أحدا »

فقال له : «حسنا يا عزيزى المسيو موليير ، لكنى أرجو أن تذهب وتخبره بأنى هنا . والا فانى لن أطلعك على نموذج يستحق الدراسة »

ونظر موليير الى بورتوس كأنه يسأل دارتانيان : « أهذا هو النموذج الذى تعنيه ؟ »

وأومأ دارتانيان موافقا وهو يبتسم . فأخذ موليير ينظر الى بورتوس متفحصا وما لبث حتى آمن بأنه جدير بالدراسة ، فنهض لتوه ومضى الى غرفة برسران دون أن ينبس ببنت شفة

وبعد عشر دقائق ظهر موليير مطلا من وراء الستارة المسدلة على باب غرفة برسران وأشار بيده داعيا دارتانيان وبورتوس فنهضا مسرعين ، ولم تمض دقيقة حتى كانا أمام الحائك العجوز فى غرفته ، حيث جلس ممسكا بقطعة قماش من الحرير موشاة بالذهب ، ثم نحاها جانبا ونهض محييا دارتانيان قائلا : « لا شك أن قائد الفرسان يعذرنى لأنى مشغول »

فقال دارتانيان : « أجل يا عزيزى ، فأنا أعلم أنك تخيط ثلاث بذلات لصاحب الجلالة »

فقال برسران مصححا : « بل خمس بذلات يا سيدى ! »

وابتسم دارتانيان وقال : « ثلاث أو خمس أو أكثر .. على كل حال أنا واثق بأنها ستكون آية من آيات الابداع ! »

فتنهد برسران وقال : « أجل انها متى انتهت خياطتها ستكون أجمل بذلات فى العالم ، ولكن لابد أن يتم صنعها أولا ، برغم أن الوقت ضيق جدا لا يتسع لذلك ! »

فقال له دارتانيان : « لقد بقى يومان ، وهما أكثر من الوقت المطلوب »

فنظر الحائك اليه نظرة تساؤل اذ لم يكن قد اعتاد أن يعارضه أحد . ثم قال دارتانيان : « لقد جئتك بعميل عظيم . وها أنذا أقدم لك صديقى الكبير جناب البارون دى فالون دى براسييه دى بيرفون ! »

فانحنى برسران انحناءة خفيفة لم يرتح لها بورتوس الذى كان ينظر اليه منذ البداية نظرة تساؤل . ثم قال دارتانيان : « انه صديق قديم حميم ، ولهذا أرجو أن ... »

فقال برسران مقاطعا : « مرحبا بالسيد العظيم ، انه ليسرنى حقا أن أكون فى خدمته متى سمح الوقت بذلك ! »

وهنا ظهر أراميس فجأة بالباب وقال لبرسران : « لا شك فى أن الوقت يسمح اذا زكيت لك هذا الطلب ! »

فصاح الثلاثة معا مندهشين ، بينما واصل أراميس كلامه قائلا :

— يجب أن تخيط للبارون بذلته لأن ذلك يرضى أيضا المسيو فوكيه !

ولما كان لاراميس على برسران نفوذ أقوى من نفوذ دارتانيان فانه سرعان ما انحنى موافقا ، والتفت الى بورتوس وقال له بجفاء : « اذهب لأخذ مقاسك فى الجانب الآخر من البيت ! »

فاحمر وجه بورتوس من الغضب ، ولحظ دارتانيان أن العاصفة توشك أن تهب ... فقال لموليير بصوت خافت : « انك ترى أمامك رجلا يحسب أنه يهان اذا قيس لحمه وعظمه كما خلقهما الله . فادرس هذه الشخصية أيها الشاعر واستفد من دراستك ! »

ولم يكن موليير بحاجة الى هذا الاغراء ، فقد استقر بصره على البارون بورتوس ثم قال له : « سيدى .. اذا أتيت معى فانى سأجعل المساعد يأخذ مقاسك دون أن يلمسك ! »

وكان أراميس يرقب هذا المنظر ، ويود لو يذهب دارتانيان مع بورتوس وموليير ، ولكنه لحظ أن دارتانيان بقى فى الغرفة ، وما لبث هذا أن التفت اليه وسأله : « أتحتاج أنت أيضا الى بذلة لك ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « لا ! » . ولكن دارتانيان عاد يسأله : « ولم لا ؟ .. ألست ذاهبا الى فو أيضا ؟ »

فقال فى هدوء : « سأذهب بلا حاجة الى ثوب جديد .. انك تنسى يا دارتانيان أن أسقف فان الفقير ليس عنده من الثروة ما يجعله يعد ثوبا جديدا لكل مهرجان ! »

ولم يتحرك برسران من مكانه ، وظل مشغولا بقطعة القماش التى بيديه فاختطفها منه أراميس قائلا :

— يا عزيزى برسران .. على مقربة من هنا المسيو لبرون أحد رسامى المسيو فوكيه !

فسأله الحائك : « أتريد أن أخيط له أيضا بذلة كبذلات الابيقوريين ؟ »

فقال أراميس : « ان لبرون لا علاقة له بذلك ولكن المسيو لبرون سيرسم صورة للملك فى احدى بذلاته الجديدة هذه ولذا يجب أن يراها ويدرسها »

فبانت الدهشة على برسران وقال : « أتعنى أن الملك حين يصل الى فو ، سيرى صورة له مرتديا بذلة من بذلاته الجديدة ؟ »

فأومأ أراميس برأسه موافقا ، وقال دارتانيان : « هذه فكرة بديعة ولا شك ! »

وسارع برسران فقدم كرسيا للرسام ، ثم ذهب فأحضر أربع بذلات فاخرة للملك تم صنعها ، أما البذلة الخامسة فكانت لا تزال فى أيدى الصناع . وبادر لبرون فشرع يرسم تلك البذلات . ولكن أراميس لم يلبث أن قال له : « لا فائدة من الرسم هنا فان الضوء غير مناسب ، ولا يمكنك

أن تقلد ألوان البـذلات على اللوحة تماما · ولهذا يحسن أن تأخذ نموذجا لكل بذلة ثم ترسم على مهل فى ضوء مناسب »

فقال الرسام : « أجل هذا أفضل كثيرا ، وانى فى هـذه الحالة أضمن النتيجة ! »



عاد أراميس الى سـان مانديه وقد ضايقه أن لقى دارتانيان فى محل برسران ، أما موليير الذى صحبه الى هناك فكان مسرورا لعثوره على شخصية مثل شخصية بورتوس · وكان هناك أيضا الشعراء : لافونتين ، وبليسون ، ولوريه وقد أخذوا يعدون القصـائد لمهرجان فو · وبين حين وآخر كان أحـدهم يسأل الآخر عن كلمة مناسبة للقافية ··· وكأنهم فى ضحكهم ومرحهم ونقاشهم خلية نحل !

وانهم لكذلك ، اذا بالمسيو فوكيـه يدخـل عليهم ثم يقول لأراميس متحسرا دون أن يسمع همسة أحد الشعراء الحاضرين : « انهم يضحكون ! حقا ما أسعدهم ! »

فسأله أراميس : « وأنت ألا تضحك يا صاحب الفخامة ؟ »

فأجابه قائلا : « ليس عندى ما يبعثنى على الضحك يا مسيو دربلاى · ان المهرجان يقترب موعده ، والمال ينزلق كالزئبق · ولا علم لى بشىء بعد عن الملايين التى وعدتنى بها ! »

فقال أراميس : « ستكون فى يدك غداة مجىء الملك الى فو »

فنظر اليه فوكيه نظرة فاحصـة ثم سكت وهو يمسح جبينه بيـده ، فسأله أراميس : « أمرتاب أنت فى هذا ؟ »

فقال له فى لهجة أشد حزنا : « يا عزيزى دربلاى ·· اننى اذا سقطت فسأسقط من شاهق ، وبذلك أتحطم تماما ! »

وسكت هنيهة ، بينما الشعراء ماضون فى ضجيجهم ، ثم سأله فوكيه : « من أين أتيت يا صديقى ؟ »

فقال : « من باريس · من عند برسران »

فسأله الوزير : « ماذا كنت تفعل هناك ؟ · انى أراك كثير الاهتمام باعداد ملابس أصدقائنا الشعراء ! »

فقال له : « لقد ذهبت لكى أعد مفاجأة أخرى لتقدمها للملك ! »

فسأله فوكيه : « أتتكلف كثيرا هذه المفاجأة ؟ » · فأجاب قائلا : « ليس أكثر من مائة بستول تعطيها الى لبرون »

فهز فوكيه رأسه وقال : « انها صورة اذن ؟ · حسنا · ماذا تمثل هـذه الصورة ؟ »

فقال أراميس : « سأشرح لك كل شىء · وقد ذهبت فى الوقت نفسه لأطمئن على ملابس الشعراء · والواقع أنها فخمة الى حد أن قليلا من الكبراء سيمكنهم ارتداء مثلها ! »

فقال فوكيه : « حقا ·· انك لكريم يا قسنا العـزيز ! · والى أين أنت ذاهب الآن ؟ »

فقال أراميس : « انما أقتدى بك يا سيدى الوزير ، وسأذهب الى باريس اذا أعطيتنى خطابا الى المسيو ليون وزير الداخلية ، لأنى أريد منه أن يوقع على أمر كتابى بسيط ! »

فسأله الوزير مبتسما : « لعلك تريد أن تزج أحدا فى السجن ؟ »

فقال أراميس : « بل أريد الافراج عن شاب بائس لبث فى السجن عشر سنين ، لا لذنب سوى أنه كتب بيتين من الشعر باللغة الاتينية ! »

فسأله : « ما اسم هذا المسكين ؟ ولماذا لم تخبرنى بأمره من قبل ؟ »

فقال : « اسمه سلدون ، ولم أعلم بأمره الا أمس اذ جاءتنى أمه باكيـة تتوسل ، وهى سيدة فقيرة بائسة ! »

فهز الوزير رأسه أسفا ، ثم كتب الخطاب المطلوب الى المسيو ليون وزير الداخلية وأعطاه الى أراميس ، ثم أخرج من جيبه عشر ورقات نقد حكومية من فئة ألف فرنك وقال له :

ـ خذ هذا الخطاب الى المسيو دى ليون ، وهذه عشرة آلاف فرنك الى أم الشاب · انها ستصبح أغنى منى بمقدار هذا المبلغ !

فتناول أراميس الخطاب والمال ، ثم قبل يد الوزير شاكرا وخرج



دقت الساعة الكبيرة التى تعلو برج الباستيل سبع دقات ايذانا بالساعة السابعة مساء ، وهى الموعد الذى حدده المسيو بيزمو مدير السجن لتناول العشاء ، وقد حرص على مضاعفة أطايب الطعام والشراب على مائدته فى تلك الليلة اكراما لضيفه المسيو أراميس أسقف فان ، الذى جاءه فى زى أقرب الى زى الفرسان وسيفه معلق بجانبه

وصرف بيزمو خادمه فرنسوا ثم قال لأراميس : « أتدرى أنك فى هذه الليلة تذكرنى باثنين أحـدهما الكاردينال العظيم دى ريشيليو ، والآخر فارس قديم وسيم الوجه صار قسيسا ثم أسقفا ثم ··· »

فقاطعه أراميس قائلا : « أرجو أن تقف عند هذا الحد يا عزيزى بيزمو ! · كل ما فى الأمر أنى لا أريد الليلة أن أشغل نفسى بشئون الكنيسة »

فقال بيزمو : « اذن أنت يا صاحب الفخامة تضمر نوايا لا تعد صالحة من وجهة نظر الدين ؟ »

فقال أراميس : « أجل ان لى الليلة نوايا دنيوية لا يُرضى الدين عنها »

فنظر اليه بيزمو متأملا زيه الجديد وقال : « هل عبرت طرقات المدينة متنكرا هكذا ؟• وهل ما زلت تستعمل سيفك ؟ »

فأومأ أراميس موافقا وقال : « على أنى لا أستعمل سيفى الا مضطرا ! »

فقال بيزمو : « لعلك تشعر الآن بالملل بعد أن عاد المسيو دى لافير الى مزرعته فى بلوا ؟ انه صديق قديم لك ، أليس كذلك ؟ »

فقال له أراميس : « انك تعرف ذلك كما أعرفه لأنك كنت فارسا معنا ! »

وهنا ابتسم بيزمو قائلا : « الواقع أننى لا أحسب عدد السنين التى تمر ، كما أننى لا أعد زجاجات النبيذ ! »

فهز أراميس رأسه موافقا وقال : «أنت على حق • غير أنى لا أحب المسيو دى لافير فقط بل أجله أيضا !• »

فقال بيزمو : « أما أنا فان المسيو دارتانيان أحب الى ! »

وهنا قال أراميس فجأة : « يا عزيزى بيزمو •• انى الليلة أشعر بهم يكمن فى أعماق نفسى ، ولهذا أريد أن نشرب كثيرا كما كنا نصنع فى الايام الخالية ! »

فبدا البشر فى وجه بيزمو وصاح قائلا : « مرحى مرحى ! » • ثم صب لنفسه خمرا فى كأس كبيرة وتجرعها مرة واحدة ، ثم ملأها مرة أخرى وملأ كأس أراميس !

وما وافت الساعة الثامنة حتى جاء الخادم فرانسوا بزجاجة النبيذ الخامسة ، وفى الوقت نفسه جاء ساع يحمل رسالة ، وأحدث ضجة فى فناء السجن ، ولكن بيزمو لم يسمع شيئا حتى صاح أراميس قائلا : « ليذهب الى الجحيم ! » • فسأله : « من تعنى يا صاحب الفخامة ؟ » • فقال : « انه ساع جاء راكبا جوادا •• ألا تسمع ما أحدث من ضجة تكفى لازعاج مدينة كاملة ؟! »

ورفع بيزمو كأسه قائلا : «اذن ليذهب الى الجحيم مسرعا حتى لا يزعجنا!»

وابتسم أراميس وقال : « انك تنسانى يا بيزمو • ان كأسى خالية ؟! »

فبدا السرور فى وجه بيزمو وقال له : « أقسم بشرفى انى مسرور منك الليلة ! » • ثم نادى فرانسوا خادمه وأمره باحضار زجاجة أخرى ، وما لبث هذا قليلا حتى جاء بها وقال لسيده : « بالباب رسول يستأذن فى الدخول ؟ »

فقال له بيزمو : « ليترك الرسالة التى جاء بها فى المكتب وليذهب الى الشيطان • وغدا بالنهار أرى ما فى تلك الرسالة »

ثم التفت الى أراميس وقال : « ان ذلك شىء مزعج حقا ، لكنهم لا يعلمون طبعا أنى الآن أتسامر مع صديق لا يلبث قليلا حتى يصير كاردينالا ! »

فقال له أراميس : « يجب أن ترى ما جاء به هذا الرسول ، فلعله يحمل أمرا عاجلا ! »

فقال : « نعم ، أنت على حق ! • ان أوامر الملك مقدسة ولا شك ، لكنها حين تأتى أثناء تناول العشاء فان الرسول الذى يأتى بها يجب أن يذهب الى الشيطان ، وحسبى عذرا أنى لم أرد أن أزعج أسقفا عظيما سيصير كردينالا عما قريب »

وهنا قال له أراميس جادا : « لا تنس يا بيزمو أنى الآن فى ثوب الجندية ، وأنى تعودت الطاعة فى كل مكان • ولهذا أريد أن تؤدى واجبك كاملا يا صديقى ، وبلا أى ابطاء ! »

فتنهد بيزمو وقال : « حسنا ! • فليأتونى اذن بذلك الأمر الملكى ••• أتدرى ماذا أتوقع أن يكون فى هذا الأمر ؟•• أكبر الظن أنى سأقرأ فيه : (احذر وضع النار قرب مخزن البارود) • أو : (راقب السجين ••• عن كثب لأنه بارع فى الفرار) •• آه لو علمت يا سيدى كم مرة أيقظونى من أعمق النوم وأحلى الأحلام لان جيادا تعدو برسل تحمل أمثال هذه الاوامر، بل كثيرا ما يكون الأمر ليس أكثر من سؤال عن الحال !•• لا ريب أن الذين يضيعون وقتهم فى كتابة أمثال هذه الأوامر لم يناموا قط فى الباستيل !»

وعاد فرانسوا فسلم بيزمو أمرا وزاريا ، وفتحه هذا ببطء وقرأه • وتظاهر أراميس بأنه يحتسى كأسه لكى يراقب بيزمو من خلال زجاجها • فلما انتهى هذا من قراءة الأمر قال : « ألم أقل لك ؟• انه أمر بالافراج عن سجين فى الساعة الثامنة مساء ! •• أرأيت الأوامر التى يزعجوننا بها ؟! »

فقال له أراميس : « هذا عمل خيرى يا عزيزى بيزمو »

فرد قائلا : « نعم ، هو عمل خيرى بالنسبة للسجين ولكن ليس لى أنا أثناء الترفيه عن نفسى ! »

فسأله أراميس : « هل تخسر كثيرا بالافراج عنه ؟• أعنى هل هو من السجناء الذين يدفعون فئة غالية ؟ »

فأجاب قائلا : «كلا !•• انه ليس الا شخصا بائسا لا يدفع سوى خمسة فرنكات فى اليوم ! »

فقال أراميس : « دعنى أر الأمر • انه ليس سرا طبعا ؟! »

فناوله الأمر قائلا : « كلا !• لكنه عاجل كما ترى مكتوبا فى أعلى الورقة !• تصور يا سيدى • سجين يمكث فى السجن عشر سنوات ثم يأتى أمر بالافراج عنه فورا هكذا ! »

فقال له أراميس معزيا : « انهم هم الذين يكتبون الأوامر ، وما عليك الا التنفيذ ! »

فتساءل بيزمو مغضبا : « التنفيذ ؟!• أتحسبنى عبدا رقيقا ؟ »

وسارع أراميس الى استرضائه قائلا : « من قال ذلك يا عزيزى بيزمو؟•

انك معروف بحرية الرأى !٠ ولكنك معروف أيضاً بطاعتك لرؤسائك ٠ ان الذى كان جنديا فترة من حياته يبقى جنديا حتى آخر العمر ! »

فهز رأسه موافقا وقال : « على كل حال سأطيع هذا الأمر وأطلق سراح السجين غدا عند الفجر ! »

فقال له أراميس : « ولماذا لا تطلق سراحه هذا المساء ما دام الخطاب المختوم يحوى كلمة (عاجل) ٠٠؟ »

فنظر اليه بيزمو قائلا : « أأنت تريد ذلك أيضا ؟٠ وفى الوقت الذى نتناول عشاءنا فيه ؟ »

فقال له : « بل أنا أرجو منك أن تسارع الى اطلاق سراح ذلك المسكين، ان هذا يضمن لك الجنة ولا شك ! »

فدق بيزمو الجرس لفرانسوا ثم استدار نحو الباب ٠ وكانت الورقة التى بها أمر الافراج ما زالت فوق المائدة فانتهز أراميس هذه الفرصة وأبدل بها ورقة أخرى تشبهها أخرجها من جيبه ٠ ثم جاء فرانسوا فقال له بيزمو : « قل لرئيس السجانين يجىء الى حالا » ٠ فانحنى فرانسوا وخرج ٠ وعلى أثر ذلك ساد الصمت هنيهة لم يحول أراميس نظره خلالها عن بيزمو ، وكان هذا يبحث عن ذريعة يرجىء بها تنفيذ الأمر الى ما بعد تناول الحلوى ، ثم ما لبث أن قال : « من المحال أن نفرج عن سجين فى مثل هذه الساعة !٠أين يذهب وهو لا يعرف باريس ؟٠ان مثله اذا أطلق سراحه ليلا لن يكون الا كمثل الأعمى ! »

فقال أراميس : «ان عربتى بالانتظار ويمكن الذهاب به الى حيث يشاء !»

فقال له بيزمو : « ان لديك جوابا حاضرا عن كل سؤال ! » ٠ ثم التفت الى فرانسوا قائلا : « اذهب الى رئيس الحراس وأبلغه أن المسيو سلدون السجين بالغرفة رقم ٣ يجب أن يطلق سراحه الآن »

فصاح أراميس بلهجة طبيعية : « سلدون ؟ هل قلت سلدون يا عزيزى بيزمو ؟٠٠ أظن أن الاسم المكتوب فى الأمر هو (مارشيالى) ٠٠ وليس (سلدون) ٠٠ ؟ »

فقال بيزمو فى حزم : « كلا بل اسمه سلدون٠وقد قرأته٠قبل أن تقرأه أنت ، وهو مكتوب بحروف كبيرة »

فقال أراميس : « وأنا قرأت اسم مارشيالى بحروف كبيرة أيضا ! »

فقال بيزمو واثقا من نفسه : « ها هى ذى الورقة ، ما عليك الا أن تعيد النظر فيها لتعلم أينا أقوى ذاكرة »

فأمسك أراميس الورقة وبسطها قائلا : « ها أنذا أقرأ فيها اسم مارشيالى ٠٠ انظر يا عزيزى بيزمو »

فنظر بيزمو فى الورقة ثم أدلى ذراعيه الى جنبيه٠وقال مغلوبا على أمره : « أجل مارشيالى ٠٠ ان هذا هو الاسم المكتوب فعلا٠ مارشيالى ؟مارشيالى؟٠

كيف ذلك ؟ انه الرجل الذى تكلمنا عنه كثيرا !٠ الرجل الذى يطلبون الى كل يوم أن أعنى به ! »

فقال أراميس بعناد : « أجل٠ان الاسم المكتوب فى الأمر هو مارشيالى، ألا تصدق عينيك ؟! »

فقال : « حقا ٠٠ ان عينى تقولان ان المكتوب هو مارشيالى ٠ ولكنهما قالتا لى منذ هنيهة ان الاسم المكتوب هو اسم سلدون الايرلندى ٠ وكانت تحته نقطة حبر أيضا ! »

فتأمل أراميس الاسم المكتوب فى الورقة وقال : « كلا !٠ لا توجد نقطة حبر يا عزيزى بيزمو !٠ وعلى كل حال ها أنت ذا ترى أن الأمر خاص بالافراج عن مارشيالى سواء كانت به نقطة حبر أم لم تكن ! »

فقال بيزمو بطريقة آلية : « ان الأمر خاص بالافراج عن مارشيالى »

ثم قال أراميس ضاحكا : « واذا كان قلبك يحدثك بالافراج عن سلدون أيضا فانى أصارحك بأنى لا أعارض فى ذلك مطلقا ! »

وبعد نصف ساعة سمع صوت باب زنزانة يفتح فأطفأ أراميس كل الشموع التى بالغرفة ما عدا شمعة واحدة تركها تضىء خلف الباب ٠ ثم سمع وقع خطى تقترب فقال لبيزمو : « هيا قابل رجالك »

فأطاع المحافظ ثم عاد بعد قليل يتبعه سجين ٠ وكان أراميس قد جلس فى ركن غير مضىء ، فرأى السجين دون أن يراه هذا ، ولحظ حيرته وارتباكه حين أبلغه محافظ السجن أمر الافراج عنه ، كما لحظ ارتعاش صوته وهو يقسم هامسا ـ طبقا لما تتطلبه اللوائح ـ ألا يفشى أى سر وقف عليه خلال وجوده فى الباستيل ٠ وأخيرا قال بيزمو للسجين :

ـ أنت منذ الآن مطلق السراح يا سيدى ، فأين تريد الذهاب ؟

فتلفت السجين حواليه كمن يبحث عن أحد يعتمد عليه ، وعندئذ خرج أراميس من ركنه المعتم وقال : « ها أنذا هنا لأؤدى لهذا السيد أية خدمة يريدها ! » ٠ ثم تأبط ذراعه وخرجا



قال أراميس للأمير فيليب : « يا سمو الأمير .. انك تعرف تاريخ الحكومة القائمة الآن فى فرنسا . ان الملك كان فى طفولته مغمورا كما كنت أنت مغمورا ، ولكنه بدل أن تنتهى به طفولته الى السجن مثلك ، انتهت به الى العرش وتبعاته . والذى يجلس على العرش يسلط عليه ضوء يفضح أقل شائبة فيه . ان الملك قد قاسى الألم وأثر ذلك فى نفسه ، وهو الآن يريد الانتقام ، ولا أقول انه سيسفك الدماء مثل لويس الحادى عشر أو شارل الحادى عشر ، ولكنه سيستهلك موارد شعبه . وأنا أريح ضميرى

اذ أزن مزاياه وسيئاته ، فاذا حكمت عليه لا له كان ضميرى مستريحا ! »

وتوقف أراميس عن الكلام لكى يجمع شتات أفكاره ، ولكى يترك لما قاله وقتا يستقر فيه بذهن الأمير ، ثم عاد يقول : « ان كل ما عند الله خير . وقد أرادت العناية الالاهية أن أكون بين القليلين الذين وقفوا على سر مولد الملك ومولدك ، فلا شك أن تلك العناية قد اختارتنى أداة لتنفيذ ارادتها ، فقد وهبت الايمان والعزيمة والجرأة ، وأنا زعيم جماعة دينية سرية لا تخالف لى أمرا ! »

وهنا تحرك الامير فى مقعده فقال له الأسقف : « انى أفهم لماذا رفعت رأسك ، انك تعجب اذ تسمع أنى على رأس قوم أقودهم ، ولكنك لا تعلم أن هؤلاء القوم يبذرون البذور ولا يبالون أن يجنوا الثمار ، لأنهم انما يعملون فى سبيل مثل أعلى يضحون من أجله كل شىء ، وهم متحدون متساندون حتى لكأنهم رجل واحد ، هذا شأن الرجل الذى يحدثك يا صاحب السمو ولقد أخرجك من الهاوية لغاية عظيمة ! »

وهنا لمس الامير ذراع محدثه وقال له : « انك تحدثنى عن جماعة دينية أنت زعيمها . وأنا أدرك من كلامك أنك اذا شئت أسقطت الرجل الذى تكون قد رفعته ، وانه انما يكون أداة فى يدك »

فأجاب أراميس قائلا : « ان المكان الذى ترتفع اليه سيكون لك الى النهاية !. وستزيح الكرسى الذى صعدت عليه ليتدحرج بعيدا عنك فلا تراه مرة أخرى ، بل لن تذكر أنه يستحق منك عرفان الجميل ! »

فغمغم الامير الشاب : « ماذا يا سيدى ؟ ! » . وواصل أراميس كلامه فقال :

ــ الواقع أنى أطمح الى ما هو أكثر من عرفان الجميل . وانى موقن أنك حين تبلغ الذروة ستراني أجدر منى اليوم بأن أكون صديقك ، وعندئذ يا صاحب السمو سننجز من جلائل الاعمال ما سوف تتحدث عنه الأجيال المتعاقبة !

وهنا سأله الامير : « خبرنى فى صراحة . ماذا أنا اليوم ؟ . وماذا تريد أن تجعل منى غدا ؟ »

فقال أراميس : « انك ابن الملك لويس الثالث عشر وأخو لويس الرابع عشر ، فأنت الوارث الطبيعى الشرعى لعرش فرنسا. ان الأطباء هم وحدهم الذين يستطيعون أن ينازعوا أخاك التوأم حقه فى العرش ، ولكن الأطباء بالطبع يؤثرون الملك الجالس فوق العرش على الامير البعيد عن العرش وان كان أحق به !.. وقد شاء الله أن يكون اضطهادهم لك بحيث يثبت حقك فى العرش . لقد كان لك هذا الحق بقدر ما لأخيك ، ففى عروقك ما فى عروقه من الدم الملكى . ولهذا لم يجرؤ أحد على أن يسفك دمك كما سفكوا دم مربيك ومربيتك . فالآن يا صاحب السمو .. أنظر ماذا وهبتك العناية الالاهية التى بدت كأنها ظالمة لك . لقد وهبتك مثل ملامح أخيك ومثل

قوامه ومثل صوته ، حتى ان سبب اضطهادك لا يلبث حتى يصبح سبب رفعك الى العرش . فغدا أو بعد غد ستجلس على عرش لويس الرابع عشر بعد أن يغادره مغتصبه منك الى غير رجعة ! »

فقال الأمير : « انى أفهم أن أخى لن يسفك دمه . أليس كذلك ؟ »

فقال أراميس : « انك وحدك ستكون القاضى الذى يقرر مصيره ! »

فسأله الأمير : « والسر الذى اتخذوه سببا للاساءة الى ؟ »

فأجاب قائلا : « ستتخذه سلاحا ضده !. لقد أخفوك عن العالم بالمؤامرة التى دبرها مازارين مع الملكة النمسوية . وأنت اذ تحبط هذه المؤامرة يا صاحب السمو ستجد صالحك فى اخفائه عن العالم ايضا ، فيصبح سجينا مثلما كنت ، على حين تصبح انت ملكا مثلما كان ! »

فقال الأمير : « ومن الذى سيتولى حراسته ؟ »

فقال أراميس : « يتولاها من تولى حراستك أنت من قبل !. ولن تستطيع الملكة الوالدة ولا مدام دى شيفريز أن تعرفا حقيقة شخصيتك اذا تصرفت سموك على النحو المطلوب ! »

فقال الامير : « هذا صحيح . ولكن هناك صعابا شديدة ما أظنها تخفى عليك .. ان أخى متزوج . ولا أستطيع ان أتخذ لنفسى زوجة أخى ! »

فقال أراميس : « سأجعل ملك أسبانيا يوافق على طلاقها لصالح سياستك الجديدة !.. والآن ما رأيك يا صاحب السمو ؟ »

فقال الامير : « قبل أن أتخذ قرارا دعنى أولا أهبط من هذه العربة وأسير فوق الارض وأستشير نفسى . انى لا أطلب سوى عشر دقائق وبعدها أدلى اليك بالجواب ! »

فانحنى أراميس أمامه قائلا : « كما تشاء يا صاحب السمو ! »

وهبط أراميس من العربة ، وأمسك بابها مفتوحا حتى هبط الامير ، ثم أخذ هذا يدور حول العربة فى خطى متعثرة لأنه لم يعتد السير منذ سنين . وكان ذلك فى منتصف شهر أغسطس ، وقد أوشك الليل أن ينتصف ، وتكاثفت السحب منذرة بقرب عاصفة ، فأخذ الامير يستنشق الهواء المعطر برائحة الأعشاب والأشجار ، وينظر الى السماء وكأنه لا يصدق أنه صار حرا طليقا . واستغرق فى تفكير عميق وهو يمشى الهوينى على مقربة من العربة ، ثم عاد أخيرا الى أراميس وعليه سمت الجد والعزيمة وقال له : « هيا بنا نذهب الى حيث يوجد تاج فرنسا »

فقال له أراميس : « أهذا ما عولت عليه يا صاحب السمو ؟ » . فقال فى حزم : « أجل ! »

وقال أراميس : « ان نظرتك يا مولاى تدل على خلق وعزيمة . انك ستكون ملكا عظيما وانى لمؤمن بذلك ! »

فقال الامير : « لنعد الى ما كنا نتكلم فيه . لقد أردت أن أباحثك فى شأن

الأخطار أو العقبات التى تواجهها وقد انتهينا من هذا ، ولم يبق الا الشروط التى تفرضها على . انه دورك فى الكلام يا مسيو دربلاى !. أم أنت تحسبنى من السذاجة بحيث أعتقد أن ليس لك صالح فى هذا الأمر ؟ ! »

فقال أراميس : « سأقول لك يا سيدى كل ما اريده متى صرت ملكا »

فسأله : « ومتى يكون ذلك ؟ » . فأجاب قائلا : « مساء غد ، أعنى خلال الليل !. هل قرأت سموك المذكرات التى ارسلتها الليلة لتعرف الأشخاص الذين سيكونون فى معيتك ؟ »

فقال الامير : « نعم قرأت كل تلك المذكرات وحفظتها عن ظهر قلب ويمكنك أن تسألنى فيما جاء فيها عن كل شخص ، بل أنا أعرف الآن كل هؤلاء الأشخاص من صورهم التى ارفقت بالمذكرات »

وسكت الامير قليلا ثم سأل أراميس : « ماذا تريد منى أن أصنع بالمسيو فوكيه ؟ »

فقال : « أريد أن تبقيه وزيرا للمالية كما هو الآن ! »

فقال الامير : « لكنه رئيس الوزراء فى الوقت الحاضر ، أليس كذلك ؟ »

فقال أراميس : « ليس كذلك تماما يا صاحب السمو ، وعلى كل حال أرى انك لن تحتاج الى رئيس للوزراء قدر حاجتك الى صديق ! »

فنظر اليه الامير وقال : « ليس لى سوى صديق واحد هو أنت يا مسيو دربلاى .! واذن يجب ان تكون انت رئيس وزرائى »

فقال : « ليكن ذلك فيما بعد اذا شئت ، أما الآن فانه قد يثير الدهشة والريبة ! »

فقال الامير : « ان المسيو دى ريشيليو الوزير الاول لجدتى دى مديتشى كان أسقفا بسيطا لمدينة لوسون ، كما أنك الآن أسقف فان »

فابتسم أراميس وقال : « أرى انك يا صاحب السمو قد درست مذكراتى ووعيتها بصورة تدعو الى الاعجاب ! »

فقال الامير : « وأنا أعلم أن ريشيليو لم يلبث أن أصبح كاردينالا بفضل حماية الملكة له »

فانحنى أراميس وقال : « انى أوثر الا أعين وزيرا أول الا بعد أن تحصل لى سموك على لقب كاردينال ! »

فقال له : « ستعين كاردينالا قبل أن ينقضى شهران يا مسيو دربلاى ! »

وسكت الأمير قليلا ثم قال : « انك أكثر من عظيم وأكثر من بارع وأكثر من عبقرى . لتكن لى أبا يا مسيو دربلاى ! »



يقع قصر فوكيه على بعد نحو فرسخ من بلدة ميلون ، وكان فوكيه قد شيده سنة ١٦٥٥ فى وقت كانت تجتاح فرنسا فيه ضائقة مالية ، فقد أخذ

مازارين كل ما كان هناك من مال ، وأنفق فوكيه البقية الباقية . ولكن لما كان لبعض الناس أخطاء مثمرة ومساوىء نافعة ، فان فوكيه اذ بدد ملايين الفرنكات على انشاء هذا القصر قد جمع معا ثلاثة من العظماء هم : ليفان المهندس المعمارى ، ولينورت مصمم الحدائق ، ولبرون الرسام الذى زين جدران الغرف والسقوف . وهكذا جاء ذلك القصر آية فذة فى فخامته

وقد أعد فوكيه هذا القصر أيما اعداد لاستقبال الملك الذى كان يعد أعظم ملوك ذلك العصر ، وقبل ذلك وصل الى هناك أصدقاء فوكيه وبينهم كثيرون من الممثلين والرسامين والمثالين والشعراء وغيرهم من الفنانين

وفى اليوم الخامس عشر من أغسطس ، كانت الشمس قد أطلقت أشعتها على التماثيل البرونزية والرخامية البديعة فى حدائق القصر ، ورفعته حرارة الماء فى النوافير والجداول ، وانضجت على الشجر ثمار الخوخ الشهى . وقد عنى أراميس بتوزيع الضيوف الكثيرين على غرف القصر ، ولم يفته شىء من دقائق النظام ، على حين عنى فوكيه ببرنامج المهرجان فى جملته ، فأطلعه جورفيل على معدات الألعاب النارية ، وقاده موليير الى المسرح الذى رتبه ، وأخيرا بعد أن زار الكنيسة و (الصالونات) والأروقة ، هم بالنزول الى الطابق الأسفل وهو منهك القوى ، فرأى أراميس هناك على الدرج ووقف معه يتأملان صورة كبيرة أوشك لبرون أن يتمها ، وقد وقف بجانبها منهمكا فى ذلك والعرق يتصبب من جبينه ، وعليه آثار الجهد ، وكانت الصورة تمثل الملك مرتديا بذلة التشريفة التى تفضل برسران باطلاع أسقف فان عليها سلفا

ووقف فوكيه أمام هذه الصوره ى تكاد تنطق بالحياة فنظر اليها مليا ، ثم لم يجد ما يجزى به الفنان القدير غير أن يقبله ، وكانت لحظة سعيدة للبرون ، ولكنها لم تكن كذلك للمسيو برسران الذى كان يسير خلف فوكيه وقد أعجب بالصورة ، وعلى الأخص بالبذلة التى هى من صنعه وتصميمه ، وبدأ يحتج بالقول والاشارة ، ولكن سمعت فى تلك اللحظة اشارة من الحراس الرقباء الذين بأعلى القصر فقد لاح لهم فى السهل الفسيح الممتد الى بلدة ميلون موكب الملك والملكات قادما فى الطريق ، وكان صاحب الجلالة وقتئذ يدخل تلك البلدة مع صف طويل من العربات والفرسان !

وبقى فوكيه ينتظر عند الباب نصف ساعة حتى وصل الملك فسارع الى امساك ركابه ، ومد الملك يده ليصافحه فقبلها رغم المقاومة الخفيفة التى أبداها الملك . واستقبلت مدام فوكيه الملكتين والأميرات والوصيفات ، بينما كان الضوء ينبعث كضوء النهار من خلال الشجر والزهريات والتماثيل الرخامية ، واستمر ذلك حتى أوين الى داخل القصر . والواقع أن فوكيه كان قد أعد للمليكه من روائع المناظر ما يشبه السحر

ولسنا هنا بصدد وصف المائدة الفاخرة التى زودت بكل ما هو شهى لذيذ طريف ، على أن الملك بعد أن سر لتلك المناظر ما لبث أن تولاه وجوم

فقد رأى أن قصوره الملكية لا تدانى هذا القصر الذى هو لأحـد رعاياه ، ولا تشمل من دلائل الترف والنعيم بعض ما يحتويه

وبلغ من تأثر الملك ان اغرورقت عيناه بالدمع فلم يستطع أن ينظر الى الملكة الشابة الرقيقة القلب وهى تأكل بشهية وتمتدح فوكيه ، أما الملكة الوالدة المتكبرة فغمرت فوكيه بالازدراء . وكان الملك قد أبدى رغبته فى ان يتناول الطعام مع بقية المدعوين ولكن فوكيه أعد المائدة بحيث يكاد الملك يتناول الطعام وحده مع الملكتين والأمراء اذ جعل لهم قسما منعزلا وسط المائدة العامة . وكان فوكيه يخدم الملك بنفسه أثناء العشاء . ووقفت مدام فوكيه خلف كرسى الملكة الوالدة . وكان الملك يتذوق كل شيء ويقول لفوكيه :

ـ محال أن يجد الانسان الوانا من الطعام خيرا مما فى هذا المكان !

وعلى ذلك انقض أفراد البلاط على الوان الطعام الموضوعة أمامهم كما ينقض الجراد على النبات فلا يبقى ولا يذر !

غير أن الملك لم يكد يشبـع حتى عاد الى عبـوسه ، وقد زاد فى كدره ما لحظه من احترام رجال البلاط للمسيو فوكيه . وكان دارتانيان لا يأكل ولا يشرب الا قليلا ، وقد جلس يراقب الجميع من كثب

ولما انتهى العشاء أبدى الملك رغبته فى التريض ، وكانت الحديقة مضاءة بأضواء صناعية وكأنما أراد القمر أن يكون أيضا فى خدمة الملك فأرسـل شعاعه على الأشجار والبحـيرات ليزيد فى جمال المهرجان . وقد نجح المهرجان من كل وجه ، ولاسيما أن الملك ما لبث قليلا حتى صادف الآنسة دى لافاليير فى أحد دروب الحديقة

ومضت ليلة السحر هذه فى طريقها قدما . حتى اذا رغب الملك فى أن يأوى الى غرفته سرت الحركة فى كل مكان . وذهبت الملكتان الى جناحيهما تصحبهما الموسيقى . وألفى الملك فرسانه واقفين على درج السلم اذ كان المسيو فوكيه قد استقدمهم من ميلون ، وأعد لهم مائدة عشاء . وعندئذ تبددت شكوك دارتانيان ، وأراد ان يستمتع ولو مرة فى حيـاته بحفـلة فاخرة كهذا المهرجان

وأرشد الملك وسط حفاوة بالغة الى غرفته ، وكانت أجمل غرف القصر ، وكان لبرون قد رسم صور أحلام جميلة على سقفها المصنوع على هيئة قبة . وقد زودت الغرفة بكل ما يكفل الراحة التامة والأحلام السعيدة . ولم يكد الملك يدخل الغرفة حتى بعث فى طلب المسيو كولبير



خيانة عظمى !

أقام المسيو فوكيه فى اليوم التالى حفـلات شائقة عدة لمليكه . فكانت هناك نزهة ومأدبة ومسرحية جدية ، وأخرى فكاهية من تأليف موليير ، وقد عجب بورتوس كثيرا حين شاهد موليير يمثل فيها ، لأنه كان يحسبه مستخدما بمحل برسران !

على أن الملك كان مشغول الفكر بما أسره اليه كولبير بالأمس عن خيانة المسيو فوكيه المالية القديمة ، وعن محاولته التودد الى الآنسة لافاليير ، وعلى هذا لم يستمتع بكل هذه الروائع التى تشبه ما فى الف ليلة وليلة

وفى المساء كان كولبير ينتظر الملك فى احد دروب الحديقة ، ولعل الملك كان قد اتفق معه على اللقاء هناك ، وسرعان ما أوغلا معا فى الحديقة

اما دى لافاليير فكانت قد لحظت عبوس الملك وأدركت أن هـذا نذير بغضبه على انسان ما ، فقررت أن تتدخل لتخفف من نقمة الملك ، وكانت قد تملكها الحزن لانفصالها عنه طول تلك المدة ، وما لبثت أن ظهرت أمامه ، وعندئذ تراجع كولبير خطوات الى الوراء ، فقال لها الملك وقد لمح ما ارتسم على وجهها من حزن : « هل لى أن أسألك عما بك ؟ .. انك تتنفسين وكأن على صدرك حملا ثقيلا ، ثم ان عينيك أيضا مغرورقتان بالدموع ؟ ! »

فقالت له : « اذا كان الأمر كذلك حقا يا مولاى ، فان حزنى كله ليس الا مشتقا من الكآبة المرتسمة على وجه جلالتك ! »

فقال لها : « كآبة ؟ ! .. أنت واهمة يا عزيزتي ! .. انها ليست كآبة ، ولكنها مهانة أشعر بها ! »

فقالت : « معاذ الله يا مولاى .. ان المهـانة لا تجـرؤ على التطلع الى جلالتك ! »

فعض على شفتيه وقال : « أى مهانة أشد قحة من هذه التى تحيط بى ؟ .. أنا الملك هنا ، أم ذلك الذى استطاع أن يعد هذا المهرجان ؟ . ان المهرجان الذى أقمته فى فونتينبلو لم يكلف عشر ما أنفق هنا بغير حساب ! .. ومن عجب أن كل هذا البذخ ، بل الاسراف الجنونى ، لم يكن الا باسمى ، ومن مالى الخاص ، دون أن أدرى ! .. أهناك ما هو أشد مهانة من هـذا يا آنسة ؟ ؟ »

فقالت مشفقة : « يا صاحب الجلالة ! .. ان هذا المهرجان ما أقيم الا ابتغاء مرضاتك ومسرتك . وكلنا هنا رهن خدمتك وتسليتك و ... »

فقال الملك بغيظ : « ماذا يا آنسة ؟. أتريدين أن تدافعى عن المسيو فوكيه ؟. . عن اللص الوقح الذى يستعلى على بما سلب من مالى الخاص؟. . . كلا !. لن أكون ملك فرنسا ان لم أبدل مهرجانه هذا مأتما له وسبة فى جبينه الى الأبد ! »

وكان ضوء المشاعل القادمة قد اقترب من الحديقة ، فقالت دى لافاليير للملك : « ان موكب المشاعل أوشك أن يصل ! »

وبقى الملك متواريا بين الأشجار بينما وقفت دى لافاليير فى مكانها فقال لها كولبير على مسمع من الملك : « يا آنسة لقد سقط منك شيء ! » . فسأله الملك : « ما هو ؟ » . فقال كولبير : « ورقة .. أحسبها خطابا . أنظر يا مولاى ! »

فانحنى الملك والتقط الخطاب ، وفى اللحظة نفسها جاء حملة المشاعل فغمروا المكان بضوء كضوء النهار !

وأخذ الملك يقرأ الورقة على الضوء الساطع ، متوقعا أن تكون خطابا أعدته دى لافاليير لترسله اليه ، ولكنه ما لبث قليلا حتى علت وجهه صفرة كصفرة الموت ، وارتسم على ملامحه غضب لم يعهد مثله عليه من قبل ، وبدا كأنما ذهب من قلبه كل أثر لعاطفة نبيلة !

لقد كان الخطاب مرسلا الى دى لافاليير حين كانت فى فونتينبلو ، من فوكيه نفسه ، وفيه يحاول اجتذاب قلبها اليه . وقد ضاع هذا الخطاب قبل أن يصل اليها ، وما زال يتنقل من يد الى يد حتى وصل الى كولبير فاحتفظ به ليكون سلاحا فى يده !

ورأى فوكيه ذلك الغضب الذى غشى الملك فجأة ، لكنه لم يدر سببه ، أما كولبير ففرح لاقتراب العاصفة ثم انتبه الملك من تفكيره على صوت فوكيه يسأله فى رفق : « ماذا جرى يا مولاى ؟ »

فبذل الملك جهدا عنيفا حتى استطاع أن يرد قائلا : « لا شيء ! »

فقال فوكيه : « أخشى أن تكون جلالتك متألما من شيء »

فقال بجفاء : « اننى أشعر بألم ، وقد قلت لك ذلك قبلا ، وهذا كل شيء !! »

ولم يصبر الملك حتى ينتهى عرض الألعاب النارية ، بل مضى مسرعا الى داخل القصر ، وصحبه فوكيه وأفراد البلاط جميعا تاركين رؤية الألعاب النارية

وحاول فوكيه مرة أخرى أن يسأل الملك عما به ، ولكنه لم يتلق منه جوابا ، فافترض أن غضبه لسوء تفاهم قام بينه وبين دى لافاليير ، ووجد فى هذا الفرض عزاء له ، فابتسم للملك ابتسامة ودية حين صرفه هذا قائلا له : « عم مساء »

وكان الرحيل مقررا فى الغد ، وعليه لذلك أن يقول كلمة يطرى بها

كرمه وحسن ضيافته ، ولكنه اكتفى بأن قال لفوكيه :

ــ ستسمع منى غدا . أرجو أن تبعث الى المسيو دارتانيان !

وكان الدم يغلى فى عروق الملك وبوده لو يدق عنق فوكيه فى تلك اللحظة ، لكنه أخفى القرار الذى اتخذه نحوه وراء ابتسامة ، وترك له يده ليطبع قبلة عليها ، وان أحس رجفة تسرى فى جسمه حين لمست يده شفتا الوزير !

ولم تمض خمس دقائق حتى جاء دارتانيان بعد أن تلقى أمر الملك بالحضور

وكان أراميس وفيليب فى مكانهما يرصدان ما يحدث فى غرفة الملك ويستمعان لكل ما يقال . ولم يترك الملك لقائد فرسانه وقتا للاقتراب من كرسيه بل مشى نحوه وقال له : « احرص على الا يدخل أحد هنا ! »

فعاد دارتانيان الى الباب حيث أصدر التعليمات لتنفيذ هذا الأمر ، ثم أقبل على الملك قائلا : « هل حدث شيء يا صاحب الجلالة ؟ »

فلم يجب الملك عن هذا السؤال ، وانما قال له : « كم رجلا تحتاج اليهم للقبض على المسيو فوكيه ؟ »

فتراجع دارتانيان خطوة الى الوراء من الدهشة ، ومشى خطوات الى الباب ، لكنه التفت بغتة وقال للملك :

ــ معذرة يا مولاى . انى أحتاج الى أمر مكتوب !

فسأله الملك فى غضب : « متى كانت كلمة الملك غير كافية ؟ ! »

ولكن قائد الفرسان أجاب فى هدوء : « لأن كلمة الملك اذا كانت منبعثة عن غضب ، فليس بمستبعد أن تتغير اذا ذهب عنه الغضب ! »

فقال الملك : « انما انت تطلب مهلة لكى تنشىء كلاما . هل لديك فكرة أخرى ؟ ! »

فقال دارتانيان : « أحسب يا مولاى أن عندى بعض أفكار وآراء »

فتردد الملك وسط سورة غضبه ، وتراجع أمام شجاعة دارتانيان كما يتراجع الجواد أمام راكب جسور مدرب . ثم سأله : « وما هى فكرتك ؟ »

فقال : « انك يا مولاى اذ تأمر بالقبض على رجل لا تزال تحت سقف بيته ، فلا شك أن الغضب وحده هو الدافع الى ذلك . ومتى ولى عنك الغضب فستندم على ما فعلت ، ولذا أحب أن أكون فى موقف يمكننى من أن أريك توقيعك . واذا لم يفد ذلك فى اصلاح الخطأ فانه سيدلنا على الأقل على أن الملك يخطىء اذ يغضب ! »

فنظر اليه الملك شزرا وقال : « ألم يغضب أبى وجدى أيضا ؟ »

فقال دارتانيان : « ان جلالة والدك وجلالة جدك لم يغضبا قط الا حين كانا فى قصرهما ! »

فقال الملك : « ان الملك هو السيد حيث يوجد ! »

فابتسم دارتانيان وقال : « هذه عبارة مديح مغرية لا يمكن أن تنبعث الا من رجل كالمسيو كولبير ولكن هل هي تمثل الحقيقة ؟. وهل يكون الملك سيدا في بيت أي انسان اذا هو طرد صاحب البيت منه ؟ ! »

فعض الملك على شفتيه ولم يقل شيئا . ثم قال دارتانيان : « أهـذا ممكن يا مولاي ؟. ها هنا رجل يحكم على نفسه بالخراب لكي يسرك ، وأنت تريد القبض عليه !. حقا . . لو أنني كنت في مكان فوكيه ، لابتلعت في جرعة واحدة كل الألعاب النارية وكل معدات المهرجان الأخرى ، واشعلت فيهـا النار ، لانفجر وينفجر كل ما في هذا المكان . ولكن على أي حال ما دامت تلك رغبة جلالتك فانها ستنفذ ! »

فقال الملك بعد هنيهة : « اذن راقبه حتى أكون قد صممت على رأى الى صباح غد ! »

فقال : « سأفعل ذلك يا مولاي »



هدأت تدريجا سورة الغضب الجامحة التي سيطرت على الملك حين قرأ خطاب فوكيه الى دي لافاليير ، ثم انقلب غضبه شعورا بالألم والتعب ، ولم تمض دقائق معدودات بعد أن أوى الى فراشه حتى استرخت عضلاته وخمدت أعصابه !

وخيل اليه في بداية نومه أن الاله (مورفيوس) المرسوم على السقف ينظر اليه نظرات تشبه نظرات البشر ، وأن شيئا ما أضاء في القبة التي تعلو غرفته وأخذ يروح ويجيء في جوانبها ، وما لبث هذا الشيء أن تكشف عن وجه آدمي ويد على فم هذا الوجه ، وملامح تدل على تفكير عميق !

أي حلم غريب هذا الحلم الذي يراه ؟ !. . انه لا شك من أثر الجهد العنيف الذي عصر أعصابه عصرا في المساء : ولكن ما بال هذا الوجه الذي تراءى له يبدو كأنه وجهه ؟

ثم خيل اليه أن القبة تختفي تدريجا عن مدى نظره وان الرسوم والأشكال التي رسمها لبرون صارت أدكن من قبل . وأحس أن السرير يواصل الهبوط به في حركة رقيقة متئدة كحركة السفينة حين تنساب على صفحـة الماء الهادىء ، فقال لنفسه : « يا له من حلم ! » . ثم تراءى له أن التاج الذهبي الذي عقدت به الستائر ، يبعد عن بصره كما بعدت القبة التي علق بها ، وكما بعد الملاك ذو الجناحين الذي يحمل ذلك التاج !

وضاق ذرعا باستمرار السرير في الهبوط ، ففتح عينيه ليطرد من رأسه ذلك الحلم الغريب . ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا . فقد حلت الظلمـة محل الضوء في الغرفة ، وأحس في الهواء برودة عجيبة ، ولم يعد يرى رسوما ولا صورا ولا ذهبا ولا ستائر من المخمل ، ولكنه رأى جدرانا داكنة

اللون تزيد في حلكة الظلام الذي غمره . ومع هذا استمر السرير يهبط ، وبعد دقيقة بدت كأنها دهر استقر في مكانه !

ولم يعد الملك يرى ضوءا في الغرفة الا كما يرى الانسان الضوء من قاع بئر . فقال يحدث نفسه :

ــ لا ريب أني تحت تأثير حلم مخيف . لقد حان الوقت لأن أستيقظ منه . هيا . يجب أن أصحو !

وما لبث الملك أن تحقق أنه ليس نائما ، فها هو ذا فجأة قد رأى عن يمينه ويساره رجلين مدججين بالسلاح وقد التف كل منهما بعباءة تغطي جسمه وارتدى قناعا على وجهه . وفي يد أحدهما مصباح !

وحدث نفسه بأن الرؤيا مستمرة ، وأنه لكي يصحو منها ، ينبغي له أن يحرك ذراعيه ، وأن يقول شيئا بصوت مرتفع . ثم قفز فجأة من سريره فاذا به يجد نفسه واقفا على أرض رطبة رخوة . فسرت الرعدة في جسمه والتفت الى الرجل الذي في يده المصباح قائلا : « ما هذا ؟ ما معنى هـذا المزاح الثقيل ؟ »

واشتد ارتجافه حين أجابه الرجل في صوت عميق : « انه ليس مزاحا ! »
ثم سألهما الملك معا : « أأنتما من رجال المسيو فوكيه ؟ »

فقال له الأول : « لا يهم من نكون . . اننا السادة الآن وهذا يكفي ! »

وكان الملك أقرب الى نفاد الصبر منه الى الخوف ، فالتفت الى الشخص المقنع الآخر وقال له : « اذا كانت هنا مهزلة فقل للمسيو فوكيه انها غير لائقة واني أريد أن تنتهي توا ! »

وكان هذا الشخص المقنع الثاني رجلا ضخما طويل القامة عريض الجسم كأنه مارد ، فوقف معتدلا بلا حراك ، فضرب الملك الارض بقدمه وقال له : « الا تجيب ؟ ! »

وهنا نطق المارد فقال : « كلا ! »

وهنـا صاح بهمـا الملك قائلا : « الا يمكنكما على الأقل أن تقولا ماذا تريدان ؟ »

فأجابه حامل المصباح قائلا : « ستعلم ذلك تدريجا ! »

فسأله : « اذن خبرني أين أنا ؟ » . فاكتفى الرجل بأن رفع المصبـاح الذي في يده وهو يقول : « هل ترى الآن ؟ ! »

ونظر لويس حوله على ضوء المصباح ، ولكنه لم ير غير جدران رطبـة فقال : « أنحن في جب ؟ »

فقال الرجل : « كلا !. بل نحن في ممر تحت الارض ! »
فسأله الملك : « الى اين ينتهي هذا الممر ؟ »
فأجاب بقوله : « ما عليك الا أن تتبعنا ! »

فصاح الملك غاضبا : « لن أخطو خطوة واحدة ! »

وهنا قال له الرجل الضخم : « اذا أبديت العناد يا صديقى العزيز ، فانى سأحملك بين ذراعى وألفك فى عباءة ، فاذا أنت اختنقت فلن ألوم نفسى ! » . ثم شمر عن ذراعه الضخمة استعدادا لاستعمال العنف ، فلم يسع الملك الا الاذعان والاستسلام قائلا :

ـ يلوح لى أنى وقعت فى أيدى اثنين من القتلة !.. هيا تحركا !

فلم يجب أحد من الرجلين ، وانما تقدم الرجل الذى يحمل المصباح وتبعه الملك وخلفه الرجل الضخم ، وقطعوا مسافة تتخللها درجات ملتوية ، وكان الملك يسمع فى طريقه صوت ماء فى أعلى ، حتى وصلوا أخيرا الى ردهة طويلة فى نهايتها باب حديدى ، ففتح الرجل الذى يحمل المصباح هذا الباب بمفتاح معلق فى حزامه بين مفاتيح أخرى ، ولما انفتح الباب دخل منه هواء يحمل رائحة الأشجار التى تفوح فى يوم صيف حار فوقف الملك لحظة مترددا ، ولكن الرجل الضخم الذى وراءه دفعه الى الأمام فالتفت اليه الملك بحنق وقال له : « حذار ! ماذا تعتزمان أن تفعلاه بملك فرنسا ؟ »

فأجابه الرجل الذى يحمل المصباح : « حاول أن تنسى هذه الكلمة ! »

وقال له الرجل الضخم : « أنت تستحق أن تكسر أضلاعك على عجلة التعذيب لهذه الكلمة التى قلتها ، ولكن الملك ذو قلب رحيم ! »

وهنا بدرت من الملك حركة سريعة كأنه يهم بالفرار ، ولكن يد المارد سرعان ما أمسكته من كتفه ووقفته حيث كان . ثم قال له الرجل الاول وقد أطفأ مصباحه : « تعال » . فتبعه دون أية كلمة . وكانت هناك عربة مختفية وراء الأشجار الكثيفة ، وقد علق بها جوادان ، ففتح الرجل باب العربة وقال للملك : « ادخل ! » . فأطاعه الملك وجلس فى العربة ، وسرعان ما أوصد بابها ، بينما جلس الرجل الضخم فى مكان الحوذى بعد أن فك قيود الجوادين ، ومضى بالعربة مسرعة حتى دخلت الطريق المؤدى الى باريس . وهناك فى غابة سينار أبدل بالجوادين المجهدين جوادان آخران ، ثم سارت العربة بالسرعة نفسها حتى وصلت الى باريس فى الساعة الثالثة صباحا ، فمضت فى ضاحية (سان أنطوان) حتى وصلت الى الباستيل ، وقيل للديدبان : « بأمر الملك » فترك العربة تدخل الى فناء السجن

وهناك وقفت عن المسير والجوادان يتصببان عرقا ، وصاح الرجل الضخم بالجاويش الذى أقبل نحوهم : « اذهب وأيقظ المحافظ ! » . وكان صوته الذى يشبه الرعد كافيا لأن يمضى الجاويش مسرعا لتنفيذ الأمر !

وبعد عشر دقائق ظهر بالباب المسيو بيزمو لابسا ثياب النوم وهو يصيح قائلا :

ـ ماذا حدث من جديد ؟ ومن الذى أحضرتموه معكم ؟

ففتح الرجل الذى كان يحمل المصباح باب العربة ، وقال كلمتين أو ثلاثا

للجالس فى مكان الحوذى ، فنزل هذا توا من مقعده وأمسك بندقيته الصغيرة ووضع فوهتها على صدر السجين ، فقال له الرجل الآخر :

ـ أطلق النار دون تردد اذا نطق بكلمة !

ثم تقدم الرجل نحو المسيو بيزمو فلما رآه هذا صاح قائلا : « المسيو دربلاى ! »

فقال له أراميس : « صه ! هيا بنا ندخل غرفتك ! »

فسأله : « ترى ما الذى جاء بك فى مثل هذه الساعة ؟ »

فأجاب أراميس فى هدوء : « غلطة يا عزيزى المسيو بيزمو . يظهر أنك كنت على صواب ! »

فسأله بيزمو : « فى أى شأن ؟ »

فقال : « فى شأن أمر الافراج يا صديقى العزيز ! »

فقال بيزمو مشفقا : « ماذا تعنى يا صاحب الفخامة ؟ »

فقال له : « الأمر بسيط جدا .. ألا تذكر يا عزيزى ذلك الأمر الذى أرسل اليك وأنا عندك فى شأن الافراج عن سجين ؟ »

فقال : « أجل .. السجين مارشيالى ؟ »

فقال أراميس : « هذا ما حسبناه مع الأسف »

فقال بيزمو : « ما حسبناه ؟ !.. انك تذكر يا صاحب الفخامة أنى لم أرد أن أصدق ذلك وأنك أرغمتنى على ... »

فقطع أراميس كلامه قائلا : « يا عزيزى بيزمو !. ان كل ما فى الأمر أنى نصحت لك »

فقال بيزمو متنصلا : « أجل !.. نصحت لى بقوة أن أسلمه اليك ، وقد أركبته معك عربتك واخذته معك ! »

فقال أراميس : « حسنا يا عزيزى !. لقد كانت غلطة اكتشفتها الوزارة فيما بعد . ولهذا جئتك الآن بأمر خاص بالافراج عن سلدون الايرلندى البائس . أتذكره ؟ »

فقال : « سلدون ؟ !. أواثق انت هذه المرة يا سيدى ؟ »

فأعطاه الأمر قائلا : « اقرأه بنفسك »

فلما قراه بيزمو قال : « ان هذا الأمر هو نفسه الذى مر بيدى من قبل !. الأمر الذى أكدت لك فى ذلك المساء أنى رأيته !. انى اعرفه بنقطة الحبر التى عليه ! »

فهز أراميس كتفيه قائلا : « لا أدرى أهو ذلك الأمر القديم أم غيره . ولكنى أعرف أنى أحضرته اليك الآن ! »

فسأله بيزمو : « ولكن ماذا أصنع فى شأن مارشيالى الذى أفرجنا عنه ؟ »

فقال أراميس فى هدوء : « لقد جئت به معى لأعيده اليك ! »

فبغت بيزمو ثم قال بعد هنيهة : « لا بد من أمر جديد لكى أقبله فى السجن بعد الافراج عنه ! »

فقال له أراميس : « لاتقل هذا الهراء يا عزيزى ، انه أشبه بكلام الأطفال. أين الأمر الذى تسلمته منى فى شأن مارشيالى ؟ »

فجرى بيزمو الى خزانته الحديدية وأخرج منها ذلك الأمر ، فتناوله أراميس وقطعه اربا ثم حرقه بنار المصباح فصاح به بيزمو : « رباه ماذا فعلت يا سيدى ؟ ! »

فقال له أراميس فى هدوء : « فكر فى مركزك جيدا يا عزيزى المحافظ ، ان الأمر أبسط مما تظن . انك لم يعد لديك أمر بالافراج عن مارشيالى ! وما عليك الا أن تعيد السجين الى زنزانته وتوصد بابها عليه !

ففكر بيزمو قليلا ثم بدا أنه اقتنع مكرها ، فقال له أراميس :

ـ وستسلمنى سلدون بمقتضى هذا الأمر بالافراج عنه . أفاهم أنت ؟ »

فقال متلعثما : « أنا ؟ أنا ؟ » . وواصل أراميس كلامه فقال : « انك فاهم كما أرى . حسنا ! »

فضرب بيزمو كفا بكف وقال : « ولكن لماذا تعيد الى مارشيالى بعد أن أخذته ؟ »

فقال له : « لست أكتم سرا عن صديق مثلك ، عن خادم مخلص أمين ! »

ثم همس فى أذنه قائلا : « ألم تلحظ الشبه العجيب بين هذا البائس وبين . . . »

فأتم بيزمو عبارته قائلا : « وبين الملك .. أجل لحظت ذلك »

فقال له : « حسنا !.. ان مارشيالى لم يكد يطلق سراحه حتى بدأ يقول . . . أتدرى ماذا يقول ؟ »

فقلب بيزمو يديه قائلا : « أنى لى أن أدرى ذلك يا سيدى ؟ »

فقال أراميس : « لقد أخذ يدعى أنه الملك نفسه !. وصار يقلد الملك فى زيه وملابسه !. وهذا هو السبب الذى جعلنى أعيده اليك يا صديقى العزيز . انه مسلوب العقل وقد لحظ ذلك كل انسان سمعه ! »

فقال بيزمو وهو يرتجف : « رباه !.. ما العمل ؟ »

وعاد أراميس فربت كتفه مطمئنا وقال : « الأمر بسيط جدا !.. لاتدع أحدا يتصل به مطلقا . ان الملك حين نمى اليه جنون هذا الشخص وعلم أنه قابل الافراج عنه بهذا الادعاء ، تولاه غضب شديد ، وقد أمر باعدام كل من يسمح لهذا البائس بالاتصال بأى أحد سواى . أفاهم أنت يا مسيو بيزمو ؟.. والآن هيا بنا نذهب لنعيد ذلك الشقى الى زنزانته ! »

(بقية الرواية فى العدد القادم)